

مهرجان القراءة للجميع

الأعمال الإبداعية

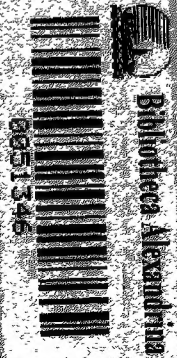
مكتبة
الأسرة
1999

الأبواب المغلقة

أمين يوسف غراب



الهيئة المصرية
العامة للكتاب



الأبواب المغلقة

الأبواب المغلقة

أمين يوسف الخراب



مهرجان القراءة للجميع ٩٩

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(سلسلة الأعمال الإبداعية)

الأبواب المغلقة

أمين يوسف غراب

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة التنمية الريفية

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

التنفيذ : هيئة الكتاب

الغلاف

والإشراف الفني:

الفنان: محمود الهندي

المشرف العام:

د. سمير سرحان

على سبيل التقديم

وتمضى قافلة «مكتبة الأسرة» طموحة منتصرة كل عام، وها هي تصدر لعامها السادس على التوالي برعاية كريمة من السيدة سوزان مبارك تحمل دائماً كل ما يثرى الفكر والوجدان ... عام جديد ودورة جديدة واستمرار لإصدار روائع أعمال المعرفة الإنسانية العربية والعالمية فى تسع سلاسل فكرية وعلمية وإبداعية ودينية ومكتبة خاصة بالشباب. تطبع فى ملايين النسخ الذى يتلفها شبابنا صباح كل يوم .. ومشروع جيل تقوده السيدة العظيمة سوزان مبارك التى تعمل ليل نهار من أجل مصر الأجل والأروع والأعظم.

د. سمير سرحان

الإهداء

إلى « ع » وهي عين

أمين يوسف غراب

تحية

إلى أولئك الذين لم يجدوا على مائدة الحياة سوى طبق واحد فغمسوا فيه لقمة العيش . . .

فتلوث الطبق . وتلوث اللقمة ، وتلوث أيضاً الفم الذى مضغها .

إلى أولئك جميعاً ، وأعني بهم الذين كانت حياتهم فى هذه الدنيا قدراً مقدوراً ، أبعث بتحيتى و . . تعزيتى .

أمين يوسف غراب

تمخرجت في كلية الحقوق . وملت إجازة الدكتوراه في القانون . وكان موضوع الرسالة التي تقدمت بها « الإنسان والدوافع النفسية للجريمة » ولم أستشعر في دراستي أى ضيق أو تعب ، برغم ضخامة الجهد الذى أقوم به . بل العكس ، كنت أجد لذة لا تكاد تعلوها لذة أخرى . فقد كنت منذ الصغر أحب دراسة القانون . ويحلولى تعمق مواده ، ودراستها . وفهم أحاسيس المشرع عندما يتعمق الجريمة ويحدد نوعها ويدرس نفسية المجرم . ولماذا مثلاً تختلف عقوبة القتل العمد الذى يسبقه الترصد عن القتل المفاجئ في معركة مثلاً ، أو في الذود عن عرض ، مع أن نية القتل لحظة ارتكاب الجريمة واحدة ، هذه عزم أكيد على القتل ، وتلك أيضاً عزم مؤكد على القتل ، حتى وأنا طفل كان يحلولى أن أفكر في ذلك ، إذا رأيت الصبية الذين ألعب معهم في الشوارع يتشاجرون بعضهم مع بعض ، أو أتشاجر أنا مع واحد منهم ، وكثيراً ما كنت أسأل نفسى : لو كنت أنا مكان هذا الصبي الذى ضربنى وأسأل دماغى ، فهل كنت فعلت ما فعلت وهل من أجل هذا السبب التافه ، إنى مثلاً أخذت الكرة منه وقذفت بها بعيداً ، أستحق أن أضرب بهذه القسوة حتى تسيل دماغى ؟

هكذا كثيراً ما كنت أسأل نفسي مثل هذا السؤال ، وكثيراً ما كان يجيبني الجواب : لا ؛ إذن لماذا فعل هذا الطفل ما فعل ؟ ولماذا ضربني بهذه الوحشية حتى أسال دمائي ؟ وسريعاً ما كان يجيبني الجواب شافياً . . إما أن أمه مثلاً على خلاف مع أمي ، أو أنه مثلاً ابن الخوذي ، أو ابن البواب ، وهو فقير ومعوذ ورث الثياب ، وأنا ابن باشا وثري ؛ وثيابي نظيفة ، وأرتدى فاخرها دائماً ، إذن هناك دوافع نفسية للجريمة ، غير الدوافع المادية التي ترتكب من أجلها .

ولعل تفكيري في ذلك وأنا بعد طفل ، ظل يلزمني فيما بعد ، وهو الذي جعلني أتقدم برسالة في نفس الموضوع « الإنسان والدوافع النفسية للجريمة » .

ولما تخرجت ، استطعت بفضل مؤهلي ، وأسرتي ، أن أحصل على وظيفة كبيرة ، فقد كانت الوظائف إذ ذاك ، وفقاً على أبناء الأسر الكبيرة ، وليست على أصحاب المؤهل فقط . وكنت من حسن الحظ أنتمي إلى أسرة كبيرة فعلاً ، فقد كانت أمي تركية الأصل ، وكان جدها لأبيها من الذين حكموا مصر فترة من الزمن . وكان أبي برغم أنه نشأ في أسرة فقيرة في الريف ، وكان يعمل في صدر شبابه ناظراً للزراعة في أحد التفتائيش التي كان يملكها جدي لأمي . إلا أنه استطاع بفضل ذكائه وألمعيته ومهارته الفائقة في تعرف نفسيات البشر أن يشق طريقه سريعاً . ويصبح من أثرياء أهل الريف ويتزوج من أمي ، التي كان زواجه منها

فاتحة خير كثير له بعد ذلك ، وأن يظفر برتبة الباشوية وأن يصبح عضواً
في البرلمان . ؟؟

ولذلك عندما تخرجت ، وعينت في سلك النيابة العامة ، نُظر إلى
بعين الاعتبار ، ولما عرف عني ميلى إلى تعمق البحث في أصل الجرائم وحب
المعرفة في بواعثها وأسباب ارتكابها ، كان يحال إلى بعض الجرائم الهامة
التي ترتكب ، وحدث أن وقعت في ذلك الحين بعض الجرائم الكبرى .
السياسية وغير السياسية ، التي هزت البلاد في ذلك الحين . وكان الوصول
إلى معرفة مرتكبيها أمراً عسيراً جداً ، ولكن بشيء من الصبر ، والحظ .
استطعت أن أمسك منها بأول الخيط . وما دامت أصابعك قوية ،
وأنا ملك حساسة ، فلن يفلت منها الخيط أبداً ، وبذلك استطعنا أن نمسك
بالخناقة ، وأن نخمّد تلك النار التي كاد لهيبها يستعر في ذلك الوقت ، وقد
أفادني هذا كثيراً . ووطد مركزى إلى حد كبير ، وفرح له أبى ، فليس
أحب إلى الأب من أن يرى ابنه ناجحاً .

وظللت كذلك إلى أن حدث ذات يوم ، أن وقعت جريمة قتل
غامضة في حي المنيرة ، إذ وجدت سيدة ثرية في الأربعين من عمرها
قتيلة في منزلها . وقد حدثت الجريمة في منتصف الليل ، في غرفة الصالون
في البيت ، إذ أطلق عليها الجاني ثلاث رصاصات على مسافة عشرة
ستيمترات ومن مسدس براوننج عيار (٧) فهتكت الرصاصات الثلاث
فروة الرأس وحطمت الجمجمة ونفذت إلى المخ وحدثت الوفاة في الحال .

كما جاء في تقرير الطبيب الشرعى .

وقد كان للحادث أثره السيئ في النفوس . فقد وقع في إحدى العمارات الكبيرة الآهلة بالسكان وذهبت ضحيته سيدة متقدمة في السن وقورة اشتهرت بالسمعة الحسنة ، والخلق الطيب وعمل الخير ، ولذلك انجبه تفكيرى في الحال إلى أن الجريمة ارتكبت بسبب السرقة ، وبسبب ذلك أن المحنى عليها ثرية ، وتملك مالا وفيراً ، تحتفظ بأكثره عندها في البيت كما تملك الكثير من الحلى الثمينة من الماس والذهب وبعض التحف الغالية ، غير أنه ثبت من المعاينة وفحص محتويات البيت فحصاً دقيقاً ، أن شيئاً من هذا كله لم يمس ، حتى كيس نقودها الصغير وجد بجانبها فوق المقعد الذى كانت تجلس إليه وقت ارتكاب الحادث . ووجد كما هو لم يمس ، برغم أنه كان بداخله ما يزيد على الخمسين جنيهاً ، وبذلك انتفت الفكرة التى كانت تخامرني في أول الأمر . وهى أن الجريمة قد ارتكبت من أجل السرقة . وبدا الموقف يزداد غموضاً ، والظلام ينجم حلكته فوق هذه الجريمة الغامضة ، ولا سيما بعد أن انقطع ذلك الخيط الرفيع الذى كنت قد بدأت أمسك أحد طرفيه ، وهو الخادم التى كانت تعمل في خدمة المحنى عليها ، والوحيدة التى كانت تقيم معها في البيت ، والتي مرضت قبل الحادث بأيام ونقلت إلى المستشفى ، ولما ذهبت إلى سؤالها هناك اتضح أنها في حالة إغماء شديد . فأرجأت سؤالها .

وفي اليوم التالى وردت إشارة من المستشفى تفيد بأنها قد فارقت

13



الحياة ، إثر أزمة قلبية كانت تنتابها من حين إلى حين ، ولما انقطع هذا الحيط هكذا سريعاً ، وكنت أعتبره البصيص من النور الذى سنهتدى به لتبديد هذه الظلمة التى تكتنف الحادث . بدأت أمسك بنحيطين جديدين تكشف عنهما التحقيق . فقد ثبت من أقوال بواب العمارة التى كانت تقطنها القتيلة ، وأقوال الذين كانوا يجاورونها فى السكن ، وبائعى اللبن والخبز ، أنه كان يتردد على المحبى عليها فتاة فى السابعة والعشرين من عمرها جميلة جمالا ملحوظاً ، ذات شعر أسود داكن وعيون زرقاء واسعة ، طويلة فارعة الطول . وكانت تلفت النظر بأناقتها، وكانت — أى القتيلة — تحب هذه الفتاة حباً جنونياً، وتكاد تلازمها دائماً ، أما اسم الفتاة ، أو أين تقيم أو تعمل ، فلم يعرفه أحد ولم يمكن الاهتداء إليه ، أما الثانى فهو ريفى كهل فى الستين من عمره ، وكان يتردد عليها قليلا جداً ، كل عدة شهور تقريباً ، عندما يأتى إليها بريع الضيعة التى تملكها المحبى عليها فى الريف . والذى يتولى هو بالنيابة عنها الإشراف على شئونها .

وبعد هذه المعلومات الجديدة ، بدأ تفكيرى يتجه اتجاه آخر ، وهو أن الجريمة وقعت فعلا بسبب المال أو الميراث ، وأن لهذا الرجل دخلا فى الأمر من غير شك ، ولذلك لم أشأ أن أقبض عليه أو أستدعيه للسؤال ، حتى لا يرتب أجوبته سلفاً ، أو يجد فرصة لنسج خيوط الأضاليل ، كما يحدث فى مثل هذه الحال . وانتقلت إلى ضيعة القتيلة فى الريف ، وسقطت فجأة على الرجل ، وعلى حسابات الضيعة ، وعلى بعض الذين على صلة

بالرجل من أقاربه أو أصدقائه . وقد ساعدنى فى ذلك أبى وسطوته الكبيرة فى الريف ، ومجاورة مزارعه لضبيعة القتيلة . وقد بذلت فى هذا جهداً كبيراً ، حتى لإننى مكثت ثلاثة أيام ، وثلاث ليال لم أنم ، ولم أبدل ملابسى . فقد كنت أواصل التحقيق فى الليل والنهار . ومع ذلك لم أظفر بطائل ، ولم أرخيطة واحداً أمسك به ، برغم مئات الصفحات التى استغرقتها فى التحقيق . أو شيئاً يبعث حتى مجرد الشك ، فقد كانت الأمور جميعاً تسير سيراً حسناً ، فى الضبيعة وفى حساباتها ، وليس من وريث للقتيلة من قريب أو بعيد . حتى يرتكب مثل هذه الجريمة البشعة . حتى عم دسوقى الذى ظننته فى أول الأمر له دخل فى الموضوع ، حتى هذا الرجل الريفى الكهل ، اتضح أنه برىء ، وأنه غير ما كنت أظن ، فقد وجده رجلاً محطماً ، زاده الحادث تحطيماً ، وكادت عيناه تبيضان حزناً على القتيلة ، وقد ثبت من التحقيق أنه يحمل قلباً طيباً فعلاً ، وضميراً يقظاً ، فقد اعترف الرجل بمبلغ كبير من المال كان فى ذمته للفقيدة ، ولم يثبت هذا المبلغ فى الدفاتر . ولم يعرف به أحد فى الوجود غير البتيلة نفسها . وكان يمكنه إغفاله لو أنه أراد أن يغفل حساب ضميره . وكان هذا الرجل فعلاً يحمل نفساً رقيقة تفيض بالخير والحنان وحب الناس جميعاً . وكنت ألاحظ ذلك من اهتمامه بأمرى بالذات وعطفه على ، وتأله من الجهد الذى أبدله ، وكان يقدم لى من الحين إلى الحين بعض الطعام بيده ، ويرجوني من حين إلى آخر أن أريح نفسى قليلاً ، ولما

انتهى التحقيق ولم يسفر عن نتيجة ، تقدم الرجل منى وراح يسدى إلى بعض النصح ، وأهمها أن لا أتعب نفسى أو أرهقها ، ولما قلت له إنه الواجب هو الذى يملئ علينا هذا ، قال الرجل بلهجته الريفية التى ما زال جرسها يرن فى أذنى إلى اليوم وهو ينظر إلى ويديم النظر :
— أحياناً فى هذا الزمن يكون غير الواجب هو الواجب .

فاندهشت لهذا القول وسألته : ماذا يقصد ؟
فقال وصوته يخنق ، والدموع تملأ عينه :
— أقصد أن الست زينب عبد العال رحمها الله ، التى عاشت حياتها للخير والصلاة ، والحج إلى بيت رسول الله ، تموت قتيلة ، والقاتل يعيش طليقاً يمرح فى دنياه . .
فتأثرت فعلاً بهذا القول ، وتركته وانصرفت ، ولم ينس الرجل الطيب وهو يودعنى أن يشد على يدى مصافحاً ، وهو يحملنى التحية إلى أبى ، ولما سأله هل يعرفه .: قال فى ابتهاج والفخر ملء إهابه :
— وهل فى المديرية جميعها من لم يعرف سعادة الباشا الوالد ؟

وتركته وانصرفت ، وفى قلب السيارة راحت أنا ملى تعبث فى دوسيه القضية ورحت أتصفح بعض أوراق التحقيق فإذا بها جميعها سوداء ليس فيها حتى منفذ واحد يستطيع أن يهدينى إلى شىء ، فشعرت بكثير من الضيق وأحسست لأول مرة فى حياتى بمرارة الإخفاق ، وتذكرت تلك الجملة التى أكرهها كرهاً شديداً والتى أنخيلها أمامى فوق دوسيهات بعض

القضايا أشبه بحفنة من الثعابين الكبيرة السوداء تكاد تغرس أنيابها في مشاعري وفي أحاسيسي ، بل في كياني كله وهي « يحفظ التحقيق ، وتقيّد الجناية ضد مجهول » ، وعز على كثيراً أن أضطر في النهاية إلى كتابة هذه الحملة التقليدية ، التي يضطر إليها دائماً المحقق العاجز ، وانتابني ضيق شديد حتى إنني لما عدت إلى بيئي في القاهرة لم أتم وظللت قلقاً برغم الإرهاق الشديد الذي كنت أحس به ، وقد لاحظ أبي ذلك ، وكان يعرف حرصي الشديد على قضاياى . . . ومتاعبي في سبيل تبديد الظلمات التي تكتنف بعضها . وما هي الآلام التي أعيش فيها كلما غم على ، وأحسست بعجزى عن الوصول إلى نتيجة ، ولذلك راح يهون على ، وجلس معي ما يزيد على الساعتين ، نقلب الأمر ونستعرض ظروفه معاً ، ونضرب أخماساً في أسداس كما يقولون . وكلما لاحت لى بارقة أمل ، كان النور يتألق في عيني كل مناء ، إلا أن هذا النور وأسفاه كان يعود سريعاً فيتلاشى ، كلما استعرضنا ظروف الحادث مرة أخرى ، أو استرجعت أقوال من سمعت أقوالهم ، وظللنا كذلك حتى ضاق أبي ذرعاً هو الآخر ، فتركني وانصرف لينام ، وهو يقول لى بعد أن أشفق على ورثى لحالى :

— إذا مات الفارس يوماً ، فليس من الحتم أن ينفق الجواد .

* * *

وظل الحال كذلك عدة أيام ، كدت خلالها لا أفكر في هذه القضية التي قل اهتمامى بها فعلاً ، وكدت أنساها ، وشغلتنى عنها شواغل

أخرى كثيرة . ولولا بعض الإجراءات التقليدية التي كانت باقية على استيفاء التحقيق فيها من ناحية الشكل ، لمددت يدي وذيلت صفحات هذه القضية التي تضخمت أمامي بتلك الحملة الكريمة إلى نفسي والتي تشبه حفنة من الثعابين تماماً ، ولولا أنني انقطعت عن العمل لمدة يومين ، بسبب وعكة ألمت بي وجعلتني ألأزم الفراش لمدة ثلاثة أيام ، لكنت أتممت بقية الإجراءات في هذه القضية ، وحولتها للحفظ فعلاً ، غير أنه حدث فجأة حادث غريب جعل قلبي يكاد يقفز فرحاً ، فقد حضر إلى مكنتي أحد ضباط المباحث الجنائية ، ومعه عبد الفضيل بواب العمارة التي وقعت فيها الجريمة ، وأنهى إلى أنه قد عرف شخصية الفتاة المجهولة التي كانت تردد على المحبى عليها في بيتها . والتي أدلى بأوصافها عبد الفضيل بواب العمارة في التحقيق ، وأنها — أى الفتاة — تدعى « زينات شوق » وتعمل راقصة في ملهى في الهرم ، وأنها تقيم في المنزل رقم ١٧ بشارع علوى بالدقي ، وقد ثبت من التحريات أنها تقيم وحدها في المنزل المذكور ، ولا يتردد عليها أحد ، وأن هذه المعلومات جميعها قد عرفت عن طريق صورة للفتاة ، شاهدها عبد الفضيل في إعلان من إعلانات الملهى المذكور . وبرؤيته لها رؤية العين تأكد من أنها هي نفسها الفتاة التي كانت تردد على المحبى عليها ، والتي ورد ذكرها في التحقيق ، وما إن استمعت إلى هذه المعلومات جميعها ، حتى أمرت بالقبض عليها فوراً وإيداعها السجن على ذمة القضية ، وقد اتجه تفكيرى

فى الحال انجهاً آخر ، راقصة وتعمل فى ملهى لىلى ، وصديقة للمجنى عليها ، وتتردد عليها فى بيتها ، بل تبىب معها فى البىب نفسه كما قال ذلك بواب العمارة ، فكرت فى هذا كله وفى شىء آخر ورد فى المعاينة وفى تقرير الطىبىب الشرعى ، ولم أفطن لىليه أو أهتم به فى حىنه ، وهوأن ثوب القتيلة ، وىجد أثناء وقوع الحادث ، وبه آثار تمزىق من قبل ، وهذا كله إن دل فعلى أن الحادث لم یكن بسبب السرقة ، كما فكرت فى أول الأمر ، وأن الطهر وطیبة الخلق والسمعة الحسنة التى كانت تتحللى بها المجنى عليها ، كما ورد على لسان الشهود ، كل ذلك لم یكن لإستاراً تختفى خلفه بعض الجرائم الخلقیة ، وبذلك بدأت القضية أمامى تتجه فعلاً انجهاً آخر . ومكثت ثلاثة آیام قضيتها فى الإسكندریة لإتمام بعض الإیجراءات فى إحدى القضايا هناك . ولما عدت ، استدعیت الفتاة من السجن ، ولما مثلت أمامى ، وىجدت أوصافها فعلاً ، كما ذكر البواب فى أول التحدىق . . شعر أسود داكن . . وعیون زرقاء . . واسعة . . وقوام فارع طویل . . وبشرة كلون العاج الذى لفحته شمس الشرق ، فأحالاته إلى ما یشبه لون سنابل القمح ، غیر أن هذا الجمال الرائع ، وهذه الفتنة التى لا نظیر لها كان یلفها خمار أسود رقیق من الحزن ، بحیث جعل هذا الوجه الجمیل الرائع أشبه تماماً بالمصباح المنطفئ ، والعیون الزرق الواسعة یبدو لك بیاضها وهو یلتمع خلف الأهداب الطویلة المنسدلة عليها كما تلمع مترنحة ذبالة السراج الذى نضب زیته ، ولاحظت أنها فى حالة

إعياء شديد بحيث لا تكاد تقوى على الوقوف ، فأذنت لها بالجلوس
 فتهاوت على المقعد حتى كادت تسقط من عليه . فسألتها : هل هي
 مريضة .. فعرفت أنها جائعة .. وأن لها ثلاثة أيام لم تتناول طعاماً ،
 لأنه ليس لها أحد يسأل عنها أو يعنى بها وحتى الذين كانت تعمل عندهم
 فى الملهى ، تنكروا لها بمجرد القبض عليها ، وأنها لم تحضر نقوداً معها
 لتشتري طعاماً وأن الطعام الذى قدم لها فى السجن عافته نفسها ولم تأكله .
 فأشفقت عليها وأحضرت لها طعاماً فى الحال وأرجأت معها التحقيق إلى
 اليوم الثانى .

في الصباح استدعيت الفتاة إلى مكتبي، وكانت قد تماكنت قواها إلى حد كبير . ودبت في أوصالها الحياة وفي جمالها الفتنة ، كما تمشت في وجهها خيوط من إشرار . وغدا تماماً كطلعة الفجر عندما ينفس نوره في الكون حتى لإنني دهشت كثيراً من الفرق الكبير بين أمس واليوم . وزادت دهشتي عندما بدأت التحقيق معها وفرغت من تلك الأسئلة التقليدية الأولى : اسمك . . . سنك . . . وعملك . . . وأين تقيمين . . . وبدأت أدخل في الموضوع وسألتها :

— هل تعرفين الحنجي عليها . . . زينب عبد العال الشوباشي ؟
أقول كانت دهشتي بالغة عندما أجابت في صراحة متناهية ،
واطمئنان زائد :

— أجل أعرفها . . . وأعرفها جيداً . . . فقلت :
— هل كنت تترددين عليها في بيتها ؟
— كثيراً جداً . . . وأحياناً كنت أبيت عندها أيضاً !
— متى تعرفت على الحنجي عليها ؟
— هي التي تعرفت عليّ .

— كيف ؟

— فى الصيف الماضى كنت أعمل فى ملهى صيفى .. وهو باخرة على النيل .. وذات ليلة بعد أن انتهيت من رقصتى .. حضر إلى جمعة ..

— ومن جمعة ؟

— خادم فى الملهى .. وقال إن سيدة تريد مقابلتك ..

— هل كان معك أحد فى تلك اللحظة ؟

— كنت فى غرفتى أبدل ملابسى .. ولما سألته من هى ؟ .. وماذا تريد ؟ .. أفهمنى بأنها سيدة يبدو عليها أنها وقورة ومن أسرة كبيرة وأنها من رواد الملهى ، وتتردد عليه من حين إلى آخر . ولما جاءت إلى فى غرفتى .. أجلستها ، وطلبت لها زجاجة كوكاكولا .. وقالت لى : لأنها تعودت أن تتردد على هذه الباخرة بين الحين والحين لتزجية الفراغ ، ولأنها منذ أن شاهدتنى أعجبت بى وبرفصى : إذ لاحظت أنى لا أجلس مع أحد . ولا أتصل بأحد ، وأنها شعرت نحوى بعاطفة وحب ، ولذلك فهى تدعونى على فنجان شاي ببيتها .

— ووافقت ؟

— لا ..

— لماذا ؟

— فى الحقيقة ترددت .. لأن الناس قد تعودوا أن لا ينظروا للراقصة كفتانة .. وإنما كامرأة تعرض جسمها عارياً على الناس .. وأنها صيد

من السهل اقتناصه . .

— وهل أنت كذلك ؟

فصمتت ولم تجب ، وعلت وجهها غمامة كتلك التي تزحف فوق وجه القمر وتغطيه ، وقالت :

— أتصدقني لو قلت لا ؟

وشعرت بحرج شديد من هذا السؤال الذي لا دخل له في الموضوع ، وقلت معتذراً ، أو محاولاً الاعتذار :

— أقصد هل الراقصة كذلك فعلاً ؟

فتمتعت بصوت خفيض جداً ، وهي تنظر إلى الأرض :

— أرجو أن تسألني عن نفسي فقط .

فأغفلت السؤال وقلت :

— وهل كان مظهر الحنجي عليها يوحى بترددك في قبول دعوتها ؟

— لا . . أبداً أبداً . : وإنما ترددت لأن بعض السيدات أحياناً

يتخذن مظهر الوقار والحشمة والتظاهر بالثقي وسيلة لغايات معينة ، ولكنها

لما ألحت . . وعدتها بذلك . . وأعطيني عنوان مسكنها . . وانصرفت . .

وأحسست وهي تنصرف بعد استجابتي لرغبتها أنها فرحت كثيراً . . إذ

تهلل وجهها حتى انشقت عيناها عن إشرقة نور أضواء كيائها كله . . .

مما جعلني أتشكك في الأمر ثانية ولم أذهب إليها في الموعد . . وبعد

يومين اثنين . . تصادف أنني مرضت فيهما ولم أذهب إلى الملهى . .

جاءتني هي إلى بيتي ..

هل كانت تعرف عنوان بيتك ؟

— لا .. وهذا مما أدهشني أول الأمر .. ولكنني عرفت منها أنها لما

لم تجدني في الملهى في اليومين الماضيين سألت عن عنواني فأملأه عليها بجمعة
الخدم .. وهو الذي أخبرها بمرضي ..

— ألم تزد شكوكك .. بعد أن وجدت منها هذا الاهتمام الزائد ..

الذي لامبرر له ؟

— فعلاً .. ولكن عندما توطدت علاقتي بها ، تبددت شكوكي

جميعاً .. إذ وجدتني أكثر من أم .. وكانت هي تقول ذلك دائماً ..

— ماذا كانت تقول ؟

— كانت تقول بأنها وحيدة . لا أخ ولا زوج . ولا ابن أو ابنة ..

وأنها تود لو تتخذني ابنة لها . ولعل هذا التشابه في الحرمان والوحدة هو

الذي حببني فيها ، وجعلني أنزلها من نفسي منزلة الأم تماماً ..

وكننت قد نسيت أن أوجه لها سؤالاً هاماً .. فقلت :

— مع من تقيمين في بيتك ؟

نـزـجـدى .

— من أى بلد أصلاً ؟

— القاهرة .

— وأين تقيم أسرته ؟

- أبى مات قبل أن أراه . . وأمى تزوجت وأنا طفلة . . وتقيم مع زوجها فى الصعيد . . فى قرية تسمى البدارى .
- ولماذا لم تأخذك معها . . بعد أن تزوجت ؟
- قالت إن زوجها رفض أن ينفق على . .
- كم كانت سنك فى ذلك الحين ؟
- سبع سنوات ؟
- ولبن تركتك أمك فى القاهرة بعد أن رحلت عنها مع زوجها ؟
- ليس لأحد . .
- فصمت لحظات ، ثم قلت :
- وكيف نشأت إذن ؟
- هذا تاريخ لا أذكره ، وإنما الذى أعرفه هو أننى اشتغلت خادمة عند « عالمة » فى شارع محمد على تدعى « الست بهية » وهى التى علمتنى الرقص . .
- ألم تتردد عليك أمك طوال هذه المدة ؟
- بعد أن عرفت كراقصة ، كانت تتردد على من حين إلى آخر . .
- لتأخذ منى بعض النقود .
- أين كانت تقيم أمك فى القاهرة ؟
- فى حارة درب المرعشلى . . فى القلعة . .
- وما اسمها ؟

- نظيرة أحمد البسيوني . .
- وما اسم زوجها ؟
- لا أعرف . .
- ألم يحضر لزيارتك مع أمك مرة من المرات ؟
- لا . . ولم أره منذ تزوج من أمي . . ونزح معها إلى الصعيد . .
- وراودني شك في هذه المعلومات . . فتناولت ورقة وكتبت فيها اسم
الأم وعنوانها ، وذيلتها بأمر القبض عليها وترحيلها فوراً إلى القاهرة ،
ولاحظت أثناء ذلك أن الفتاة تختلس النظر إلى يدي وما أكتب فسألتها :
- هل تقرئين وتكتبين ؟
- نعم .
- هل ذهبت إلى المدرسة ؟
- لا .
- كيف إذن تعلمت القراءة والكتابة ؟
- علمتني الست بهية عليها رحمة الله .
- سمعتك من لحظات تنطقين كلمة بالإنجليزية . . . فهل تعلمت
الإنجليزية أيضاً ؟
- تعلمت منها بعض كلمات . . حينما كنت أعمل في مرقص ليلي ،
يؤمه بعض الجنود الإنجليز أيام الحرب . .
- فنظرت إليها سريعاً ، ولا أدري لماذا تغيرت نظرتي إليها هذه المرة ،

۲۷



ولا أدري أيضاً لماذا وجهت إليها هذا السؤال على الفور :

— هل أنت متزوجة ؟

— لا ..

— وهل سبق أن تزوجت ؟

— لا .

— هل ...

ولكنها لم تجعلني أتم السؤال وقالت بصوت خفيض جداً وهي تنظر إلى الأرض :

— إنني عذراء .

ولعل هذا الجواب الأخير كان أبرز الأجوبة وأدعاهها إلى الشك في كل أقوالها . ولكي أضع شكوكي هذه جميعاً موضع اليقين مددت يدي وتناولت ورقة من أمانى ، وطلبت إحالتها على الكشف الطبى ... وكأنها أدركت قصدى .. فتألمت في حزن ، لأنها قالت وكأنها مجواد جريح يتألم :

— وما دخل هذه الأسئلة الأخيرة فيما استدعيتني من أجله ؟

— أليس من حقى أن أعرف ؟

— تعرف ماذا ؟

— السر الحقيقى الذى ربط بينك وبين المحبى عليها ؟

— أفهم من ذلك أنك ترتاب فى صلتى بها ؟

— ولم لا ..

فقلت وقد علت وجهها فجأة سحابة قائمة السواد ، وقد ارتفع صوتها لأول مرة ، شأن من يكاد يخرج عن طوره :

— لو أن الأمر كما تظن لما قطعت علاقتي بها نهائياً قبل الحادث عشرين يوماً ..

فأحسست على الفور أنني وضعت يدي على شيء . ولذلك تماسكت حتى لا تهزني الفرحة ، وقلت وأنا أدور من بعيد حول ما أريد :

— إذن أنت تعلمين بالحادث في حينه ؟

— قرأت عنه في الصحف ..

— ولماذا لم تتقدمي للإدلاء بأقوالك ؟

— أى أقوال ؟

— بأنك على الأقل تعرفين المحنى عليها .. وقرأت أنه جارى البحث

عن فتاة تنطبق عليها أوصافك ..

— لم أقرأ هذا .. ولم تشر إليه الصحف .

— ولكنك قرأت نبأ مقتلها ..

— ولو قتل أحد .. فهل على جميع الذين يعرفونه أن يتقدموا

يقولوا إننا كنا نعرف القاتل ؟

وأحسست بما في الجواب من سخرية ، ولكنى تغاضيت ، وقلت :

— ولكن علاقتك أنت بها لم تكن عادية كما جاء في أقوالك ..

— أى أقوال ؟

— إنها كانت لك بمثابة الأم ..

فأرسلت تنهدة طويلة .. وقالت بصوت خفيض .. وكأنها تزدداد

توجعاً :

— ولا أنكر أننى فرحت . بذلك كثيراً .. وكانت سعادتى به

لا تقدر .. حتى إننى فعلاً اعتبرتها أى . وأودعتها كل أسرارى ، وصدقت

كل ما كانت تقوله لى ...

— ماذا كانت تقول لك ؟

— إنه لا ذرية لها .. وإنها تعتبرنى ابنة لها .. وإنها مستعدة أن تهب

لى ماتملاك حتى ضيعتها الصغيرة التى تملكها فى الريف ، فقط أترك

مهنة الرقص . وأعيش معها فى بيت واحد .

— ولماذا لم تهاجقنى ؟

— لم أشأ أن أكون عبثاً على أحد .. أو تنفق على سيدة ليست لى

بها صلة قرابة أو رحم .

قالت ذلك وصمتت فى حزن شديد حتى إن بعض الدموع كادت

تنفطر عن عينيها .. فانتهزت فرصة هذه الآلام التى تعتمل فى نفسها ..

ووجهت إليها هذا السؤال :

— تقولين إنك انقطعت عنها نهائياً .. قبل الحادث بعشرين يوماً ..

فأهى الأسباب ؟

- اربت في أمرها .
- كيف ؟
- فاجأتها ذات ليلة .. ورجل يتسلل في الظلام من مخدعها ..
- فتماسكت حتي لا أشعرها بأهمية هذا الاعتراف الذي يكاد يكون نقطة تحول في القضية .. وقلت :
- هل أنت متأكدة من أقوالك ؟
- نعم ..
- أليس من الجائز أنك تخيلت ذلك في الظلام ؟
- لقد أشعلت النور .. ورأيتة رؤية العين ..
- هل كنت معها في البيت في هذه الليلة ؟
- لا .
- أين كنت ؟
- في الملهى ..
- هل كنت على موعد معها ؟
- لا .
- إذن لماذا ذهبت إليها ؟
- كنت متعودة أن أتردد عليها في أى وقت .. في النهار .. ولكنى
- لم أعود أن أذهب إليها في الليل ، إذا ذهبت .. إلا في وقت متأخر
- جداً .. أى بعد أن أخلص من عملي الليلي في الملهى .

- متى كان عملك الليلي ينتهى تقريباً ؟
- بعد الساعة الواحدة صباحاً . .
- كل ليلة ؟
- كل ليلة . .
- ومتى ذهبت إليها فى تلك الليلة ؟
- حوالى العاشرة مساء . .
- أنت تقولين إن عملك لا ينتهى الا بعد منتصف الليل . .
- فى هذه الليلة ذهبت إلى الملهى كالعاده ، فوجدتهم قد أتوا براقصة جديدة لتعمل معى ، فكانت مفاجأة لى . . واعتبرت هذا ماساً بكرامتى ، فتركت الملهى وانصرفت ، ولم أشأ أن أذهب إلى بيتى فذهبت إليها .
- كم كانت الساعة على وجه التحديد عندما ذهبت إليها ؟
- العاشرة والنصف أو الحادية عشرة .
- وما الذى حدث بالتفصيل ؟
- شاهدت رجلاً يتسلل من مخدعها كما قلت . .
- كيف شاهدته ؟
- أنا صعدت فى المصعد كالعاده ، وعندما بلغت باب المسكن . .
- أخرجت المفتاح من حقيبى وفتحت الباب .
- هل كان معك مفتاح للمسكن ؟

- نعم .
- ولماذا ؟
- هي التي أعطتني إياه ، لكي أدخل وأخرج في أى وقت أريد . .
- ولما فتحت الباب ؟
- وجدت البهو مظلماً كالعادة ، فظننتها نائمة ، لأنها كانت متعودة أن تبكر في النوم . . ولكن ما إن أشعلت النور ، حتى سمعت حركة غير عادية في غرفتها . . ولاحظت أن نور الغرفة قد أطفئ . . . فأتجهت إلى الغرفة وفتحت بابها ، وما إن تقدمت خطوة واحدة حتى رأيت رجلاً أمامي في الظلام فصرخت وكاد يغمر على . . وانتهز هو هذه الفرصة وخرج سريعاً وهو يحاول إخفاء وجهه بجريدة كانت في يده .
- وأين كانت هي ؟
- لما أشعلت نور الغرفة وجدتها جالسة على مقعد بجانب السرير . . .
- وماذا كانت ترتدى من الثياب ؟
- قميص النوم . .
- فقط ؟
- وشالا أسود كانت متعودة دائماً أن تضعه على رأسها وكتفها . .
- هل وضعت الشال عندما رأتك . . أو كانت تضعه على رأسها من قبل ؟
- لا أستطيع أن أحدد . .

- وماذا قالت لك ؟
- كانت مرتبكة جداً .. بحيث إنها لم تستطع أن تنطق .
- ألم تسألها . . عن سبب وجود هذا الرجل ؟
- لا .
- لماذا ؟
- لأن هناك بعض الأسئلة يستطيع الإنسان أن يعرف الجواب عنها سلفاً . .
- هل أفهم من ذلك أنك اقتنعت فعلاً ؛
- مادامت قد ماتت فايغفر لها الله . .
- ألم يدر أى حديث بينك وبينها فى هذا الشأن ؟
- لا .
- ألم تؤنّبها على هذا الفعل ؟
- كانت المفاجأة مذهلة بالنسبة لى فلم أنطق . .
- تقولين بأنك رأيت الرجل رؤية العين . . فما هى أوصافه ؟
- كل الذى أذكره . . أنه طويل القامة . . أشيب الشعر . . يضع فوق رأسه طربوشاً طويلاً . . ويرتدى بذلة أنيقة سوداء اللون ذات خطوط بيضاء رفيعة . . ولونه يميل إلى السمرة . .
- كيف شاهدت لونه وأنت تقولين إنه كان يضع جريدة على وجهه . . ؟

— شاهدت يده ونصف وجهه وهو يستدير سريعاً ليخرج من الباب .

— تقولين بأن الغرفة كانت مظلمة . . فكيف شاهدت ذلك ؟

— لما فتحت الباب . . أضواء النور الذى فى البهو . . مدخل الغرفة ..

— هل قال لك شيئاً ؟

— لأنه لم ينظر إلى ..

— وأنت ألم تقولى له شيئاً ؟

— كنت فى حالة ذهول ..

— إذا عرض عليك . . فهل تستطيعين أن تتعرفى عليه ؟

— ربما ..

— ألم تشاهديه قبل هذه المرة يتردد على البيت ؟

— لا . . لا . . أبداً . . أبداً . . لا هو ولا غيره ..

— هل كانت الخادمة فى البيت وقت دخولك ؟

— لا . . لأننى التقيت بها عند خروجى واقفة أمام المصعد ..

— أين كانت ؟

— لا أدرى ..

— ألم تتحدثى إليها بشىء ؟

— كان احتقارى لها هى الأخرى زائداً .. فلم أنظر إليها وانصرفت ..

— ألم تترددى عليها بعد هذا التاريخ ؟

— إطلافاً ..

— ألم تتصل هي بك ثانية ؟

— حاولت كثيراً وأرسلت لى عم دسوقى أكثر من مرة .. ولكنى

رفضت ..

وكانت مفاجأة لى أن تذكر هذا الاسم .. فقد كنت حتى هذه اللحظة أعرف أنها لا تعرفه .. وقد أنكر هو فى التحقيق معرفته بها لإنكاراً باتاً .. وأدهشنى ذلك .. وبدأت أرى خيطاً جديداً يتراقص أمام عيني .

ولذلك قلت متجاهلاً :

— من هو عم دسوقى ؟

— رجل من الأرياف كان يتردد عليها .. وكان نحول زراعتها كما

قالت لى ..

— هل شاهدته يتردد عليها ؟

— كثيراً

— وهل كان يتحدث إليك ؟

— أحياناً .. وكنت أستريح إليه .. فقد كان لطيفاً ومرحاً إلى حد

كبير .. وأذكر أننى مرة طلبت منه أذرة خضراء فأرسلها لى بعد

يومين ومعها بعض الفطير والزبد ..

— أرسلها لك فى بيتك .. أم فى بيت المحبى عليها ؟

— فى بيت المحبى عليها ..

- ما هي أوصاف هذا الرجل ؟
- كهل في الستين من عمره تقريباً . . طويل اللحية والشارب . .
- له عيان ضيقتان . . وعلى أذنه اليسرى قطع أفقى . .
- فاندھشت لدقة هذه الأوصاف وقلت :
- هل كان يعرف عنوان بيتك ؟
- بدليل أنه جاءني ثلاث مرات . .
- لماذا جاء إليك في المرات الثلاث ؟
- ليحاول أن يستعيد صداقتي بها ثانية . .
- وماذا قلت له ؟
- رفضت طبعاً . .
- ألم يسألك عن السبب ؟
- سألتني . .
- وهل قلت له السبب الحقيقي ؟
- خجلت . .
- ماذا قلت له إذن ؟
- قلت له إنني راقصة . . وإن الناس تعودوا أن ينظروا إلى الراقصات
- نظرة غير مشرفة . . وإنها سيدة كريمة ومحافضة، وإن ترددى عليها قد
- يسىء إليها . .
- ولماذا قلت له هذا ؟

- لأننى كنت أشفق عليها فعلا . .
- برغم الذى حدث وشاهدته بعينك . .
- فصمتت ولم تجب . . ولما أعدت السؤال . . قالت بصوت مختنق :
- لقد كنت أحبها فعلا . .
- وماذا قال لك ؟
- حاول أن يقنعنى فلم أقنع .
- متى كانت آخر مرة ذهب فيها إلى بيتك ؟
- قبل الحادث بأسبوع واحد . . وكان يوم الجمعة على ما أذكر .
- هل أنت متأكدة من أن اليوم كان يوم الجمعة ؟
- نعم . . لأنه كان يحضر دائماً يوم الجمعة . .
- لماذا يوم الجمعة بالذات ؟
- كان يقول لى بأنه يصلى الجمعة دائماً فى مسجد الحسين .
- فزادت دهشتى وقلت وأنا أشعر بأننى وصلت إلى شىء :
- قال دسوقى على حسنين فى التحقيق . . إنه لم يتعرف عليك ولم يرك فى بيت المجنى عليها أبداً . .
- هو قال ذلك ؟
- أجل .
- غريبة .
- ما هو سبب إنكاره ؟

- لا أعرف .
- هل كانت علاقته بالمجنبي عليها طيبة ؟
- جداً ..
- ألم تلاحظي شيئاً على هذه العلاقة ؟
- من أى ناحية ؟
- أى ملاحظة ..
- لم تكن أكثر من علاقة خادم بمخدومه .
- هل كانت المجنبي عليها تثق فيه ؟
- إلى حد أنها كانت لا تتصرف أى تصرف إلا بمشورته .
- مثل ؟
- مثلاً . . . غضبت يوماً على الخادم التي تعمل عندها . . وأرادت طردها . . ولكنها لم تفعل لأن عم دسوقي لم يوافق على طردها . .
- ما السبب في أنها كانت تأخذ بقوله إلى هذا الحد ، وهو لا يخرج عن أنه خادم عندها كما تقولين ؟
- إنخلاصه لها .
- وهل كان مخلصاً لها فعلاً ؟
- كان لها أكثر من أب . . وأكثر من شقيق .

وحاولت أن أسألها بعض أسئلة أخرى ولكنها كانت متعبة ومرهقة
إلى حد كبير . . فاكثفت بهذا القدر . . وشعرت بشيء من الاطمئنان
لهذه النتائج التي وصلت إليها وإن كانت جميعاً ما زالت في عالم الغيب . .
وأرجأت التحقيق إلى الغد . . ولكنني في الغد انشغلت بالمرافعة في إحدى
القضايا . .

بعد يومين استأنفت التحقيق في هذه القضية .. فاطلعت على نتيجة الكشف الطبي على الفتاة .. وكما كانت دهشتي باللغة .. عندما جاء تقرير الكشف الطبي مؤيداً لصحة أقوالها وأنها عذراء فعلاً كما قالت في التحقيق .. وقد جعلني هذا أراجع أقوالها مرة أخرى . وأنظر إليها بعين الاعتبار .. كما جعل نظري إليها يتبدل ، ولا أنكر أنني شعرت نحوها بكثير من العطف والتقدير .

وكانت أمها قد تم القبض عليها، وترحيلها إلى القاهرة . فاستدعيتها.. ولما مثلت أمامي . وجدتني عاجزاً ذات سحنة نحاسية صلبة .. وجه متغصن .. ترتسم فوقه عدة تجاعيد سوداء .. ثم عن الشر .. كما تم نظراتها الصفراء الشاحبة التي تنبعث من عينيها الضيقتين عن الغلظة والقسوة والأناية .. مما جعلني أستشعر الضيق أو هكذا أحسست بمجرد أن وقعت عيني عليها .. ومع أنها كانت تبكي .. وكانت فعلاً في حالة ذعر شديد .. إلا أن هذا لم يقلل من أهمية خطرها في نظري .. ولذلك عاملتها في أول الأمر بشيء من الغلظة .. وبعد أن أجابت على بعض الأسئلة الأولية التي يتطلبها التحقيق .. وجهت إليها السؤال التالي :

— منذ متى تقيمين في البداري ؟

- من خمس عشرة سنة .
- أين كنت تقيمين قبل ذلك ؟
- في درب المرعشلي بالقلعة . .
- مع من كنت تقيمين ؟
- مع زوجي الأول . .
- هل كنت متزوجة قبل زوجك الحالي ؟
- نعم . .
- ولماذا انفصلت عنه ؟
- مات . .
- ماذا كان يعمل ؟
- عربجي كارو . .
- وبعد موته ؟
- كنت أشتغل خادمة في بعض المنازل . .
- ما هو آخر بيت كنت تعملين به ؟
- بيت المرحوم حسن الشربتلى . .
- أين يقع هذا البيت ؟
- خلف سراى الهياتم في شارع الخليج . .
- ولماذا تركت الخدمة ؟

— لما تزوجت زوجى الثانى .. وذهبت معه إلى البدارى .. وتركت
القاهرة نهائياً ..

— ماذا كان يعمل زوجك الثانى ؟

— بائع فاكهة متجول ..

— ولماذا ترك هذه التجارة ؟

— ورث عن أمه نصف فدان .. فترك التجارة .. وفضل أن يعمل فلاحاً ..

— هل أنجبت من زوجك الأول ؟

— لا ..

— ومن زوجك الثانى ؟

— ولا من زوجى الثانى .

فنظرت إليها وقلت :

— أنت لك ابنة تدعى زينات شوق .. وتعمل راقصة فى بعض

الملاهى الليلية .. وتقيم فى القاهرة ..

— ليست ابنتى .. وأنا لم أنجب طول حياتى ..

وكنيت لحظتها أشعل سيجارة .. فكادت تسقط من فى .. ولكنى تماسكت

سريعاً حتى لا أجعلها تشعر بدهشتى من هذه المفاجأة الغريبة .. وقلت :

— ولماذا تدعى هى ذلك ؟ !

— هى فعلاً تظن أننى أمها .

— تظن أنك أمها ؟

- نعم ..
- وما الذى جعلها تظن ذلك ؟
- لأنها نشأت لا تعرف لها أمّاً .. فقلت لها أنا أمك .. وأيضاً الذين كانوا يعرفون حقيقتها .. طلبوا منى أن أقول لها ذلك ..
- من هم ؟
- سيدة لا أعرفها جاءتنى فى اليوم الثانى من عثورى عليها ..
- عثورك على من ؟
- على نعمة ..
- من نعمة ؟
- كان اسمها نعمة .. وأنا التى سميتها بهذا الاسم .. أما زينات فهو اسم الشهرة بعد أن اشتغلت راقصة .
- أين عثرت عليها ؟
- لقيطة ملقاة فى الطريق ..
- اذكرى الذى حدث بالضبط ..
- كنت فى ذلك اليوم أقطع الطريق من القلعة إلى شارع الخليج حيث البيت الذى أخدم فيه .. وعند أول شارع درب الحماميز ..
- وبيجوار سبيل المحمدى .. سمعت صوت بكاء طفل .. فالتفت
- فوجدت طفلة مولودة حديثاً .. وقد لفت فى ثياب بيضاء نظيفة ..
- فحملتها وعدت بها إلى البيت ..

- هل شاهدك أحد ؟
- لا ..
- كم كانت الساعة في ذلك الوقت ؟
- حوالى السادسة صباحا ..
- وما الذى جعلك تستيقظين في هذا الوقت ؟
- كنت دائماً أذهب إلى البيت الذى أخدم فيه في مثل هذا الوقت .
- ولماذا لم تبلغنى عنها ؟
- لأننى لم أنجب .. وكانت أمنيى أن يكون لى طفل أو طفلة ..
- ولذلك اعتبرتها نعمة بعث بها الله إلى .. وقد سميتها نعمة فعلا ..
- وماذا قال لك زوجك ؟
- كان زوجى قد مات .. وكنت أقيم بمفردى في ذلك الحين ..
- قلت إن الدين كانوا يعرفون حقيقتها طلبوا منك تبنيها .. فمن هم ؟
- في نفس اليوم الذى عثرت عليها فيه .. جاءتنى سيدة لا أعرفها
- وقالت لى إنها صديقة لأم هذه الطفلة .. وإن الله قد أمر بالستر ..
- وطلبت منى أن أعنى بتربية الطفلة .. وسوف تدفع أجر تربيته والعناية بها ..
- في أى وقت من النهار جاءت إليك ؟
- بين المغرب والعشاء ..
- أين جاءت إليك ؟
- فى بيتى ..

- وكيف عرفت بيتك ؟
- قالت لى إنها كانت تتبعنى وأنا أحمل الطفلة ..
- هل لا حظت أن أحداً كان يتبعك فعلا ؟
- ٧ -

فى اقوالها ؟

- .. وإلا فكيف عرفت هى بيتى فعلا ؟
- ما هى أوصاف هذه السيدة التى جاءت إليك ؟
- سيدة وقورة .. يبدو عليها من ثيابها وحشمتها أنها من أسرة كبيرة ..
- كم سنها على وجه التقريب ؟
- شابة فى الثلاثين أو فى الخامسة والثلاثين .. طويلة .. ممتلئة
- الجسم إلى حد ما .. واسعة العينين .. ولونها يميل إلى السمرة .. وشعرها أسود فاحم السواد ..
- وكانت هذه الأوصاف تنطبق إلى حد كبير على المحبى عليها، فقلت:
- جميلة ؟
- طبعاً ست وجميلة .. ولولا حزنها وبكاؤها لكانت كالقمر تماماً ..
- لماذا كانت تبكى ؟
- لا أعرف ..
- ألم يجعلك هذا تشكين فى أنها هى أم الطفلة ؟

- فعلا شككت في هذا وسألتها ولكنها أنكرت ..
- ماذا قالت لك ؟
- قالت لي إنها حزينة لأن أم الطفلة قريبة لها ..
- وهل صدقت هذا ؟
- الحقيقة صدقت .. لأن مظهرها لم يكن ليدل على أنها من الستات إياهن ..
- ماذا تقصدين بالستات إياهن ؟
- أقصد اللواتي يحملن سفاحاً .. ويلقن بأبنائهن في الطرقات ..
- ما اسم هذه السيدة .:
- سألتها عن اسمها .. ولكنها أنكرته على ..
- لماذا أنكرته عليك ؟
- كانت دائماً تقول .. إن الله حلیم ستار ..

٤

لست أدري لماذا عاودنى الشعور بخطورة هذه المرأة التى تقف أمامى ، أو بمعنى آخر ، خطورة هذه الأقوال التى تدلى بها . ولذلك نظرت إليها ثانية ، ولما تمعنت فى وجهها ورأيت ظلال الحشونة التى ترسم عليه أكثر وضوحاً ، صمت لحظات ثم قلت :

— أين كانت تقيم ؟

— لا أعرف .

— ألم تذكر لك عنوانها ؟

— طبعاً لا .

— ألم تحاولي سؤالها مرة أخرى ؟

— مادامت قد أنكرت على حتى اسمها . . فبطبيعة الحال لن تذكر

لى عنوانها .

— وأنت ألم تحاولي معرفة عنوانها ؟

— حاولت مرة واحدة . . ولكنى أخفقت .

— ما هى المحاولة التى قمت بها ؟

— عندما جاءت إلى بعد ذلك بأسبوعين . . انصرفت . . ففتبتبها

خلصة . . ولكنها بعد أن خرجت من الحارة ، وبلغت ميدان القلعة ركبت

سيارة . . واحتفت .

- هل كانت هذه السيارة تنتظرها ؟
- لا أعرف .
- السيارة كانت أجرة .. أم ملاكى ؟
- الوقت كان ليلاً . . وأنا لا أفرق بين الأجرة والملاكى . .
- هل لاحظت أن أحداً كان فى السيارة غير السائق ؟
- أنا كنت خلف السيارة . . فلم أر أحداً . .
- ماذا كنت تقصدين من معرفة عنوان بيتها ؟
- قلت إذا انقطعت عن المجيء إلى .. ذهبت أنا إليها ..
- تذهبين إليها لماذا ؟
- لأخذ النقود التى اتفقت معى عليها . .
- كم هو المبلغ الذى اتفقت معك عليه ؟
- ثلاثة جنيهات فى الشهر . .
- كم أعطتك فى أول مرة ؟
- خمسة جنيهات ..
- لماذا أعطتك هذا المبلغ .. وقد اتفقت معك على ثلاثة فقط . .
- هى أعطتنى هذا المبلغ ..
- هل تذكرين تاريخ اليوم الذى عثرت فيه على الطفلة . . والذى جاءتك فيه هذه السيدة ؟
- لا .. لا أذكر . .

- تذكري ..
- إنها سنوات طويلة ..
- هل استخرجت شهادة ميلاد للطفلة ؟
- لا ..
- لماذا وأنت تعلمين أن هذا يخالف القوانين ؟
- خشيت أن أقع في سين وجيم . . وأنا عمرى ما وقفت أمام جندى ..
- كم كانت سنك أنت في ذلك الحين ؟
- لا اعرف .
- هل معك قسيمة زواج .. من زوجك الثانى ؟
- عندى فى البيت .
- هل تذكرين تاريخها ؟
- لا ..
- ألا تذكرين حادثاً معيناً وقع لك فى ذلك التاريخ الذى عثرت فيه على الطفلة ؟
- لا ..
- أو لأحد أقاربك مثلاً ؟
- ليس لى أقارب ..
- أو لأحد من معارفك مثلاً ؟
- لا .. ولكن الذى أذكره . . أننى بعد أن عثرت عليها بيومين

أو بثلاثة فقط . . . استيقظت فوجدت البلدة هائجة . . والشوارع
ممتلئة بالمظاهرات . . ولما سألت قيل لى إن سعد باشا ضرب بالرصاص . .
ورجعت إلى تاريخ هذا الحادث الذى ذكرته . . فوجدته فى
نوفمبر عام ١٩٢٤ . فأثبت ذلك فى المحضر . . ثم استأنفت سؤالها :

— ثم بعد أن جاءتك هذه المرة ؟

— جاءتني بعد ذلك بأسبوعين . . وأعطتني ثلاثة جنيهات . .

— هل شاهدت الطفلة . . فى المرة الثانية ؟

— وبكت كما بكت تماماً فى المرة الأولى . . ثم لم ترها بعد ذلك . .

— ألم تتردد عليك بعد هذه المرة ؟

— لا . . . وقد انقطعت عني نهائياً . .

— وانقطعت عنك النقود أيضاً ؟

— لا . . النقود كانت تصلني بانتظام . . فى أول كل شهر . .

— كيف كانت تصلك النقود ؟

— كان يحضرها لى رجل . . فى أول كل شهر . .

— ما اسم هذا الرجل ؟

— عم دسوق . .

نطقت هذا الاسم فأحسست كأن قبيلة انفجرت أمامى فى التحقيق . .

حتى إننى اهتزت وابتلعت أنفاسى . . وقد غمرتنى فرحة زائدة . . إذ
بدأت أتأكد من صحة الأقوال التى استمعت إليها جميعاً . . ولا سيما

أقوال الفتاة التي جاءت أقوال هذه المرأة مطابقة لها كل المطابقة . .
وأيضاً أقوال هذه المرأة التي كنت أعتقد أول ما وقعت عيني عليها . . أننى
أمام امرأة كل شئ فيها لا ينطق إلا كذباً . . ونظرت إلى هذا المحيط
الأبيض الذى بدأ يتوضح أمامى . . وإلى النور الذى ينبعث منه فى
عيني . . وابتلعت أنفاسى مرة أخرى ابتهاجاً . . وتلاشت الغلظة التي
كانت فى صوتى والتي كنت أناطبها بها . . وتحولت إلى رقة زائفة . .
وقلت أسألك :

— هل أنت متأكدة من أن اسمه دسوقى ؟

فقالت فى إيمان كثير :

— طبعاً متأكدة . .

— ما الذى جعلك تتأكدين ؟

— لأنه رجل طيب . . ولا يعرف الكذب . . ومكث يتردد على " عدة

سنوات . .

— يتردد عليك لماذا ؟

— ليعطينى النقود فى أول كل شهر . .

— ما هى أوصاف هذا الرجل ؟

— فلاح . .

— ماذا تقصدين من كلمة فلاح ؟

— ريفى يرتدى الملابس الريفية . .

၈၃



- ما هي أوصافه بالضبط ؟
- طويل طويلاً يلفت النظر.. ويميل لونه إلى السمرة .. وله عينان ضيقتان..
- هل كانت له علامة مميزة ؟
- في إحدى أذنيه من أعلى قطع أفقى قديم ..
- فابتلعت أنفاسي .. مرة ثالثة اطمئناناً .. وقلت :
- في أى الأذنين ؟
- لا أذكر ..
- تذكرى ..
- فصمتت حيناً كمن تسترجع شيئاً بعيداً .. وقالت :
- أغلب الظن أنه في أذنه اليسرى ..
- فامتدت أصابعي إلى وسط الخيط .. وأمسكت به في يدي ..
- وأطبقت عليه بجيداً .. وقلت :
- متى وأين التقى بك دسوقي في أول مرة ؟
- في بيتي ..
- كيف عرف عنوان بيتك ؟
- هي التي قالت له طبعاً ..
- هو أخبرك بذلك ؟
- نعم .. .
- وماذا قال لك ؟

٥٥

— قال لى إن السيدة التى سبق لها أن جعائنى . . وأوصئنى على
الطفلة . . قد حالت ظروف بينها وبين المحببىء إلى . . وقد أرسلتنى نيابة
عنها لأعطيك المبلغ المتفق عليه . . .

— ما هى هذه الظروف ؟

— لا أعرف . .

— ألم يذكرها لك ؟

— لا . .

— وأنت . . ألم تحاولى معرفتها ؟

— كان مرة يقول لى إنها مريضة . . ومرة يقول لى إنها سافرت . .

— وهل صدقت هذا ؟

— لا . .

— ماذا صدقت إذن ؟

— قلت إنها خشيت أن يفتضح أمرها . . إذا ما ترددت على

كثيراً . . فأناابت عنها هذا الرجل . .

— معنى هذا أنك كنت تعتقدين أن هذه المرأة هى أم الطفلة ؟

— نعم . . كنت أعتقد ذلك . .

— وما الذى جعلك تعتقدين ذلك . . وقد قالت لك إنها لم تكن

أمها ؟ وإنما هى قريبة لها ؟

— الدم يحن . . وكانت فى المرتين عندما تنصرف . . تقبل الطفلة

وتبكي بكاء حاراً ..

— ذكرت في التحقيق غير ذلك .. فقد جاء في أقوالك أنك

اقتنعت بأقوالها ، وهى أنها قريبة لأم الطفلة ؟

— قلت ذلك في أول الأمر .. ولكن عندما جاءتني في المرة

الثانية . ورأيت نظراتها للطفلة وبكاءها وهى تقبلها .. اقتنعت بأنها أمها ..

— ما هى الصلة التى كانت بين دسوق وهذه السيدة ؟

— لا أعرف ..

— ألم تحاولي سؤاله ؟

— قال لى إنه خادم عندها ..

— وصدقت هذا القول ؟

— كان منظره فعلاً يدل على هذا ..

— هل كان دسوق يشاهد هذه الطفلة عندما يجرىء إليك ؟

— أحياناً ..

— وماذا كان شعوره عندما يراها ؟

— كان يتألم .. ويقول .. ربنا يجازى أولاد الحرام ..

— ألم تحاولي أن تعرفي منه .. من هم أولاد الحرام هؤلاء ؟

— كنت كلما حاولت ذلك .. قال نفس الكلام الذى كنت

أسمعه منها ..

— أى كلام ؟

- إن الله حلیم ستار . .
- هل كان يشعر نحو الطفلة بشعور معين ؟
- كان يعطف عليها كثيراً . . ويوصيني دائماً بها خيراً . . وذات مرة . . حضر إلى وكانت مريضة . . فذهب إلى «الأجـزخانة» . . وأحضر لها دواء . .
- ألم يجعلك هذا تظنين شيئاً ؟
- أظن ماذا ؟
- أنه والد الطفلة مثلاً ؟
- لا . . لا . . أبداً . . أبداً . .
- لماذا نفيت هذا سريعاً ؟
- لأن منظره لم يكن ليبدل على أنه أبوها . .
- كم كان يعطيك من النقود دائماً ؟
- هي الثلاثة جنيهات كل شهر . .
- هل كان يعطيك شيئاً آخر ؟
- أحياناً . . كان يحضر لي بعض الهدايا الريفية . .
- ماذا تقصدين بالهدايا الريفية ؟
- حنطة . . وأذرة خضراء . . وفطير . . وفي الأعياد والمواسم كان يحضر لي بعض اللحم .
- ألم تحاولي أن تطلبي منه زيادة المبلغ ؟

- لا .. وكنت فرحة بهذا المبلغ ..
- هل ظل يتردد عليك كثيراً ؟
- ما يزيد على الخمس سنوات ..
- وبعد ذلك ؟
- لم أراه ..
- انقطع عن المحيىء إليك ؟
- الذى حدث أننى لما تزوجت .. وطلب منى زوجى أن أنتقل معه إلى الصعيد .. تركت الطفلة عند جارة كانت تقيم معى فى البيت نفسه .. وطلبت منها أن تسلمها إلى هذا الرجل الرفيى عندما يحىء ...
- ولماذا لم تأخذى الطفلة معك ؟
- رفض زوجى ..
- لماذا رفض ؟
- قال إنه ليس على استعداد أن ينفق على طفلة ليست ابنتنا ..
- ووافقت ؟
- نعم ..
- كيف وافقت وقد جاء فى أقوالك .. أنك لم تنجى .. وقد فرحت بالطفلة وتبنيها ؟
- كان هذا شعورى فى أول الأمر .. ولكنى لما عرفت أن لها من يسأل عنها قل هذا الشعور .. وقلت إنهم سوف يأخذونها منى فى يوم من الأيام ..

- ولماذا لم تنتظري حتى يجيء إليك دسوقي . . وتسلميه الطفلة ؟
- أصر زوجي على أن نساغر فى يوم معين . .
- وهل تسلم دسوقي الطفلة من جارتك ؟
- لا . . لأننى عندما عدت إلى القاهرة بعد ذلك بشهرين . .
- قالت لى جارتى إنها استيقظت ذات صباح فلم تجد الطفلة . .
- إذ اختفت نهائياً . . حتى إنها ظنت أن دسوقي قد أخذها . . ولكنها
- فوجئت به يحضر فى الموعد نفسه ويسأل عن الطفلة . .
- أى موعد ؟
- أول الشهر كما تعود أن يحضر . .
- وماذا قالت له جارتك ؟
- أخبرتنى أنها خافت أن تقول له إن الطفلة قد اختفت حتى لا يسأل
- عنها . . وأنكرت عنه كل شىء . .
- ماذا قالت له ؟
- قالت له إنها لا تعرف شيئاً . .
- ألم يسألها عنك ؟
- سألتها . . فقالت له . . إننى عزلت ولا تعرف مكانى . .
- لماذا قالت له ذلك ؟
- خافت . .
- وأنت ماذا فعلت ؟

- عدت إلى الصعيد . . ولم أعرف شيئاً بعد ذلك . .
- ما اسم هذه المرأة التي تسلمت منك الطفلة ؟
- مازنة حسن البرعى . .
- أين تقيم الآن ؟
- ماتت منذ زمن بعيد . .
- هل كان أحد في الحى الذى تقطنين فيه غير مازنة حسن البرعى
- يعرف محل إقامتك الجديده فى الصعيد ؟
- لا . .
- لماذا أخفيت عنوانك ؟
- زوجى هو الذى طلب منى ذلك . . حتى تنقطع علاقتى بالطفلة نهائياً . .
- ولماذا طلب منك ذلك ؟
- قال لى بعد أن تزوجنا بزمان . . إنه كان يغار منها . .
- كيف كان يغار منها ؟
- تسرب إليه الشك بأنها ابنتى غير الشرعية . . وأن دسوقى الذى كان يتردد علىّ هو والدها . .
- ووقفت طويلا عند هذه الإجابة . وترثت كثيراً قبل أن أسألها :
- وكيف تزوجك وعنده هذا الشك ؟
- اقتنع بخطئه . .

- هل كان دسوقي يتردد عليك وأنت متزوجة ؟
- وأنا مخطوبة فقط . .
- وبعد أن تزوجت ؟
- سافرت مع زوجي مباشرة . .
- هل كان زوجك يرى دسوقي وهو يتردد عليك ؟
- كان يعرف . .
- ألم يلتق به ؟
- قابله مرة واحدة في ذلك الحين . .
- وبعد ذلك ؟
- تزوجني وسافرت معه . .
- ألم تحاولي بعد ذلك . . أن تعرفي شيئاً عن الطفلة ؟
- انقطعت عن القاهرة مدة . . ثم نسيها بعد ذلك . .
- تقول الفتاة إنك تعرفت عليها بعد ذلك وكنت تترددين على بيتها . .
- تعرفت عليها من سنة فقط . . بعد أن اشتغلت راقصة . .
- كم من السنين مرت على انقطاعك عنها . . ثم تعرفك عليها ؟
- أكثر من خمس عشرة سنة . .
- كيف تعرفت عليها ؟
- ذهبت مع زوجي ذات يوم إلى مدينة أسيوط . . وأدخلني سينا . .
- وشاهدتها ترقص في الفيلم . .

- وكيف تعرفت عليها بعد خمس عشرة سنة ؟
- الشبه . .
- كم كانت سنّها عند آخر مرة تركتها فيها ؟
- ست سنوات . . أو سبع سنوات تقريباً . .
- تقولين إن دسوقي ظلّ يتردد عليك خمس سنوات فقط ؟
- لا أستطيع أن أذكر كم سنّها على وجه التحديد . . وإنما ست أو سبع سنوات تقريباً . .
- وفرضاً أن سنّها كانت سبع سنوات كما تقولين .. فهل في استطاعتك أن تتعرفي عليها بعد خمس عشرة سنة ؟
- أحسست أنها هي فعلاً . . وميزتها بعلامة فيها كنت أعرفها . .
- ما هي هذه العلامة ؟
- حسنة سوداء . . في كتفها الأيمن من الخلف . .
- وهل هذا يكفي ؟
- والشبه الكبير . . وإحساسى . . وفرحتى عندما شاهدتها ترقص . .
- ورأيتها شابة وجميلة جمالا رائعاً . .
- وماذا فعلت بعد ذلك ؟
- انتهزت أول مرة ذهبت فيها إلى القاهرة مع زوجي وعرفت اسمها
- وذهبت إليها في بيتها . .
- كيف عرفت اسمها . . وعنوان بيتها ؟

— كان لزوجي قريب يبيع اللب والسوداني في إحدى دور السينما . .
وذكر له اسم الفيلم . . وهو الذي دلنا على الاسم والعنوان . . ولما عرفناه
ذهبت إليها . .

— ذهبت إليها بمفردك أم مع زوجك ؟

— بمفردى . .

— ولماذا لم يذهب زوجك معك ؟

— هو الذي أراد ذلك . .

وراودنى شيء . . وواتنى فكرة . . وبدأت أرى خيطاً جديداً
يتراقص أمام عيني . . فددت يدي وتناولت قلماً . . وكتبت أمراً بالقبض
على الزوج . . وترحيله إلى القاهرة تحت الحراسة المشددة . . حتى
لا يتصل به أحد . . ثم أعدت القلم إلى مكانه . . واستأنفت التحقيق
معه ثانية . . وسألتها ؟

— ولما ذهبت إليها في أول مرة بعد هذه السنين . . ماذا حدث ؟

— أنكرتني في أول الأمر . . ثم لما تعرفت على كانت مفاجأة كبيرة

لها . . وارتمت في أحضانى وبكت كثيراً . .

— لماذا ؟

— لأنها كانت لا تزال تظن أنني أمها . .

— وقلت لها الحقيقة ؟

— طبعاً لا . .

- لماذا ؟
- أشفقت عليها من الصدمة . .
- أى صدمة ؟
- أن تعرف أنها بنت سفاح . .
- وماذا قالت لك عن تاريخ حياتها بعد تركك لها وهي طفلة ؟
- لم تقل لى شيئاً . .
- كيف هربت ؟
- لم تذكر لى شيئاً ؟
- وأنت ألم تسألها ؟
- الحقيقة أننى اجتقرت نفسى لأننى تخليت عنها وهي طفلة . .
- وكيف احترفت الرقص ؟
- قالت لى إنها صنعة تتعيش منها . .
- ألم تقل لك شيئاً إطلاقاً فى هذا اليوم ؟
- كل الذى طلبته منى أن لا يعرف أحد أننى أمها . .
- ولماذا طلبت منك ذلك ؟
- قالت لى لأن هذا يؤثر عليها فى الوسط الذى تعيش فيه ؟
- وماذا كان قولك ؟
- وافقت . .
- لماذا وافقت ؟

- أردت أن أحترم شعورها أولاً . . ولأننى فعلاً لست أمها . .
- كم من الزمن مكثت عندها هذه المرة ؟
- يوماً واحداً فقط لأننى سافرت فى اليوم الثانى مع زوجى . . .
- هل عرفت عنوانك فى الصعيد ؟
- قلته لها . .
- هل أعطتك نقوداً ؟
- عشرة جنيهات . .
- كم مرة ترددت عليها بعد ذلك ؟
- خمس مرات . .
- وكانت فى كل مرة تعطيك نقوداً ؟
- نعم . .
- أهى التى كانت تعطيك النقود . . أم أنت التى كنت تطلبين منها ؟
- هى التى كانت تعطينى . .
- لماذا وأنت لم تطلبي منها ؟
- لأننى فقيرة . . وأمها كما تظن . .
- كم كانت تعطيك من النقود فى كل مرة ؟
- عشرة جنيهات . .
- ألم تعطك أكثر من هذا المبلغ فى مرة من المرات ؟
- مرة واحدة أعطتنى خمسة عشر جنيهاً واشترت لى بعض الثياب . .

- لماذا في هذه المرة ؟
- كان بمناسبة أحد الأعياد . .
- أى الأعياد بالتحديد ؟ . .
- العيد الكبير . .
- تقولين إنك ترددت عليها خمس مرات . . فهل كانت كل مرة في البيت أو في غيره ؟
- في البيت . .
- كم كنت تمكثين عندها في كل مرة ؟
- يوماً . . أو يومين . . ولكنى مرة مكثت عندها سبعة أيام . .
- لماذا ؟
- كنت مريضة . . وعرضتني على طبيب . .
- وماذا قالت للطبيب عنك ؟
- أنا التي قلت له . .
- قلت له ماذا ؟
- قلت له إنني خادمة عندها . .
- ولماذا قلت له هذا ؟
- حتى لا أجرحها . .
- ألم تلاحظي أن أحداً كان يتردد عليها أثناء ترددك أنت عليها ؟
- لا . . لا . . لم أرَ أحداً قطّ يتردد عليها . .

— ألم تلاحظي أنها كانت على اتصال بأحد . . أو أن أحداً كان يتصل بها ؟

— لا . . لم ألا حظ . .

— ما هي ملاحظاتك على أخلاقها بصفة عامة ؟

— حسنة جداً . . وطيبة الخلق . . إلى حد التدين . .

— ماذا تقصدين من كلمة تدين ؟

— عندما ذهبت معها إلى الطبيب . . كانت تصدق على الفقراء

ورأيها تضع مصحفاً تحت الوسادة التي تنام عليها . . ولما سألتها عنه . . قالت إنها تبرك به وتعتبره أنيسها في وحدتها . .

فأدهشني منها هذا القول . . وقلت لها وأنا أتأملها :

— هل صدقت هذا القول من راقصة ؟

فكان ردها سريعاً جداً . . وفي إيمان لا حد له :

— طبعاً صدقتها . .

— وما الذي جعلك تصدقين إلى هذا الحد ؟

— ما رأيته بعيني . . والمصحف الذي كنت في كل مرة أراه في

مكانه . . وعندنا مثل في الصعيد يقول «دايما اللي في الجرة ، يطلع لبرة» .

— ما معنى هذا المثل ؟

— معناه إذا كان القلب نظيفاً . . فلا يمكن أن تتلوث الشفاه . .

فاندهشت لهذه الحكمة . . تصدر من مثل هذه المرأة الساذجة . .

وصمت لحظات رحت أفكر فيها وفي القضية التي أُمأى .. وفي هذه الحفنة من الناس التي يتصرف فيها القدر بمثل هذه القسوة حتى إنه ينصف من يستحق الظلم ويظلم من يستحق الإنصاف . . ويجعلنا في كثير من الأحيان نعطي ما لله لقيصر . . ونعطي ما لقيصر لله . .

وعدت إلى التحقيق . . وظروف الجريمة . . واسترجعت بعض الأقوال . . ورأيت بعض الخيوط التي بدأت تتوضح أُمأى وتبين لي الطريق . . وبعض الخيوط الأخرى التي ما زالت سوداء حالكة السواد . . حتى لتكاد تغرق في ظلمة سوادها . . ولما راجعت الأقوال التي أُمأى مرة أخرى . . رأيت أشياء كثيرة . . ما زالت في حاجة إلى إيضاح . . ولذلك تغاضيت عما أشعر به من إرهاق . . وما تشعر به أيضاً المرأة التي وقفت أُمأى ما يزيد على الثلاث ساعات حتى تعبت ولهت أنفاسها . . وراحت تنصب عرقاً . . تغاضيت عن ذلك كله . . واستأنفت سؤالها ثانية . . وقلت :

— جاء في أقوالك . . أن دسوقي ظل يتردد عليك بصفة منتظمة ما يزيد على الخمس سنوات . .

— نعم . .

— هل كانت السيدة التي ذكرت أوصافها تتردد عليك أيضاً ؟

— لا . . ولم أرها بعد المرتين كما ذكرت . .

— ألم تسأل عنها دسوقي ؟

— سألته . .

— وماذا قال لك ؟

— قال لي في أول الأمر إنها مريضة . . ثم قال لي بعد ذلك إنها ماتت . .

وكدت أدهش لهذا القول . . الذي لو صح لتغير وجه التحقيق . .

ولذلك سألتها في دهشة ؟

— وهل صدقت هذا القول ؟

— فعلا صدقته . . وظللت أصدقه . . إلى أن جاءني بنفسها في

الصعيد مع دسوقي .

فانفتحت فجأة أمامي طاقة جديدة . . نظرت منها إلى أشياء كثيرة، وقلت :

— تقولين إنها جاءت إليك في الصعيد . . وكان معها دسوقي ؟-

— نعم . .

— هل أنت متأكدة من هذا القول ؟

— طبعاً . .

— منذ متى جاءت إليك ؟

— من سنة تقريباً . .

— اذكرى التاريخ بالضبط . .

— فصمتت قليلاً ثم قالت :

— من تسعة أشهر . .

— لماذا حددت هذا التاريخ ؟

— لأنها جاءتني في رمضان . . ورمضان قادم بعد ثلاثة شهور

تقريباً . .

— هل أنت متأكدة من أنها جاءت إليك في رمضان ؟

— نعم . . لأنني كنت صائمة . .

— وهي ؟

— الله يعلم . .

— هل تناولت في بيتك طعاماً مثلاً ؟

— إنها لم تحضر إليّ في بيتي . .

— أين حضرت إليك إذن ؟

— في المحطة . .

— أي محطة ؟

— محطة البدارى . .

— اذكرى الذى حدث بالتفصيل . .

— ذات يوم . . كنت في بيتي . . فطرق الباب . . ولما فتحت . .

وجدتني وجهاً لوجه أمام دسوفى . .

— ساذا كان موقفك ؟

— اندهشت طبعاً . .

— عندما وقعت عينك عليه . . عرفت من هو ؟

— نعم عرفته على الفور . .

- ألم يتغير فيه شيء ؟
— شاب شعره فقط . .
— وهو . . هل تعرف عليك ؟
— نعم . . وقال لى أنا دسوقى . .
— وبعد ؟
— رحبت به . . وطلبت منه أن يدخل . . ولكنه طلب منى أن أصحبه
إلى استراحة المحطة . . فذهبت معه . .
— لماذا طلب منك إن تصحبيه إلى استراحة المحطة ؟ . .
— قال لى إن السيدة التى كانت قد جاءتنى من أجل الطفلة معه . .
وتتظرنى هناك . .
— كيف قال لك هذا . . وقد سبق له أن أخبرك بموتها ؟
— قلت له هذا . . فنظر إلى الأرض وقال . . إن الله حلیم ستار . .
ولما ذهبت معه وجدتها فعلا هى . .
— هل أنت متأكدة من أنها هى ؟
— طبعاً . . وسلمت عليها . . وسلمت على . .
— وهل تعرفت عليها بعد مرور أكثر من خمس عشرة سنة . . كما جاء
فى أقوالك ؟
— وحتى بعد خمسين لا بد أن أعرفها . .
— ألم يتغير فيها شيء . .

- طبعاً تقدمت بها السن . . وابتض شعرها . .
— وماذا قالت لك ؟
— كانت تظن أن الفتاة ما زالت عندي . . وكانت تريد أن تراها . .
— وماذا قلت لها ؟
— قلت لها الحقيقة . .
— أى حقيقة ؟
— لأننى لما تزوجت . . وتركت القاهرة . . تركتها أيضاً . . ولم أعرف
عنها شيئاً . . كل هذه السنين . . إلى أن تعرفت على صورتها أخيراً وهى
ترقص فى السينما . .
— وماذا كان شعورها عندما قلت لها هذا ؟
— بكّت كثيراً جداً . . وطلبت منى أن تعرف عنوانها فى القاهرة . .
— وهل ذكرت لها عنوانها ؟
— نعم . .
— كيف ذكرت لها العنوان . . وأنت تقولين إن الفتاة تعتقد أنك
أمها . . وأنتك تخشين عليها من الصدمة ؟
— أثير فى بكائها . . فأشفقت عليها وأنا وإن كنت لم أنجب إلا أننى
أعرف قلب الأم . .
— إذن أنت تقطعين بأنها أمها فعلاً ؟
— قلبى كان يحدثنى دائماً بذلك . .

— قلت في أول التحقيق . . إن حكمك عليها أنها ليست من النساء
لياهن ؟

— قد يخطئ الإنسان على الرغم منه . .
— حتى في شرفه ؟
— الله يعلم بالأسباب . .
— وإذا كانت أمها كما تقولين . . فأين كانت كل هذه المدة ؟
— قالت لأنها ظلت كل هذه السنين تبحث عن عنواني إلى أن اهتمت
إليه أخيراً . .

— وكيف اهتمت إليه ؟
— قالت لي إنها عرفتني من عم نوفل .. بعد أن خرج من السجن ..
— من عم نوفل ؟
— كان يبيع الخروب والعرقسوس . . على رأس الحارة . .
— ولماذا سجن ؟
— كان يتجسس في المخدرات . .
— وهل كان يعرفك ؟
— كان يعرف كل سكان الحارة . .
— وهي كانت تعرفه ؟
— قالت لي إنها أعطته نقوداً . . وذكرت له اسمي وأوصافي . . وظل
يبحث عني إلى أن عرف اسم زوجي والبلد الذي سافرت إليه . .

- هل ذهبت معك في هذا اليوم إلى بيتك ؟
- لا . . . وقد سافرت مع دسوقي في نفس اليوم . .
- إلى أين سافرت مع دسوقي ؟
- لا أعرف . . ولكن إلى القاهرة طبعاً . .
- هل ذهبت إلى الفتاة بعد أن تعرفت على عنوانها ؟
- لا أدري . . فأنا لم أسافر إلى القاهرة منذ هذا التاريخ . .
- هل حضر زوجك هذه الواقعة ؟
- لا . . وإنما ذكرتها له . .
- هل أعطتك نقوداً في هذا اليوم ؟
- أعطتني خمسة جنيهات . .
- لماذا . . ما دامت الفتاة ليست عندك ؟
- قالت لي لأنني ذكرت عنوانها . .
- هل إذا شاهدت هذه السيدة . . يمكنك التعرف عليها ؟
- نعم . . أعرف عليها . . حتى ولو كانت بين ألف . .
- ففتحت درج مكنتي وأخرجت منه مظروفاً كانت به عدة صور
لنساء مختلفات . . ومن بينها صورة للمجنى عليها . . وناولتها المظروف . .
وطلبت منها أن تخرج صورتها من بين هذه الصور . . وما إن فعلت
ورأت صورتها . . حتى انتزعها من بين مجموعة الصور . . وقدمتها لي
وهي تقول مبتسمة وكأنها تزهو بانتصارها :

— هذه هي نفسها السيدة التي أتحدث عنها . .

* * *

اطمأننت إلى هذه النتائج . . وإلى هذه الخيوط الكثيرة التي بدأت أمسك بها في يدي . . وكان الليل قد انتصف أو كاد . . فاكتفيت بهذا القدر . . وأمرت بإعادة المرأة إلى السجن . . ووضعها في مكان بعيد عن الفتاة . . بحيث لا تتصل بها أو حتى تراها . . ثم استدعيت الفتاة إلى مكتبي قبل أن تنصرف . . وكانت شاحبة مضطربة . . مقرحة العينين من أثر بكاء طويل . . وكانت قلقة . . تريد أن تعرف مصيرها . . فطمأنتها وأفهمتها أن الأمر لا يزيد على بعض الإجراءات التي يجب أن تتخذ . . وسألته . . هل استدعيت أمي . . واستشعرت مراة لهذا السؤال . . . وأشفقت عليها من قلبي . . إذ ما زالت تظن أن هذه المرأة هي أمها فعلا . . وتذكرت قول المرأة في التحقيق من أنها أشفقت عليها من ذكر الحقيقة . . لأنها خشيت عليها من الصدمة . . وكأنني أنا الآخر أشفقت عليها من الصدمة . . ولذلك قلت لها . . إنه فعلا قد تم القبض عليها . . ولكني لم أسألها بعد . . وكنت قد أرجأت عملية المواجهة حتى يتم القبض على الزوج . . وسؤاله . . وأواجه الثلاثة بعضهم ببعض . . المرأة والزوج والفتاة . .

ووجدتني وهي تنصرف أزيد من طمأنينتها مرة أخرى كما وجدتني أيضاً أطلب لها طعاماً معيناً . . وأعطى أحد الحراس خمسة جنيهات ،

لتكون تحت إذن الفتاة تطلب منها ما تريد من طعام مدة التحقيق . .
ومع أن هذا قد يخالف بعض اللوائح . . إلا أنني باطمئنان وراحة بال
وضمير . . تغاضيت عما في هذا من مخالفات . . ولما انصرفت . . مكثت
في مكتبي بعض الوقت . . راجعت فيه بعض صفحات التحقيق . .
ومطابقة أقوال الفتاة لما قالته هذه المرأة . . وخصوصاً في ما يتعلق بالمخني
عليها . . وفي ما كان خاصاً بدسوقي بالذات . . الذي أصبح هو مفتاح
كل شيء في هذه القضية . . وفكرت في أن أتصل بنبابة الغربية . .
وأطلب من الزميل وكيل النيابة الذي حقق معه تحت إشرافي أول مرة . .
أن يقبض عليه فوراً . . ويرسله إلى " تحت الحراسة الشديدة . . ولكني لم
أستصوب هذا التصرف . . وفكرت في طريقة أخرى . . استعملتها كثيراً
في بعض التحقيقات . . ونجحت معي إلى حد كبير . . وهي أن أدعوه
لزيارتي . . في القاهرة بحجة أنني أريد أن أراه . . ولا سيما أنني أظهرت له
إعجابي بشخصيته عندما رأيته أول مرة . . وسوف يصدق هذا بطبيعة
الحال . . وعندما يجيء إلى مكتبي . . أفاجئه بالحقائق التي ستأخذ بنخاقه
فجأة . . ولا تجعل له فرصة يهيئ فيها ذهنه . . للمغالطة . . والإنكار
وعدم ذكر الحقائق . .

عدت إلى بيتي في هذه الليلة . . وظروف هذه القضية تستحوذ على تفكيرى كله . . والأقوال التي استمعت إليها . . تدور في ذهني . . وترن في أذني . . وظروف هذه الجريمة التي ما زالت حتى الآن غامضة . . تتراقص خيوطها أمام عيني . . فقد أصبح من المقطوع به أن المجني عليها هي أم الفتاة . . وأنها ولدتها سفاحاً . . وأن الفتاة لم تعرف ذلك إلى الآن . . وأن الأم لظرف ما لم تذكر هذا للفتاة . . وأيضاً لم تتخل عنها . . بدليل أنها ظلت تبحث عنها كل هذا الزمن الطويل . . إلى أن التقت بها في آخر الأمر تعمل راقصة . . فذهبت إليها تجت زى المعجبة . . والمخلصة . . والصديقة . . حتى اطمأنت إليها الفتاة . . ولما اطمأنت إليها . . حاولت كما جاء في أقوال الفتاة . . أن تجعلها تمتنع عن الرقص — حتى ولو تورثها كل ما تملك — وهذا دليل قاطع على أنها أمها فعلاً ولكن إذا كانت أمها فعلاً — كما هو واضح حتى الآن — فما الذي منعها من أن تعترف لها بالحقيقة ؟ هل خشيت من أحد . . ومن تخشى إذا كانت كما ظهر من التحقيق . . لا أهل لها . . ولا أقارب . . ولا حتى أصدقاء . . وهل كانت تخشى مثلاً الرجل الذي ارتكب معها هذا الإثم . . والذي هو والد الفتاة . . وإذا كانت تخشاه . . وتخشاه

إلى هذا الحد . . فلماذا لم تظل علاقتها به قائمة . . ولماذا لم تتزوجه مثلاً . .
أو على الأقل يتردد عليها . . أو تتردد هي عليه . . وثابت من التحقيق
حتى الآن أنه لا أحد كان يتردد عليها . . ولم تتردد هي على أحد . .
وإذا كانت الجريمة وقعت فعلاً بسبب الفتاة . . باعتبارها ثمرة العار
وعنوانه . . فلماذا لم تقتل الفتاة . . ووسائل قتلها مهينة للجاني تماماً . .
لأنها هي الوسائل نفسها التي هيأت له ارتكاب الجريمة . . باعتبار أن
الفتاة كانت تتردد على البيت نفسه . . وتبيت فيه . . بل في المكان نفسه
الذي ارتكب فيه القتال جريمته . . وإذا أخذنا بهذا القول . . وقطعنا بأن
الجريمة وقعت بسبب الفتاة . . فمن يكون مرتكبها . . والتحقيق حتى
الآن . . وبرغم الحقائق البالغة الأهمية التي أسفر عنها التحقيق . . لم يرسل
حتى بصيصاً واحداً . . نستطيع أن نستدل به على الجاني . .
وتذكرت دسوقي . . وموقفه الغامض حتى الآن . . وكيف أنه
كما أشار التحقيق يكاد يحمل مفتاح السر الحقيقي للجريمة . . ووقف
ذهني عند هذا الرجل طويلاً . . ووجدتني تلقائياً أسأل نفسي هذا السؤال:
— لماذا لا يكون دسوقي هو القتال . . ولماذا أيضاً لا يكون هو الأب
غير الشرعي للفتاة — وكثير من صفحات التحقيق تكاد تشير إلى هذا —
ولكن إذا كان هو فعلاً . . فلماذا قتلها ؟ . . إن الثابت حتى الآن أن
علاقته بالمجنى عليها ظلت — كما ورد في التحقيق على لسان الفتاة ولسان
المرأة أيضاً — على أحسن حال . . من الود . . والإخلاص . . والتفاني

في خدمتها . . وما دام الأمر كذلك . . فلماذا لم يتزوجا . . ويعترفوا ببينة
الطفلة التي هي ابنتهما فعلاً ؟ وهل منعهما شيء من الزواج . . هل
منعهما مثلاً . . ذلك الفارق الاجتماعي بين الاثنين . . هو كخادم . .
وهي كمخدوم . . واكتفيا بأن تظل العلاقة بينهما سرّاً . . وأن لا يذكر
شيئاً للفتاة . . وأن الذي ساعدهما على هذا . . على استمرار هذه العلاقة
بينهما كل هذه السنين . . هو هذا الفارق الاجتماعي بين الاثنين . . هذا
الفارق الذي هو يقدر ما أبعد عنهما الشبهات . . وطد العلاقة بينهما سرّاً . .
وجعلها قائمة بينهما كل هذه السنين الطوال .

وما إن فكرت في هذا . . واستوعبته تماماً . . ورجحت عندي كفته
حتى انبثق فجأة أمام عيني خيط باهر النور . . جعلني أعتقد اعتقاداً
لا يرق إليه الشك . . في أن القاتل هو دسوقي . . وأن الجريمة لم ترتكب
بسبب الفتاة أو غيرها . . وإنما ارتكبت بسبب الغيرة . . إذ اكتشف
دسوقي . . أن للمجنى عليها عاشقاً غيره . . هو الرجل الذي شاهدته الفتاة
يتسلل من مخدع المجنى عليها في الليل . . ويؤيد هذا القول ما جاء على
لسان الفتاة من وصف دقيق للحادث . . عندما ضببت المجنى عليها
ومعها رجل في مخدعها . . والحال التي كانت عليها المجنى عليها . . قميص
النوم الذي كانت ترتديه . . وارتباكها الزائد عندما اكتشفت الفتاة أمرها .
وضبطتها في حال تكاد تشبه التلبس .

وكنت قد وصلت إلى بيتي في تلك الليلة . . وكان البيت الذي نقطنه

قصرأ على النيل . . كانت قد ورثته أمى عن جددها . . وكانت أبها؛
القصر وحديقته الواسعة مكتظة بالناخبين من أهل الدائرة . . التى كان
أنى مرشحاً لها لعضوية الشيوخ . . وكان يبنى على نجاحه فى هذه
الانتخابات الكثير من الآمال العراض . . ولذلك كان اهتمامه بهذه
المعركة زائداً . . يشغل كل وقته . . وكل تفكيره . . وكنت متعباً جداً . .
وأشعر بإرهاق شديد . . فقد ظللت ما يزيد على اليومين فى تحقيقات
دائمة . . ولذلك فكرت أن أتسلل من الباب الخلفى للقصر . . ولا أدخل
من باب الحديقة . . حتى لا أشارك فى هذا النفاق الاجتماعى . . وأظهر
بغير مظهرى . . كما يتطلب حال الانتخابات دائماً . . فأنت فيها مضطر
إلى أن تعامل السفلة وقطاع الطرق ، كما لو كانوا من الأنبياء والرسل . .
كما أنك لاتجد فيها من يحتنى بك . . ويشيد بفضلك . . ويعانقك
بحرارة . . إلا وهو لك من أشد الخصوم . . ولذلك عندما هبطت من
السيارة أردت أن أتسلل خفية من جانب السور حتى لا يرانى أحد ، غير
أننى فى أثناء ذلك سمعت صوت أحد الخطباء . . فوقفت أستمع إليه . .
وقد أطربنى كثيراً إشادته بأبى . . وما أسبغ عليه من صفات ووصفه
من وصف . . مما جعلنى أكاد من الزهو أهتر فى مكائى طرياً . . ومع
ذلك عندما انصرفت . . وجدتني أسأل نفسى . . أهذا الخطيب مأجور . .
أم هو مقدر ؟ ! وهل هو يقول هذا من قلبه . . وبدافع الحقيقة . .
أو هو يقوله من جيبه . . وبدافع النقود التى تكتظ بها حافظته ؟ !

ومع ذلك لم أهتد إلى جواب . . ذلك لأننا أحياناً لا نستطيع أن نفرق بين الزيف والأصل . . ولا بين الصدق والكذب . . إذ في كثير من الأحيان يكون طلاء الزيف أشد إقناعاً . . وتكون حرارة الكذب أشد تأثيراً . .

ثم انصرفت إلى الداخل . . وصعدت مباشرة إلى الطابق العلوى من القصر ، حيث كانت والدتي في غرفتها تعاني آلام الربو الذى أخذت أزمته تشتد بها في تلك الأيام . . وكنت من ثلاثة أيام لم أرها . . فجلست معها حيناً . . وأطلعنى على سير المرض . . ونتيجة الدواء . . وكيف أنها بدأت تشعر بتحسّن ملموس . . غير أن الذى كان يضايقها هو انشغال أبى في معركة الانتخابات . . والمتاعب التى يلاقها في سبيل ذلك . . والمبالغ الباهظة التى ينفقها . . حتى إنه أنفق إلى الآن — ولما تنته المعركة بعد — ما يزيد على العشرة آلاف من الجنيهات . وكانت أُمى متأثرة لهذا تأثراً كبيراً . . مما زاد في أمراضها . . ومع ذلك لم أرد أن أقول لها شيئاً لأننى لم أشأ أن أقول لها الحقيقة التى أعرفها . . عن أبى . . وهى أنه على استعداد لأن يضحى بكل ما يملك في سبيل الحصول على مجده الجديد . . فقد كان طموحاً . . وكان طموحه لا يقف عند حد . . ولذلك فهو على استعداد الآن لأن ينفق مئات الألوف من الجنيهات . . لا عشراتها . . وأن يضحى بكل شيء حتى بصحته . . كل ذلك في سبيل نجاحه في هذه المعركة . لم أشأ أن أقول لوالدتي شيئاً من هذا . . ولذلك غيرت دفة الحديث . . ورحت أتحدث إليها عن المرض ثانياً . . والمريض يلذ له دائماً أن يتحدث

عن المرض والطب والدواء . . وما إلى هذا من أشياء يستشعر هو أهميتها قبل غيره . . ومكثت أتحدث معها بعض الوقت . . وكان أبي قد علم بوجودي في البيت . . وبأني في الطابق العلوى . . فاستدعاني إليه فوراً في الحديقة ليقدمنى إلى البارزين من أهل الدائرة . . أو على الأصح يقدمهم إلى . . فقد كان يفخر بى كثيراً ويزهو بمركزى في القضاء وبمنصبى كأحد رجال الضبط والربط في الحكومة . . وكان هذا كله من غير شك يقوى من مركزه كوالد لى عند هؤلاء السذج من الناس .

وبرغم إرهاقى الشديد فقد لبيت طلبه وذهبت إليه ووقفت على قدمى ما يزيد على نصف الساعة . أصافح هذا وأعانق ذاك وأبتسم لهذا الشئ وأطرب لهذا المديح وأصفق لهذا الخطيب وأستعيد أبيات هذا الشاعر . . حتى كدت أنا الآخر أشارك مشاركة فعلية في هذا النفاق الكبير ، لولا أننى وجدت أمامى مصادفة . . الشيخ مروان عمدة القرية التى يتبعها دسوقى الذى سبق سماع شهادته فى القضية . . والذى هو باعتبار ما سيكون — إذا صدق حدسى — المهتم الأول فى القضية . . وقلت هذه فرصة أستدرج فيها العمدة دون أن يفطن لعلنى أعرف ما يهمنى معرفته عن دسوقى قبل أن أقبض عليه وأسأله رسمياً ، أو أوجه إليه تهمة القتل .

وانتهزت فرصة حفاوة العمدة بى وسعاده بالجلوس فى حضرتى واسترسلت معه فى الحديث . . وسألته عن حال المحصول الزراعى هذا العام . . وما سببته الإصابات فى محصول القطن هذه السنة . . ثم سألتها عن حال

الأم من الأرياف وأظهرت له إعجابي به وتقديرى له . . لفلة الحوادث في منطقته . . وكثرتها في المناطق الأخرى — مع أن العكس هو الصحيح — فزاد هذا في طربه وسعاده مما جعله يكاد يرقص فرحاً . . وهكذا ظلمت به حتى جعلته هو الذى يطرق حديث القضية . . ويسألنى عما تم بشأنها . . فقلت له دون مبالة . . وكأننى أتحدث عن شيء لا أهمية له . . إنها أوشكت على الانتهاء . . وسوف تقيد ضد مجهول . . فقد ثبت من التحقيق تعذر معرفة الجناة . . فراح يترحم على المجنى عليها . . التى كانت — كما قال — المثل الأعلى للأخلاق الطيبة والسجايا الكريمة . ولما سألته هل كان يعرفها عن قرب ؟ . . قال : إنه كان يسمع عنها فقط . . لأنها كانت تقيم دائماً في القاهرة . . وإنما حدثه عنها كثيراً دسوقي ، الذى كان على اتصال دائم بها . .

وجرنا ذكر اسم دسوقي بطبيعة الحال إلى التحدث عنه كثيراً . وراح الرجل يمتدحه . . ويثنى على أخلاقه ويعدد مناقبه وسجاياه وإيمانه الذى لا حد له ووفاءه الذى كان يشبه وفاء الملائكة للمجنى عليها . . وكيف أنه كان لها أباً وأخاً وخادماً . . وكيف أن حزنه ما زال عليها إلى الآن قائماً . . وبكائه عليها لا ينقطع . . وكان أبى قد حضر طرفاً من هذا الحديث فأمن على القول . . وقال إنه وإن كان لا يعرف دسوقي معرفة مؤكدة أو تربطه به صلة . . إلا أنه سمع عنه الكثير من الثناء . . وانتهزت أنا هذه الفرصة المواتية . . وألقيت بالحجر الذى أريد . . ورحت

أنا أيضاً أننى عليه وعلى ما ظهر لى من أخلاقه الطيبة أثناء سؤاله فى القضية . وكيف أننى أحببت فيه الكثير من الصفات . . منذ ذلك اليوم . . وكيف أنه حاول أن يكرمنى أنا بالذات كرمًا حائميًا عندما انتقلت إلى بيته أنا والزميل وكيل نيابة الغربية الذى كان يحقق معه بمحورى . . وأن يقدم لنا الفطير والزبد والدجاج وطواجن الفريك المحشوة بالحمام . . مما يجعلنى الآن أفكر فى دعوته لزيارتى فى القاهرة . . ولما أظهرت صدق هذه الرغبة تطوع العملة سريعاً بتنفيذها . . وأخبرنى بأنه بمجرد وصوله إلى القرية فى مساء الغد . . أو صباح بعد غد على الأكثر . . فسوف يبعث به إلى . . وسوف يسره هذا ويسعده كثيراً . . بل يزيده فخراً . . وشعرت باطمئنان زائد إلى هذه الوسيلة التى سأستدرجه بها إلى دون أن يتسرب إليه أدنى شك فى السبب الذى أدعوه من أجله . . ثم تحدثنا بعد ذلك بعض الأحاديث العابرة إلى أن انفض ذلك السامر الانتخابى الكبير . . وانطفأت شعلة النفاق الاجتماعى التى تشتعل فى هذه المناسبات . . وذهبت لتزود بالوقود . . لتشتعل وتضىء فى الليلة القادمة . . وجلست مع أبى الذى كان بادى التعب والإرهاق إلى حد كبير . . بعض الوقت فى الصالون . . ريثما يشرب فنجاناً من القهوة . . فقد كان من عادته أن يشرب القهوة لينام . . وكنت أقدر فيه هذه الأعصاب . . وتطرق بنا الحديث فى هذا الوقت القصير إلى أمور عدة . . تحدثنا عن والدتى ومرضاها . . وعلة الربو التى بدأت تأخذ بخناقها . . وتحدثنا عن الانتخابات

ومتاعبها . . ومركز المنافس لأبي من حيث القوة والضعف . . والأمل الكبير الذى يبينه أبى على الحفل الانتخابى الضخم الذى سيقمه قريباً . . ويحضره زعيم الحزب الذى ينتمى إليه .

ثم تطرق بنا الحديث إلى عملى وبعض القضايا التى أهمتها . . وسألنى عن ظروف بعضها وملايساته . . فقد كان دائماً يهتم بعملى ويتتبع خطوات نجاحى . . وكنت أحياناً أشرح له بعض الدقائق . . وكان هو يبدى لى بعض الآراء الصائبة . . التى كثيراً ما كنت آخذ بها . . وأذكر أنه ذات مرة وجه نظرى إلى نقطة كانت غائبة عني . . فى إحدى القضايا السياسية الهامة التى كان لها بعض الدوى فى ذلك الحين ، وفعلًا كانت هى نقطة التحول الخطير فى القضية . . والثقب الذى نفذنا منه إلى الحقيقة كاملة .

ثم تطرق بنا الحديث إلى هذه القضية بالذات . . فذكرت له الحقائق الغريبة التى وصل إلينا التحقيق حتى الآن . . وكيف أنه اتضح أن الفتاة التى قبض عليها لم تكن ابنة هذه المرأة التى ظلت كل هذه السنين توهمها بأنها أمها . . وأنها ابنة سفاح . . وأن جميع الحيلوط بدأت تتجه الآن . . وتتقل من الشك إلى مرتبة اليقين بأنها ابنة المحبى عليها . . وأن القاتل هو دسوقى . . وفرح أبى كثيراً لهذه المعلومات التى وصلت إليها . . ولكنه اندهش دهشة كبيرة . . إذ كيف يرتكب دسوقى هذه الجريمة الفظيعة . . وهو الذى نقول عنه ما نقول ونصفه بما نصف . . وما زالت دموعه على القتيلة لم تجف حتى اليوم . . فأفهمته بأن كثيراً من الذئاب إذا تأصلت

فيها جذور الضراوة ترتدى زى الحمل . . فازدادت دهشته . . وسألني في
استغراب كثير . . لماذا والأمر كذلك لم أقبض عليه حتى الآن . . بل
لماذا كنت أنحدث عنه هذا الحديث مع العمدة . . وأفهمته بنظريتي . .
فلم يفتنع بها . . وطلب مني سرعة القبض عليه فوراً . . ولكنني لما شرحت
له نظريتي وكيف أنها نحتت معي في أكثر من قصية . . ومع أكثر من
متهم . . انصرف وهو يدعو لي بالتوفيق في كل خطواتي . .

في الصباح . . ذهبت إلى مكتبي . . واستأنفت التحقيق في القضية .
 وكان زوج نظيرة الذي ورد ذكره في التحقيق قد قبض عليه . . وتم ترحيله .
 فاستدعيتني إلى " في الحال . . ولا مثل أمامي رأيت رجلاً غليظ القلب . .
 تتسم نظرتة بالقسوة والعنف . . وله تجاعيد منطو بعضها على البعض
 الآخر . . وملتوية أشبه بالتواء جسم الأفعى . . الذي يكمن وراء الشر . .
 ولذلك انتظرت منه الكثير من المتاعب . . ولكي أحطم فيه هذه
 الغلظة ، وأحد من قسوة هذه النظرات التي تنبعث من عينيه الجاحدتين . .
 قلت له في غلظة وأنا أنظر إليه قبل أن أبدأ معه التحقيق ، وأدون أقواله
 في المحضر :

— أنت متهم بجريمة قتل . .

فلم يحرك فيه هذا القول ساكناً . . أو حتى تطرف له عين . . وإنما
 قال وهو يتسم في هدوء لا حد له :

— أما إنني متهم بجريمة قتل . . فهذا شيء . . وأما إنني لم أقتل
 في حياتي حتى دجاجة . . فشيء آخر . .

وأعجبني منه هذا الرد الذي ينطوي على سخرية لاذعة . . وفي الوقت

نفسه ينم عن اطمئنان عجيب . . ثم بدأت معه التحقيق . . وبعد أن
سألته عن اسمه وسنه ومحل إقامته . . وبعض أسئلة أخرى سريعة قلت له :
— هل أنت متزوج من نظيرة أحمد البسيوني ؟

— نعم .

— منذ متى تزوجتها ؟

— لا أدري . . وإنما هي سنين طويلة . .

— اذكر التاريخ على وجه التحديد . .

فقال وهو يخرج من صدر ثوبه . . حافظة جلد كبيرة لها عدة أزوار

نحاسية لامعة . . ويخرج منها ورقة . . ويقدمها لي :

— هذه قسيمة الزواج . .

وأدهشني أنه يحملها في جيبه . . فقلت :

— ها، أنت تحمل هذه القسيمة في جيبك دائماً ؟

تحملها في جيبك الآن ؟

— احتفظت بها معي عقب القبض على زوجتي . .

ولما قارنت التاريخ والوقائع التي ذكرتها زوجته . . ووجدتها مطابقة

تماماً . . قلت :

— هل كنت تعلم سبب القبض على زوجتك ؟

— طبعاً . .

- ما هو ؟
- علاقتها بهذه الفتاة التي تشتغل راقصة .
- فقط ؟
- وعلاقتها أيضاً بتلك السيدة التي وجدت قتيلة في بيتها . .
- من أين عرفت هذه المعلومات ؟
- من زوجتي . . وأنا أيضاً كنت أعرف بعض المعلومات . .
- ما هي هذه المعلومات التي تعرفها ؟
- أن زوجتي كانت تتبنى هذه الفتاة وهي طفلة . . وأنها كانت تعرف القتيلة .
- هل كانت زوجتك تتبنى الطفلة . . أو هي ابنتها فعلاً ؟
- لا . . لا . . كانت تتبناها .
- قالت زوجتك في التحقيق . . إنك اتهمتها يوماً ببثوث هذه الطفلة . .
- شككت فقط . .
- ما هو سبب هذا الشك ؟
- الحقيقة أني لما وجدت هذا الرجل الرقيق الذي كان يتردد على زوجتي — قبل أن أعقد عليها — ليعطيها بعض النقود لتنفق منها على الطفلة . . ووجدت حبه الزائد للطفلة وعطفه عليها . . وبكائه أحياناً إذا رآها . . ورأيت أيضاً تعلق زوجتي الزائد بالطفلة — شككت في الأمر .
- شككت في ماذا ؟

- في أن الطفلة ابنة زوجتي من هذا الرجل .
- ما اسم هذا الرجل ؟
- دسوقي .
- ما هي أوصافه ؟
- ولما وصفه وصفاً دقيقاً . . يطابق الحقيقة . . قلت :
- وصفت زوجتك في التحقيق دسوقي بأنه كان على شيء كثير من
- التقى والتدين والخلق الحسن . . وأنه كان يصلي دائماً .. فكيف يتسرب
- إليك الشك . . إذا كان كذلك فعلاً ؟
- الحقيقة أنا لا أطمئن كثيراً . . لبعض الذين يتظاهرون بالتقوى
- والصلاح . . . وكثرة الصلاة . .
- هل كانت زوجتك كذلك ؟
- لا . .
- لماذا شككت فيها ؟
- هكذا حدثتني نفسي . .
- ولماذا لم تطلب من زوجتك التخلي عن الطفلة ؟
- رفضت . . وكنت لم أعقد عليها بعد .
- ألم تذكر لك سبب الرفض ؟
- كانت فرحة جداً بالثلاثة بجنهات التي كانت تأخذها في كل
- شهر . . والحقيقة أن هذا المبلغ في ذلك الحين كان ثروة كبيرة . .

- قلت إنك كنت تشك . . فما الذى أزال شكوكك ؟
- الحقيقة . . والأحاديث التى كنت أستمع إليها خلصة تدور بين زوجتى ودسوقى كلما جاء إليها . .
- تقول الحقيقة . . فما هى الحقيقة ؟
- تأكدى من أن زوجتى لم تعرف على دسوقى إلا بعد أن عثرت على الطفلة فى الطريق بما يريده على الشهر . . وبعد أن تعرفت على القتيلة ، وأن دسوقى لم يكن أكثر من رسول بين زوجتى وبين أم الطفلة . .
- من هى أم الطفلة ؟
- الله يعلم . .
- تقول أم الطفلة . . معنى ذلك أنك تعرفها . .
- أعتقد أنها هى السبابة التى كانت تردد على زوجتى فى أول الأمر من أجل الطفلة . .
- ما الذى جعلك تعتقد ذلك ؟
- الأحاديث التى أستمعها تدور بين زوجتى ودسوقى . .
- ما هى هذه الأحاديث ؟
- عطف دسوقى على تلك السيدة وحديثه عنها بالخير دائماً . . وكيف أنها لم تكن تستحق هذا العذاب الذى تعيش فيه من أجل هذه الطفلة . وقوله دائماً كلما سألته زوجتى عن شئ . . إن الله حلیم ستار . . وربنا يجازى أولاد الحرام . .

- وهل هذا كاف ليجعلك تعتقد هذا الاعتقاد؟
— طبعاً . . وإلا فلماذا سعت إليها وتعرفت على مكانها .. وظلت
تمد زوجتي بالنقود . . من أجل الطفلة كل تلك السنين ؟
— إذا كانت ابنتها فعلاً . . فلماذا تخلت عنها ؟
— ظروف . .
— قالت زوجتك في التحقيق . . إن هذه السيدة قالت لها إن الطفلة
ابنة قريبة لها وليست ابنتها . .
— طبعاً تقول ذلك . .
— ما الذي يجعلها تقول ذلك ؟
— الظروف . .
— ما هي هذه الظروف ؟
— الله يعلمها . .
— هل هذه فقط الأسباب التي أزالته شكوكك ؟
— نعم . .
— وهل تظنها كافية لتزيل شكوكك ؟
— طبعاً . . والدليل أنني عندما عقدت على زوجتي . . وطلبت منها
أن تتخلى عن الطفلة . . تخلت عنها نهائياً . .
— ولماذا لم تكن قد فضلتك كزوج . . على الطفلة كابنة ؟
— ليس في الوجود ما يفضل الضنى . . أو يجعلنا نتخلى عنه . .

— إذن لماذا تخلت تلك السيدة عن طفلتها . . وألقت بها في الطريق ؟

— الشرف فقط . . هو الأعلى ثمنًا . .

— أى شرف . . وهى قد ولدتها سفاحًا ؟

— الله يعلم بالأسباب . .

وصمت لحظات . . أستوعب فيها هذا القول . . وأتخيل هذا الصراع

الجبّار الذى يقوم بين الإنسان وشرفه . . وبين الإنسان وفلذة كبده . .

وما هى قوة تلك الأسباب التى تدفعنا إلى التناول على هذه القديسيات

التي تنبض في دماثنا حتى تجعلنا نلقى بفلذات أكبادنا على الأرض . .

وندوسها بالأقدام . . وتجعلنا نبيع بالثمن البخس أعلى ما في حياتنا ..

وهو شرفنا — كما يقول هذا الرجل — وكدت أسترسل في هذه المواجهس ..

وأنسى ما أنا فيه . . والرجل الذى أمامى ، لولا حركة بدرت في الغرفة

فأيقظتنى وأعادتنى إلى ما أنا فيه وجعلتنى أستأنف أسئلتى له . . فقلت

بعد أن رجعت إلى بعض صفحات التحقيق :

— هل شاهدت الطفلة . . بعد أن كبرت واشتغلت راقصة ؟

— لا . . لم أشاهدها إلى الآن . . ومنذ أن كانت طفلة في الثالثة أو

في الرابعة من عمرها . .

— تقول زوجتك إنك شاهدها ترقص في أحد الأفلام . .

— نعم . . وهى التى تعرفت عليها . .

— وكيف تعرفت عليها ؟

- بالشبه . . وبجسنة كانت في كتفها . . وقد تحقق أنها هي فعلا . .
- عندما حضرت زوجتي إلى القاهرة . . وتعرفت على عنوانها . . وذهبت إليها .
- كيف تعرفت على عنوانها ؟
- أنا الذي تعرفت عليه .
- ممن ؟
- أحد أقاربي . . وهو يبيع اللب والسوداني في إحدى دور السينما .
- ولماذا لم تذهب إليها مع زوجتك ؟
- الحقيقة أنا رجل صعيدى . . والشرف عندي له قيمته .
- وما دخل الشرف في هذا ؟
- فقال الرجل محنداً . . وفي صوته غلظة . . وكأنه يؤنبني :
- كيف لا تدخل للشرف . . وهي ابنة زنا . . وراقصة ؟
- كيف، سمعت لزوجتك بأن تذهب إليها ؟
- فأجابني صوت الرجل . وقال في شغل كثير . . وهو ينظر إلى الأرض ، وكأنه يؤنب نفسه هذه المرة :
- الحقيقة . . أنا لا أعرف لماذا فعلت هذا . .
- ولما أحسست بخلجه حقيقة . . أشفقت عليه . . ووجهت إليه سؤالاً
- آخر . . وقلت :
- هل شاهدت تلك السيدة التي كانت تتردد على زوجتك ؟
- شاهدتها مرة واحدة . . عندما جاءت إلى زوجتي في البدارى . .

- ما هو تاريخ ذهابها إلى زوجتك في البدارى ؟ !
- لا أذكر .
- تذكر . .
- سنة تقريباً . .
- قالت زوجتك تسعة أشهر . .
- هي أصدق . .
- لماذا ؟
- النساء دائماً أقدر على حساب الأيام . .
- سنة . . أم تسعة أشهر ؟
- تسعة أشهر . . وقد تذكرت الآن .
- تذكرت ماذا ؟
- أنها جاءت إلى زوجتى فى رمضان . .
- هل كانت وحدها . . أو معها أحد ؟
- كان معها دسوقى . .
- ماذا كان شعورك عندما شاهدتهما معاً ؟
- من أى ناحية ؟
- قلت فى التحقيق . . إنك تشك فى أن السيدة المذكورة هى أم
- الطفلة وأن دسوقى هو والدها . .
- الحقيقة . . تحول شكى إلى يقين . .

- ما الذى جعلك تؤمن بهذا ؟
- الحب . . والحنان . . والعطف المتبادل بين الاثنين . . والمعاملة التى كان يعاملها كل منهما للآخر . . لم تكن أبداً معاملة خادم لمخدوم .. وإنما معاملة أهل أو أصدقاء . . وغير ذلك . . الفرحة الزائدة التى كانت تتألق فى عين الاثنين عندما ذكرت لهما زوجتى عنوان الفتاة فى القاهرة .
- ألم تلاحظ أيهما كان أكثر فرحاً ؟
- هى طبعاً . . لأنها لم تملك شعورها . .
- ماذا فعلت ؟
- احتضنت زوجتى . . وقبلتها . .
- ودسوقى ؟
- فرح أيضاً . . ولكن فرحته كانت أقل . .
- لماذا ؟
- لأنه رجل . . والرجل يستطيع أن يكبت شعوره . .
- ولكنها ابنته أيضاً كما تقول ؟
- ولكنها أيضاً ابنة حرام . .
- وكأننى نسيت ذلك .. لأننى تأملت .. وعاودنى إحساس بالعطف الشديد على الفتاة .. ولذلك صهمت بعض الوقت .. ثم قلت لأنتهى من استجوابه :
- لماذا جاءت المحنى عليها ومعها دسوقى إلى زوجتك فى البدارى من تسعة أشهر ؟

- لتتعرف منها على عنوان الفتاة .
- وأين كانت كل هذه السنين ؟
- قالت إنها كانت تجهل عنوان زوجتي . .
- ومن الذى دلها عليه ؟
- قالت إنه رجل كان يبيع الحروب والعرقسوس فى القلعة . . وكان فى السجن وخرج منه . .
- لماذا دخل السجن ؟
- سمعهم يقولون إنه كان يتجر فى المخدرات . .
- هل كانت لك علاقة به ؟
- لا ولم أعرفه . . ولم تكن لى به أية علاقة . .
- هل كان يعرف زوجتك ؟
- طبعاً . . وكان يقطن معها فى حى واحد . . وبائع العرقسوس كالمسحراقى يعرف بيوت الحى بيتاً بيتاً . . وأشخاصه شخصاً شخصاً . .
- هل كان هذا الرجل يعرف أن زوجتك انتقلت معك إلى البدارى ؟
- كنت أعتقد أنه لا يعرف عنوانها . .
- لماذا ؟
- لأننى نهيت على زوجتى ألا تذكر عنوانها لأحد إطلاقاً . .
- لماذا نهيت عليها بذلك ؟
- لأننى كنت أريد أن أقطع علاقتها بالطفلة نهائياً . .

— ولماذا كنت تريد ذلك ؟

— لأنها ابنة دنس . . وأنا لا أريد أن أدنس نفسى . . .

— وما ذنب الطفلة ؟

— البذرة التى تنبت فى العفن . . تظل رائحتها عفنة ، حتى ولو أثمرت

الورد . .

فأعجبني هذا المثل يصدر من مثل هذا الرجل الرينى الساذج الذى

شعرت نحوه باحترام زائد وقلت له :

— إذا شاهدت صورة هذه السيدة فهل تستطيع أن تتعرف عليها ؟

— طبعاً . .

فقدمت له نفس المظروف الذى كنت قدمته إلى زوجته والذى يضم
عدة صور لنساء مختلفات من بينها صورة القتيلة . . وما إن فضه الرجل
وتفحص الصور حتى تعرف على صورة الحبنى عليها . . وقدمها إلى . .
وبذلك انتهت أقواله . . فاستدعيت زوجته نظيرة أحمد البسيونى وواجهتها
به . . ولما شاهدها الرجل ثار عليها ثورة عنيفة . . وكادت يده تمتد إليها . .
لولا أننى انتهزته ، ذلك لأنه اعتبرها المتسببة له فى القبض عليه . . والخرج
الذى هو فيه . . مع أنهما معاً لا دخل لهما فى الموضوع .

* * *

تمت عملية المواجهة . . ولم تأت بجديد فى التحقيق . . إذ أكد

كل منهما أقوال الآخر حرفياً . . وهى بطبعها متسمة بالصدق طوال

التحقيق . . ومؤكدة من غير هذه المواجهة . . ثم بقي بعد ذلك أن أواجه الفتاة بهما . . وشعرت بثقل هذه المهمة .

وأشفقت على الفتاة من الصدمة . . عندما تواجه بالشاهدين . . وتعرف أنها ابنة زنا . . وأن هذه — نظيرة أحمد البسيوني — التي ظلت كل هذه السنين توهمها بأنها أمها . . لم تكن أمها فعلاً . . وأن أمها الحقيقية . . لم يزل سرها في علم الغيب . . وإن كانت الشكوك جميعاً تؤكد بأن أمها هي المحبى عليها . . وأن والدها هو دسوقي . . وتمثل لعيني هول الصدمة ووقعها على الفتاة . . وفداحة الخطب الذي سينزل بها . . وتذكرت أولئك الذين يرتكبون هذا الخطأ . . ويتسببون في هذا الفعل . . وهل هم يقدرّون نتائجه . . ويستشعرون السوء الذي يخلفه . . والظلم الذي يوجده . . وهذا الظلام الذي يعيش فيه الأبرياء ؟ ! . . أو هم لا يشعرون . . أو هم أكثر شعوراً به من غيرهم . . وإحساساً بالظلام الذي يخلفونه . . لأن أيديهم هي التي تظني المصباح . . ومع ذلك يرتكبونه . . سألت نفسي هذه الأسئلة جميعاً . . وإذا بالجواب يجيئني سهلاً . . وهو كثرة الجرائم الخلقية التي حققت فيها . . أو التي عرضت على . . وقلت ألا ما أبشع الإنسان الذي يرتدى زى الحمل وهو أكثر ضراوة من وحش مفترس . . كما قال أبي ! . .

وكأن هذا الذي كنت أفكر فيه من إشفاق على الفتاة ووقع الصدمة على نفسها . . كان هو تماماً الذي تفكر فيه أيضاً المرأة . . الساذجة

الواقفة أمامى . . لأنها ما إن سمعتنى أطلب استدعاء الفتاة ، حتى ارتعشت شفتاها وراحت تتوسل إلى أن لا أذكر للفتاة شيئاً عن حقيقتها . . .
وكانت الفتاة قد حضرت ولاحظت عليها وهى تدخل أنها منطوفة الوجه . . ذابلة النظرة . . كأنها خارجة من كهف . . بعد عديد من السنين . . وما إن وقعت عينها على « أمها » الماثلة أمامى . . حتى تقدمت منها . . وقدمت لها يدها . . وصافحتها . . وهى تتمتم بصوت خفيض جداً . . وكأنها لا تريد أن يسمعها أحد :
— أهلاً بأى . .

فبككت المرأة وسالت دموعها . . فظننها الفتاة تبكى من أجلها . . فراحت تطمئنها . . وتؤكد لها بأنها بريئة . . وأن علاقتها بالجنى عليها لم تكن أكثر من صداقة . . وأنها كما قالت فى التحقيق لم ترها . . من قبل الحادث بعشرين يوماً . . فازداد بكاء المرأة . . وتعالى نحيبها . . وكأنما ظننها الفتاة تبكى لما تلاقيه هى من سجن . . فراحت تطمئنها من هذه الناحية وتذكر لها عطفي عليها ورعايتى لها فى السجن . . والطعام الذى أمرت بتقديمه إليها . . وكانت تشير إلى . . وتذكر لها هذه المآثر . . بنبرات رقيقة . . شفافه . . وباكية فى الوقت نفسه . . مما جعلنى أزداد إشفاقاً عليها . . وأحاول اختصار سؤالها ثانية بقدر الإمكان . . وأنهى هذا الموقف سريعاً . . هذا الموقف القاسى الذى شاء القدر للفتاة أن تقفه . . ولذلك قلت لها . . وبلا مقدمات . . وأنا آذن لها أن تجلس . . لأنها

كانت متعبة جداً . . . وغير قادرة على الوقوف :
— هل تعرفين هذا الرجل . . . فضالى أحمد عبد الموجود ؟
وأشرت إلى الزوج الواقف . . . فقالت وهى تنظر إليه فى دهشة :
— لا . . . لم أعرفه . . . ولم أره فى حياتى غير الآن . . .
— إنه زوج نظيرة أحمد البسيونى . . .
فندت عن الفتاة أنه حبيسة . . . وقالت وهى تعاود النظر إليه فى دهشة
كبيرة :

— زوج أمى ؟ !
— إنه زوجها . . .
فانخفض صوتها . . . وقالت وهى ما تزال تنظر إليه :
— لا . . . لم أعرفه . . .
فقلت للرجل الذى كان يتأملها من رأسها إلى أخمص قدمها :
— وأنت هل تعرفها ؟
— لا . . . وهذه أول مرة تراها عيني . . .
— قلت فى التحقيق إنك شاهدها قبل ذلك ؟
— فى السينما . . . وهى عريانة ترقص فى الفيلم . . .
فنكست الفتاة رأسها وانخفضت نظراتها إلى الأرض . . . وواصلت
أنا سؤالى للرجل :
— هل هذه هى التى شاهدها ترقص فى الفيلم ؟

— نعم هي . .
— هل أنت متأكد ؟
— طبعاً . .

فقلت للفتاة وأنا أشير إلى نظيرة أحمد البسيوني الواقفة بجوارها :
— هل تعرفين نظيرة أحمد البسيوني ؟
— إنها أمي . .

نطقتهما الفتاة في إيمان لا حد له . . وأيضاً في سداجة متناهية . .
فقلت لها وأنا أمسك أنفاسي . . إشفافاً عليها :
— قالت نظيرة أحمد البسيوني . . بأنها ليست أمك . . ولست أنت
ابنتها . . وأنه لم يكن لها أولاد . . وأنها لم تنجب في حياتها . . وكل ما في
الأمر أنها كانت تتبناك فقط .

وأغمضت الفتاة عينيها فجأة . . شأن من يفاجأ بنور باهر يصدم
عينيه أو يغرق في ظلام دامس فيمسك أنفاسه . . وقالت وهي تتفرد
في وجوهنا نحن الثلاثة .. بعينين راح جحوظهما الخفيف يزداد شيئاً فشيئاً :
— ماذا تقول ؟

— تقول إنها ليست أمك . . وإنك لست ابنتها . .
ففقرزت الفتاة عن المقعد وأمسكت بكتف المرأة الواقفة أمامها . .
وأعادت عليها السؤال في ذهول :
— ماذا تقولين ؟

١٠٣

ولما لم تنطق المرأة . . أوحى تطرف . . صرخت الفتاة في وجهها
صرخة مدوية . . وقالت وهي تهزها في عنف من كتفها . . حتى لتكاد
تسقطها على الأرض :

— أنطقي . .

—

— تكلمي . . .

—

— قولي . . .

فازداد نحيب المرأة . . وقالت وهي تنالم فعلا . . وتغرق في الدموع :
— لماذا أقول ؟

فصرخت الفتاة في وجهها :

— قولي لماذا تتنكرين لي . . ألا أنى راقصة . . تتبرئين منى . .

— قلت إنك طاهرة وعفيفة ومدينة . . وتتصدقين على الفقراء . .

وتعرفين ربك جيداً . .

— لماذا إذن قلت إننى لست ابنتك ؟

— لأنها الحقيقة . .

فازدادت عيناها جحوظاً . . وعلت وجهها غيرة . . لم أشهدا من

قبل على وجه بشر . . وقالت وهي ترتعش :

— الحقيقة أنك لست أمى ؟ !

— نعم . .
 — ومن هي أمي إذن ؟ !
 — يعلمها الله . .
 — ومن أين جئت بي أنت ؟ !
 — وجدت لك قطعة من اللحم . . ملقاة في الطريق . . فأشفقت عليك
 وتبينت لك خمس سنوات . .
 — إذن أنا . .

نظقت الفتاة هذا في دعر . . وكأنها خافت أن تكمل . . فزمت
 شفيتها . . ولم تتم . . ومن ثم انهارت قواها . . فسقطت على المقعد
 الذي كان أمامها ثن وتوجع . . وكل شيء فيها يحترق في صمت . . حتى
 زفرتها التي كانت تخرج كالألسنة النار . . وكأنها تخرج من بركان
 ينفجر — كانت ما تكاد تبلغ شفيتها حتى تتحول إلى ما يشبه سحائب
 من الدخان مما أثار إشفاقنا جميعاً . . حتى هذا الرجل الزوج الذي كان
 وجهه كالخجر الصلب . . رق وشف . . وانقلب إلى وجه طفل تغشاه
 الدموع . .

وظلت الفتاة كذلك حيناً . . إلى أن استعادت بعض قواها . .
 ففتحت عينيها . . وكأنها تفتحهما على حلم مزعج . . ولما رأتني أمامها . .
 ورأت محضر التحقيق لا يزال مفتوحاً أمامي . . ورأت أحد الجنود مدججاً
 بالسلاح . . وما زال يقف في مكانه بجانب الباب . . تذكرت أنها سجينه

١٠٥

وأنه يحقق معها وأنها غير قادرة على النطق . . ولهذا نكست رأسها تقول
في توسل كبير . . وهى ما زالت تنن وتتوجع :

— هل تأذن لى أن أنصرف ؟

— إلى أين ؟

— إلى غرفتى فى السجن . .

— لماذا ؟

— لأننى غير قادرة حتى على النطق . .

ولما رأيته متخاذلة فعلا إلى حد كبير . . قلت :

— هل أنت مريضة ؟

— إلى حد . .

— هل تحتاجين إلى طبيب ؟

— أشكرك . .

ورأيت أن أى سؤال يوجه إلى أحد من الثلاثة بعد ذلك لن يأتى
بجديد . . أو يضفى على هذه الظلمة التى ما زالت تكتنف الجريمة شيئاً
يفيد . . ولذلك أنهيت التحقيق فى هذه الليلة عند هذا الحد . . وأمرت
بإعادة الثلاثة إلى السجن . . كما طلبت إلى المسؤولين فى السجن وضع
الفتاة تحت المراقبة نظراً لسوء حالتها الصحية والنفسية . . وانصرفت فى
تلك الليلة والفتاة تشغل تفكيرى، وصورتها وهى تنن وتتوجع وتحترق
— كحزمة هشة من القش — تشتعل فيها النار — تروح وتجىء فى خاطرى..

٧

لقد قدر لى بحكم مهنتى . . أن أشاهد أحداثاً جمة . . وأرى فواجع كثيرة . . رأيت الإنسان الذى يزدري الحياة فى شخصه . . ويهون عليه لدرجة الانتحار . . ورأيت وهو يموت . . سواء من يميته الندم . . أو من يميته السلاح الذى قتل نفسه به . . رأيت ذلك الإنسان ورأيت تأوهاتة وصرخاته . . ورأيت الإنسان الذى يلتف جبل المشنقة حول عنقه . . وأحسنت بمشاعره والحياة الغالية ترقص عارية أمام عينيه فى هذه اللحظات . . مبرزة له بهجتها ومفاتها . . لتزيده حسرة على فراقها فى لحظات الوداع الحاطفة ، ورأيت الإنسان عندما يسفك شرفه . . ولا يجد وسيلة للدود عنه . . فيسفك هو دماء نفسه . . وكيف أن كل نقطة من هذه الدماء كانت تحرق وجهه . . وتنطبع عليه نقاطاً من نار وهى تخفى خلفها دم ذلك الشرف المسفوك . . ورأيت الأم التى تفجع فى ابنها . . والابن الذى يفجع فى أبيه . . والأب الذى يفجع فى فلذات كبده فلذة لئثر فلذة . . رأيت هذه النار وحرقتها . . وهذه الدماء وبشاعتها . . وكل هذه الآلام ومرارتها . . ولكنى لم أر أبداً مثل هذه النار التى تحرق الإنسان عندما يفترق أصله . . عندما يفترق نفسه كل إنسان . . عندما يعرف أنه جاء عن الطريق الذى

تجىء منه أخط الحيوانات .. عندما يعجز حتى عن معرفة الإناء القذر والكلب الذى ولغ فيه .. عندما يعرف أنه هو نفسه هذه النجاسة التى نضع بها الإناء .. وأن هذه النجاسة لن تلتصق به أو تلاحقه .. وإنما هو الذى سيلاحق بها الناس .. لأنه هو أصلها .. لأنه هو ثمرتها .

ورأيتنى دون قصد أو تفكير أفكر فى هذا كله .. وفى هذه القضية التى أمارى .. والتى قبل أن أصل فيها إلى النجاح أو الإخفاق .. فى وضع يدي على الجاني .. وضعت يدي على مجنئ عليه آخر ليس من فارق بينهما إلا أن المجنئ عليها الأولى قتلت ولفظت أنفاسها .. وماتت .. وشيعت إلى مقرها الأخير ، أما المجنئ عليها الثانية فقد قتلت أيضاً .. ولكنها لم تمت .. وإنما هى تموت .. وستظل تموت .. وستظل تلفظ أنفاسها ولن يغيثها الموت .. ولن يغيثها أيضاً الشفاء منه .. بل ستظل عمرها تموت ..

ومن ثم رحلت أفكر فى الجريميتين .. وفى القتلتين .. تلك التى شيعت إلى قبرها الضيق فى الأرض .. وهذه التى شيعت إلى قبرها الواسع فى الدنيا .. وأيهما أسعد حالا بالسلاح الذى قتل به .. الرصاصات الثلاث التى هتكت فروة الرأس .. وحطمت الجمجمة .. ونفذت إلى الرأس .. وأحدثت الوفاة فى الحال .. أم النزوة الطائشة التى حطمت الكيان .. وطعنت القلب .. وسلبت الفؤاد .. وهزأت الصدر .. وأدمت الضمير .. وقتلت الروح ؟ ! ..

وتعجبت من هذه التفرقة حتى في الموت . . ولا أدري لماذا عطفت
على الفتاة من قلبي . . ولا لماذا شعرت نحوها بهذه العاطفة التي لم أستشعرها
من قبل حتى حيال أقرب الناس إلى . . وقد ازداد هذا الشعور عندما
ذهبت إلى بيتي . . وخلوت في غرفتي إلى دوسيه هذه القضية . . ورحت
أسترجع ما جاء في التحقيق مرة أخرى . . وأراجع أقوال الفتاة بصفة
خاصة . . وما قالته عنها الشاهدة نظيرة أحمد البسيوني . . وزوجها فضالي .
كما راجعت مرة ثالثة . . أو رابعة أقوال دسوقي بالذات . . وأحسست حيال
هذا الرجل الذي كنت أحبه بشيء غريب . . لعله أقرب إلى البغض
والتخوف منه إلى أي شيء آخر . . فقد استطاع هذا الرجل بدكائه
الفطري . . ودهائه الكبير . . أن يغير حتى معالم وجهه . . ويجعلني أنا
الذي ثمرست كل هذه السنين في تفهم نفسيات البشر وسبر أغوار ما في
نفوسهم . . أن أعتقد اعتقاداً . . لا يتطرق إليه الشك في سلامة طويته . .
وصدق أقواله . . وبعده - البعد كله - عن هذه الجريمة ، أو أن له
أية صلة بها . . من قريب . . أو من بعيد . . وأحسست ببغضى له
يتزايد . . ووددت لو أني فتحت عيني فرأيت أمامي . . إذن لأنشبت
أظافري في عنقه . . ولن أتركه . . حتى يفصح عن الحقيقة كاملة . .
هذه الحقيقة التي يحفظها جيداً . . وهو الوحيد الذي يحمل سرها في قلبه . .
ويعرف من الجاني . . وبدأت أشعر بسوء تصرفي لأنني لم أقبض
عليه فوراً . . ولأنني كان أول شيء فعلته عندما ذهبت إلى مكنتي في

الصباح أن اتصلت أولاً بإدارة السجن الذى تنزل فيه الفتاة واستفسرت عن حالتها . . فعلمت أنها ظلت طوال الليل تعاني حالة نفسية حادة . . وكانت تنتابها من حين إلى آخر حالات من الهستيرية تجعلها تصرخ وتبكي حتى يغمى عليها . . مما استدعى وجود مراقبة لها فى غرفتها . . وفى الصباح عادها طبيب السجن . . فحقنها بالمخدر . . فنامت . . وما زالت مستغرقة فى النوم .

كما أرسلت إشارة عاجلة إلى نيابة الغربية طلبت فيها سرعة القبض على دسوقى على حسنين السابق سؤاله فى مقتل مخدومه زينب عبد العال الشوباشى . . وأن يرحل فوراً وفى اليوم نفسه تحت الحراسة الشديدة إلى القاهرة . . ثم أنجزت بعض الأعمال فى عدة قضايا أخرى . . قبل أن أذهب إلى الدائرة السابعة الجنائية . . لأترافع فى إحدى القضايا الهامة . . التى وفقت فى المرافعة فيها مما جعل المتهم الأول والثالث والثامن يؤخذون بأقصى العقوبة . . وقد سرنى هذا كثيراً . . وابتهجت له . . إذ ليس أحب إلى المحقق الذى يعرف واجبه . . وله ضمير يحاسبه . . من أن يأخذ الحق مجراه . . فتمسك العدالة بتلابيب المجرم . . وتحاسبه أقصى الحساب .

* * *

كانت الساعة قد بلغت الثالثة بعد الظهر . . فذهبت إلى بيتى سريعاً لأحضر الوليمة الضخمة التى أعدها أبى فى القصر لجماعة من الناجحين الذين يعتمد عليهم فى نجاحه فى هذه المعركة الطاحنة التى يخوضها . .

وكان قد أصر على أن أحضر . . وقد شعرت بشيء كثير من الفخر عندما ذهبت إلى البيت وجدت أبهاء القصر تغص بعلية القوم من الساسة والعظماء وبعض الوزراء وبعض رجال القصر الملكي الذين كان أبى على صلة وطيدة بهم في ذلك الحين . . وازددت فخراً عندما استقبلت من الكثيرين منهم بالحفاوة البالغة . . إذ راح أكثرهم - ولا سيما من المسؤولين في ذلك الوقت - يشيدون وينشطون وبمركزى المرموق في عالم القضاء . . وبعض القضايا السياسية الهامة التي حققت فيها . . وكان لي فضل اكتشاف اللجنة فيها . . مما جعل أبى وهو يجلس معنا على المائدة يشعر بالكثير من الزهو . . وظللنا في مثل هذه الأحاديث وغيرها من أحاديث الانتخابات . . وسير المعركة فيها . . وكلما استشعرت من هذه الأحاديث أن النجاح هو حليف أبى . . ازدادت فخراً وابتهاجاً . . وأقبلت على طعاعى بشهوة بالغة . . غير أنني وقبل أن أنتهى من طعاعى . . وكانت الساعة - على وجه التقريب - قد بلغت الرابعة مساء . . استدعيت إلى محادثة تليفونية عاجلة . . ولما ذهبت وجدت المتحدث أنيس أفندى باشكاتب نيابة جنوب القاهرة . . وإذا به يدلى لي بنبأ غريب . . اندهشت له دهشة كبيرة . . وفوجئت به مفاجأة مذهلة . . وهو أنه قد وردت إشارة عاجلة الآن من نيابة الغربية تفيد بأن دسوقى على حسنين - المطلوب القبض عليه وترحيله إلى القاهرة لسؤاله في القضية رقم ١١٠٧ جنابات القاهرة الخاصة بمقتل المحبى عليها زينب عبدالعال الشوباشى - قد وحد ظهر اليوم مقتولا في حقل الأذرة التابع لزمام

ضبيعة المحنى عليها . . إذ أطلق عليه الجناة اثنتى عشرة رصاصة . . مزق
جسده . . وأردته قتيلا فى الحال . . وأنه لا أثر للجناة . . أو معرفة أسباب
الجريمة . . وأن التحقيق لا يزال جارياً

و بالرغم من أن هذه المفاجآت . . لم تكن غريبة . . على رجل التحقيق
الذى تعود أن يرى فى بعض الجرائم الكثير من العجب . . إلا أن وقع
الخبر على نفسى كان ثقيلا . . وشعرت بالصدمة تكاد تهزى ولا سيما
عندما تأكدت بأن جميع خيوط الأمل التى كانت تلوح لعينى فى القضية . .
قد اجشتت من جذورها . . بمقتل دسوقى . . وأحسست بتأنيب الضمير . .
وبالخطأ الجسيم الذى ارتكبته . . إذ تربثت فى القبض عليه . . ولو كنت قد
فعلت هذا بمجرد أن ورد ذكر اسمه على لسان الفتاة فى أول التحقيق . . أو
حتى بعد أن ذكرت ما ذكرت الشاهدة الثانية نظيرة أحمد البسيونى . .
لما كان قد حدث من هذا شيء . . ولما كان الرجل قد قتل . . ولما أقلت
من يدي الجاني فى هذه القضية كما أقلت منها الآن إلى الأبد

وعدت إلى مقعدى من المائدة وأنا فى حالة اضطراب شديد . .
مما جعل والذى يلاحظ على ذلك . . ويسألنى أكثر من مرة . . ولم أستطع
أن أجيبه . . إلى أن انتهى المدعون من تناول الطعام وتناثروا حول الموائد
الأخرى فى الحديقة . . وأهباء القصر وشرافته . . يشربون القهوة ويدخنون
السجائر . . عند ذلك انتحى بى أبى ركناً . . وما إن ذكرت له نبأ مقتل
دسوقى . . وكيف أن الجناة مزقوا جسده باثنتى عشرة رصاصة . . وكيف

عثر عليه جثة هامدة في حقل الأذرة . . وكيف فر الجناة دون أن يتركوا أثراً لجريمتهم . . حتى ذعر أوى ذعراً شديداً . . وارتدت سحنته إلى حد نحيف . . وراح يضرب كفّاً على كف . . ولأول مرة أشعر بالغلظة في صوته وهو يخاطبني . . ويؤنبني في شيء من التقرير . . لأنني قصرت في واجبي ولم أقبض عليه من أول الأمر كما قال لي . . وقد وافقته على كل حرف قاله . . حتى في عبارات التقرير التي وجهها لي . . وانصرفت إلى مكنتي فوراً . وأثبت هذه الإشارة التي وردت لي من نيابة الغربية عن مقتل دسوقي رسمياً في محضر التحقيق، وقررت السفر في الحال إلى طنطا ، ومنها إلى المكان الذي وقعت فيه الجريمة لأنضم إلى المحقق هناك . وأطلع على سير التحقيق . . وهناك وجدت شيئاً غريباً اندهشت له . . وعقد الأمور تعقيداً غريباً وأضفى على التخمينات والتقديرات والافتراضات جميعها ظلاماً دامساً . . فقد وجدت أن التحقيق قد أوشك على الانتهاء . . ولما يمض عيه ساعات . . أو تتجاوز صفحات التحقيق في هذه الجناية بضع صفحات . . فالجاني مجهول . . ولم يترك أثراً ولا حتى شبه أثر يمكن للمحقق أن يمسك به . . كما أن أهل المحنى عليه لم يهتموا أحداً . . بل إن شبهاتهم لم تحم من قريب أو بعيد حول أحد . . وبسؤال جميع الأهل والمعارف وأصدقاء المحنى عليه، وحتى غير أصدقائه . . لم يشر أحد إلى شيء أو حتى شبه شيء بين المحنى عليه وبين أحد . . بل أجمع الكل على أنه كان محبوباً من الجميع . وكان آخر شيء يفكرون فيه هو أن

يموت هذا الرجل هذه الميتة الشنعاء . .

وجلس مع زميلي وكيل النيابة المحقق في القضية نتذاكر الأمور جيداً ونجمع بين طرفي الجريمتين والأسباب الدافعة إلى تلك وهذه . . والأسباب التي جعلت المحنى عليه ينكر في التحقيقات السابقة صلبته بالفتاة . . ورؤيته لها تتردد على المحنى عليها . . كما أنكر صلبته بأحد غيرها . . مع أن الثابت من التحقيق عكس ذلك . . إذ اعترف الشهود الثلاثة . . الراقصة زينبات شوق . . والزوجة نظيرة أحمد البسيوني . . والزوج فضالى أحمد عبد الموجود . . اعترف الثلاثة بصلتهم الوثيقة بدسوقي . . وخرجنا من ذلك كله بأن يبدأ في الخفاء هي التي لعبت هذا الدور الخطير في الجريمتين ، وأن هناك صلة من غير شك بين هاتين الجريمتين . . ولكن يدُ من هي هذه اليد ؟ . . وما هي هذه الصلة ؟ . . كان هذا هو بيت القصيد : وكان هذا هو المحير فعلاً .

وفي طريق عودتي إلى القاهرة . . وبعد أن تحقق الإخفاق في العثور على الجناة . . وأصبح مؤكداً أن جديداً لن يطرأ على هذه الظروف الغامضة التي قتل فيها دسوقي . . ازدحمت رأسي بأفكار كثيرة وتكهانات عدة . . وحاولت أن أربط بين الجريمتين والظروف الغامضة التي حدثت فيهما . . والأسباب والدوافع التي أدت إلى قتل دسوقي بالذات . . وعلاقة دسوقي بالمحنى عليها . . زينب عبد العال الشوباشي . . وهل هذه الجريمة التي ذهب ضحيتها دسوقي لا علاقة لها بالجريمة التي ذهبت ضحيتها

زينب . . أو أن هذه امتداد لتلك . . وأن الأسباب التي أدت إلى قتل
المجنى عليها هي نفسها الأسباب التي أدت إلى قتل دسوقي ؟
هذا هو المرجح حتى الآن . . والأقرب إلى المنطق . . ولكن ما هي
الأسباب . . والبواعث عليها . . والدوافع إليها . . وهل اليد التي ارتكبت
الجريمة الأولى . . وقتلت زينب عبد العال الشوباشي هي نفسها اليد التي
ارتكبت الجريمة الثانية وقتلت دسوقي على حسنين ؟ !

لقد كان من الممكن ترجيح ذلك أو على الأقل الميل إليه . . لو أن
المجنى عليها مثلاً . . أحد الأهل . . أو الأقرباء . . ولو حتى من
بعيد . . علم بالعلاقة الآئمة التي كانت بين المجنى عليها وبين دسوقي . .
وأراد أن يذود عن عرضه . . فقتل الاثنين . . ولكن الثابت من التحقيق
أن لا أحد إطلاقاً من الأهل أو الأقارب لها . . وإذا افترضنا مثلاً وجود
هذا الشخص . . وسلمنا جدلاً . . بأن التحقيق عجز عن معرفته . .
أو حتى الظن بوجوده . . فأين كان هذا الشخص . . طيلة هذه السنين
التي تزيد على العشرين وتتجاوزها ؟ . . وفي أى كهف كان ينام شرفه
هذا . . الذي استيقظ فجأة وهب للذود عنه بهذه الوحشية التي لا تعرف
حدوداً في الإجرام وسفك الدماء وإزهاق أرواح البشر ؟ !

أو أن الأسباب تختلف عن هذا كلية . . وأن الدوافع لارتكاب
الجريمة الأولى هي نفس الدوافع لارتكاب الجريمة الثانية . . وهي الغيرة
على الإثم . . والحرص على التماذى فيه والرغبة في استمرار سفك هذه

الحرمات التي ظلت تنهك وتسفك دماؤها . . ما يزيد على العشرين سنة . . وهذا هو الأقرب إلى العقل وإلى المنطق وإلى الحقائق الكثيرة التي كشف عنها التحقيق . . فقد ثبت من أقوال الشهود الثلاثة . . ولا سيما شهادة الزوجة نظيرة أحمد البسيوني وزوجها فضالى أحمد عبد الموجود . . ومن الوقائع والأسانيد المدعمة بمنطق الحوادث وتسلسلها وتواريتها . . ثبت أن المهمة الأولى وهي الفتاة زينبات شوقى هي ابنة الحبنى عليها زينب عبد العال الشوباشى . . وأن الحبنى عليها هي أمها فعلاً . . وأن هذا لا سبيل إلى الشك فيه . . وأن الدلائل عليه واضحة ومتوفرة وتنطق بها الحوادث جميعاً . .

مراقبة الحبنى عليها للطفلة بعد أن أُلقيت في الطريق . . تتبعها للشاهدة الثانية نظيرة أحمد البسيوني . . ومعرفتها لبيتها . . وذهابها إليها في صباح اليوم الثانى . . وبكاؤها . . واضطرابها . . والحالة النفسية التي كانت عليها وهي تقبل الطفلة وتحنو عليها . . وتوصى بها المرأة خيراً . . لإنفاقها على الفتاة بصفة دائمة . . وجعل مرتب دائم ثابت للمرأة التي تبنت الطفلة . . خشيتها من افتضاح أمرها إذا كثرت زياراتها على البيت الذي تعيش فيه الطفلة . . وانقطاعها عن الذهاب إليها . . وهذا يثبت كذب قولها . . بأنها قريبة لأم الطفلة كما جاء على لسان الشاهدة الثانية . . إنابة دسوقى عنها في الاطمئنان على الفتاة وتوصيل المبلغ إليها في كل شهر . . ثم افتقادها للطفلة بعد أن تركها الشاهدة الثانية..... وسافرت مع زوجها إلى الصعيد ..

وما بذلته الخجى عليها من جهد فى سبيل البحث عنها طيلة تلك السنين . .
 بدليل تعرفها على بائع العرقسوس بعد خروجه من السجن . . وما إن
 هداها إلى عنوان نظيرة أحمد البسيوفى فى الصعيد حتى ذهبت إليها فى
 البدارى . . وتعرفت منها على عنوان الفتاة . . وفرحتها البالغة عندما عثرت
 على عنوانها . . ومبلغ الحمسة جنيهاً الذى أعطته لنظيرة . . لأنها ذكرت
 لها العنوان . . ثم طريقة تعرفها على الفتاة فى القاهرة وذهابها إليها فى
 الصلاة . . أو الكباريه . . وهى كما جاء على ألسنة الشهود جميعاً . .
 سيدة وقورة وليست ممن يؤمنون هذه الأماكن . . ثم استأملت الفتاة إليها،
 وتوطيد صداقتها بها وجعلها تتردد عليها فى بيتها كل يوم وكل ليلة . .
 ثم أحزانها التى لا حد لها - كما هو وارد فى أقوال الفتاة - من أنها تعمل
 راقصة . . ومحاولة إقناعها بترك هذه المهنة بأى ثمن . . ثم - وهذا هو
 المهم - استعداد الخجى عليها لأن تهب الفتاة كل ما تملك من ثروة . .
 إن هذه كلها أشياء واضحة الدلالة . . ثم يجرى بعد ذلك دور دسوقي
 فى الموضوع . . والدور الخطير الذى لعبه وإنكاره إنكاراً باتناً لهذا الدور . .
 وهذا الإنكار له دلالة . . وهو أنه يعرف من غير شك هذا السر ،
 وهو أن الفتاة هى ابنة الخجى عليها . . وأنها ولدتها سفاحاً . . وأنها ألفت
 بها فى الطريق . . إلى آخر هذه السنوات الخمس التى ظل هو يتردد فيها
 على الفتاة . . والمرأة التى تبنتها . . وذهابه بانتظام ليعطيها المبلغ المتفق
 عليه . . ومعنى هذا أن دسوقي يعلم كل شيء عن حقيقة أخلاق الخجى

عليها، بل هو الوحيد الذى كان يعلم هذه الحقيقة . والدليل على ذلك أقوال الشهود الثلاثة . . الفتاة والزوجة والزوج . . هذه الأقوال المتفقة فى جميع الوقائع . . والتي لم تتناقض فى واقعة واحدة . . وأنه يعلم هذا ويظل طوله هذه السنين على هذه العلاقة الوطيدة بالمجنى عليها . . فعنى ذلك أنه هو نفسه الذى كان على علاقة بها - حتى بغض النظر عما جاء فى التحقيق من شبهات كثيرة تؤكد أنه هو والد الفتاة غير الشرعى - واستمرار هذه العلاقة وتوطيدها إلى هذا الحد له دلالة أخرى لا تكاد تقبل الشك . . وهى أن دسوق كان يحب المجنى عليها . . ويتخذ منها عشيقاً له . . وأنها هى أيضاً تحبه وتتخذ منه عشيقاً لها . . وليس لها عشيق غيره . . وظل يعتقد هذا ويؤمن به إلى أن تبين خطأ هذا الاعتقاد واكتشف أن للمجنى عليها عشيقاً غيره وهو الرجل الذى ضبطته الفتاة يتسلل من مخدع المجنى عليها فى الليل . . ولا بد - بل من المقطوع به - أنه كان لهذا العشيق الحديد مميزات كثيرة . . جعلت المجنى عليها تفضله على دسوق . . فهو من أبناء الحضر ووجيه . . وطويل القامة عريضها . . وأنيق الملبس . . مما يدل على أنه من أبناء الثراء . . كما جاء على لسان الفتاة التى رآته رؤية العين . . وبديهي أن دسوق - وهو الرقيق المعدم ، الرث الثياب أو المهملها على الأقل . . والذى لم يزد فى نظر التى يحبها على أنه خادم عندها . . بديهي أنه لم يقدر على منازلة هذا العشيق الحديد . . أو حتى التفكير فى محاربتة . . وعز عليه ذلك . . عز عليه أن يرضى

بالهزيمة . . وأن تفضل عليه هذه المرأة . . عشيقة غيره . . بعد كل هذه
السنين التي قضاها معها . . فلم يجد بدءاً من ارتكاب جريمته . . ولكنه
ارتكبها من سوء حظه في الوقت الذي كان فيه العشيقة الجديد قد توطدت
علاقته بالمجنبي عايبها . . مما جعله ينتقم لنفسه ولها . . بقتل دسوقي . . وهكذا
تأكل النار بعضها دائماً .

فكرت في هذا كله . . وحلته على ضوء منطق الحوادث المدعمة
بالأسانيد التي جاءت على لسان الشهود الثلاثة . . ولما اقتنعت به . .
أحسست بضيق لا حد له . . فقد وقف في الطريق في هذه القضية عند
هذا الحد . . بعد أن نхим الظلام عليها إلى الأبد بعد قتل دسوقي وموته
وموت السر معه . .

٨

شعرت بهذا الضيق يزداد عندما ذهبت إلى مكتبي في صباح اليوم
التالي ووجدتني مضطراً وعلى الرغم مني وبعد كل هذا الجهد الذي بذلته ..
إلى أن تخط يدى هذه الكلمات التي أكرهها جداً والتي تشبه سلسلة من
الشعابين الضريرة . . تسبح فوق الأوراق: « يحفظ التحقيق وتقييد الجناية
ضد مجهول » . .

وقد فعلت ذلك مضطراً وأخليت سبيل الشهود الثلاثة . . وكانت الفتاة
قد تماثلت للشفاء بعض الشيء . . ولا أخلى سبيلها طلبت مقابلي . .
ولما أذنت لها وجاءت .. رأيتها أكثر شحوباً ووجهها أشد اصفراراً، ومع
أنها جميلة جمالا رائعاً . . إلا أن هذا الجمال اكتنفته فجأة مسحة من
القيح أشبه ما تكون تماماً بتلك المسحة من العار التي تقف حائلا بين
عينيك وبين الجمال الرائع الذي طمست رواءه الأيدي التي استباحته . .
والعيون التي عشت به . . . والفراش الملوث التي تقلب عليه . . ولأنني
أعلم تماماً أنها ليست كذلك . . اندهشت كثيراً وتعجبت لهذه النفوس
الشفافة التي ترميها الخطيئة بحجر . . وكيف تكون آلام هذه النفوس . .
عندما تصيبها الضربة في الصميم . . وكيف تتحول هذه الآلام من كثرة

أوجاعها وحرقة جراحها ولوعة التفكير فيها . . إلى مثل هذه الظلال القاتمة .
التي تتجمع خيوطها السوداء فوق وجه الضحية فتطمس معالم الطهر والبراءة
فيه . . وتحوله إلى صورة واضحة للإثم والعار ومهانة النفس . .
ونظرت إلى الفتاة مرة أخرى ورأيت عينها الواسعتين الكبيرتين . .
ونظرات الدلة والانكسار التي تروح وتجيء فيهما خابية شاحبة . . تتأرجح
كذبالة السراج الذي ينضب زيتة . . ويكاد يلفظ أنفاسه . . فأشفقت
عليها وأحسست وأنا أستقبلها في مكثي كأنني أستقبل قطعة مني . .
وأذنت لها بالجلوس وطلبت لها كوباً من الشراب المثلج . . وأحسست من
صمتها ونظراتها الساهمة التي تلتقي بها إلى الأرض دائماً . . وارتعاش شفيتها
بين الحين والحين . . أنها إنما تريد أن تقول شيئاً . . متحرجة من قوله . .
فشجعته لكي تقول كل ما تريد . . دون أن تفطن إلى مقصدي . . وقلت
لها إنها لم تجلس أمامي الآن هذه الجلسة كتهمة أمام محقق . . كما كانت
جلساتها السابقة أمامي . . وإنما هي تجلس أمام إنسان يحترمها ويقدرها . .
ويقدر ظروفها القاسية . . هذه الظروف التي لا دخل لها فيها . . والتي
كانت هي ضحية لها . . وأن هذه الظروف يجب أن لا تؤثر فيها مثل هذا
التأثير الذي يكاد يقضي عليها . . وهي ظروف حدثت كثيراً لغيرها . .
وتحدث كثيراً . . وما دام أن هناك شراً . . وهناك خطيئة . . وهناك
ظلاماً . . يعيش فيه بعض الناس . . فلا بد من وجود ضحايا . .
وقد أثر فيها هذا القول . . ورفع من معنوياتها . . وجعل بعض النور

بتمشى فى تلك الذبالة التى كانت توشك أن تنطفىء . . وعاد إلى نظراتها بعض الاستقرار . . كما عاد إلى وجهها بعض الهدوء . . وقالت فى صوت خفيض . . وهى ما زالت تنظر إلى الأرض بعينيهما المخضلتين بالدموع :

— إننى لا أعرف كيف أشكرك . .

— إن الشكر الذى أريده منك هو أن تعتبرينى بالنسبة إليك الشخص الذى يهيم أمره . . وأن تقولى لى دائماً كل ما يحول بخاطرك . .

قلت لها هذا . . وأنا أقصد شيئاً بعيداً . . لم تفتن إليه . . وحتى أنا لم أكن قد فطنت إليه . . إلا بعد أن طلبت الفتاة مقابلتى . . وهو أن أحل هذه الفتاة تطمئن إلى ، وإلى صداقتى ، حتى لو تطلب منى ذلك أن ألتقى بها كثيراً . . وحتى لو كان هذا كما أعرف يخالف العرف والتقاليد المرعية . . انفراد محقق ومتهمة أو شاهدة فى قضية من القضايا سواء أزالنا هذه الصفة . . أم ظلت باقية . . غير أننى كنت أعتقد أن هذا هو السبيل الوحيد الذى عن طريقه ربما أتعرف من الفتاة على شخصية ذلك العشيق الثانى للمجنى عليها . . والذى قتل دسوق . . والذى سنوصلنا معرفة شخصه . . إلى معرفة الحقيقة كلها . .

حقيقة إن الفتاة لم تعرف شخصيته حتى الآن . . وهى لم تخف شيئاً حاولت إنكاره فى التحقيق . . ولكنى أعلم بحكم تجاربى الكثيرة وكثرة ما شاهدت من القضايا . . ووقف أمامى من المتهمين . . أن للإنسان . . كل إنسان . . حساسة سادسة تقف بجانبه . . فى لحظات الحرج . . هى التى تجعله

متيقظاً أم غير متيقظ .. وفق ما ترى فيه مصلحته . . وأن هذه الحاسة من الذكاء وقدرة التسلط على صاحبها بحيث تجعله يقول الكذب وهو يؤمن بأنه الصديق . . ويقول الصديق وهو يؤمن بأنه الكذب . . وتجعله يصف لك الشمس وبهجة نورها وقوة إشعاعها ومقياس حرارتها وصفاً دقيقاً مقنعاً . في حين أنه لم يكن قد رأى غير الظلام وحلكنه . . وسواده الذي كانت تتخبط فيه عيناه !

فإذا زالت لحظات التحرج . . زالت فيها يقظة هذه الحاسة . . وعاد الإنسان إلى طبيعته . . وإلى تذكراته . . التي كثيراً ما تكون صائبة . لهذا كانت مجاملي للفتاة زائدة . . ولهذا قلت لها في صديق حقيقي .. إنني أرجو أن تعتبرني بالنسبة إليها الشخص الذي يهمه أمرها . . وأن تقول لي دائماً . . كل ما يجول بخاطرها . . غير أنها لم تصدق هذا . . أو لعلها استكثرت على نفسها . . لأنها وقفت عند كلمة معينة قلتها لها . . وكأن ذكاءها اللامح — الذي شهدت لها به أثناء التحقيق — لم يصدقها أو يصدق أنني جاد فيها . . لأنها قالت وهي تتمتم في صوت خفيض جداً هذه المرة :

— تقول إنك تريدني أن أطلعك — دائماً — على كل ما يجول بخاطري . . فهل أنت ترحب بلقائي دائماً ؟
فلم أنطق . . لأنني أحسست بقلبي هو الذي يتحدث ويقول :
— إنني أرحب بذلك دائماً . . علم الله . .

١٢٣

- فقلت وقد انفجرت أساريها بعض الشيء وكأنها تريد أن تبسم :
 - إننى حقيقة أشكرك . .
 - أشكركى لأننى أرحب بلقائك ؟
 - أنت الوحيد فى هذا الوجود كله الذى أشكر له هذا الجميل . .
 - لماذا أنا بالذات ؟
 - لأنك الوحيد الذى عرفت من أنا . .
 وعاد وجهها إلى الاحمرار . . وعادت نظراتها فانطفأت ثانية وامتلأت
 حينها بالدموع ، وقالت وهى تبكى . . معبرة عما يحول بخاطرها حقيقة :
 - إننى خائفة . .
 - مم ؟ . .
 - أن يقتلنى الرجل الذى قتل أى . .
 وكان صنعى كـمحقق . . أصبحت طبيعة فى . . لأننى قلت :
 - وهل أصبحت مقتنعة فعلاً . . بأن المحبى عليها هى أمك حقيقة ؟
 - طبعاً . .
 - وعلى أى أساس بنيت هذا الاقتناع ؟
 - أحياناً كثيرة لا يستشعر الإنسان حرارة الشمس إلا بعد أن تغيب !
 وأعجبني منها هذا القول . . فنظرت إليها . . فإذا بها تبكى . .
 فتركها إلى أن استطردت وهى تجفف دموعها وتمسح على شفيتها المضطربتين :
 - عطفها الزائد . . الذى كنت أندesh له . . حنانها الذى بلغ

من شدة تأثيره في نفسي أننى أنكرته عليها . . وأسأت به الظن . . وقلت إنه نوع من الشباك تجيد صنعه بعض النساء، لتغطى به ما في نفوسهن من سوء . . واتقطع به الطريق على الفريسة . . وتوقعها في شباكها مهما كانت يقظة حذرة عليمه بأنواع الفخاخ جميعاً . . ثم تخرجها الشديد وارتباكها الزائد ، واضطرابها الذى لا حده . . يوم أن جاءت إلى في الصلاة . . وطلبت مقابلتي وقالت إنها تحبني وتقدر في . . وإنها إنما تجيء إلى هذا المكان من أجل فقط . . ومن أجل أن ترائي . . ونظراتها إلى "وهي تتحدث إلى" في أول مرة . . ونور الفرحه الذى كان يشع من عينيها . . ونبرات الحنان التي كانت ترن في صوتها . . وهي تتحدث إلى . . وتنفذ إلى قلبي ووجداني وتضفي على مشاعري إحساساً جميلاً بالحياة والدنيا والناس . . كنت لا أستشعر وجوده . . قبل أن تجيء هي إلى وتحدثني وأتحدث إليها . . ثم تلك الرغبة التي كانت تلح عليها إلحاحاً شديداً . . وتود تحقيقها بأى ثمن وهي أن تهني كل ثروتها وكل ما تملك . . فقط أترك مهنتي كراقصة . . وأعيش معها بصفة دائمة تم

واختنقت الفتاة . . بالدموع . . فلم تكمل . . واحتقن وجهها . . وراحت تبكي . . فلم أحاول أن أجعلها تكمل وتستطرد في هذه الذكريات المريرة . . بل تركتها تبكي كثيراً وتتألم كثيراً وتكتوى بحرقه الدموع ما تشاء . . إلى أن فنت هذا كله كيائها . . وراحت تلتقط أنفاسها التقاتلاً كالنار عندما تخبو جذوتها . . ويعلو الراح أنفاسها وتختنق . . ولا غدت

كذلك .. تتمتع هي من تلقاء نفسها واستطردت تلفظ نار تلك الذكرى
التي تحرقها ..

ثم تلك الكلمة التي لم أستشعر حقيقتها إلا بعد أن ماتت .. والتي
كانت تناديني بها دائماً .. ابنتي .. كلى يا ابنتي .. اشربي يا ابنتي ..
نامي يا ابنتي ..

وكنيت أستمتع إلى الفتاة وهي تنطق هذه الكلمات .. وتسترجع هذه
الذكريات .. وأتذكر قولها في أول الحديث : « أحياناً كثيرة لا يستشعر
الإنسان حرارة الشمس إلا بعد أن تغيب » وأتعجب من بعض الظروف
التي يورطنا فيها القدر .. بحيث يجعلنا أحياناً نرى الذهب حديداً ..
والماس زجاجاً .. والبحر العجاج سراباً أو يابسة .. ويجعل أحياناً أكثر
الناس إدراكاً لحاسة الإبصار والسمع أعماهم بصرأ .. وأغشاهم نظراً ..
وأغلقهم عيناً وسمعاً وإحساساً ..

ونظرت إلى الفتاة مرة أخرى وأردت أن أقول لها شيئاً آخر .. وأن
أستطرد معها في أحاديث أخرى كثيرة .. ولكنني تذكرت شيئاً هاماً
قالته لي وكدت أنساه في غمرة هذه الآلام التي جعلتني أعيش فيها حيناً ..
وأشاركها فيها حقيقة .. فقلت :

— تقولين بأنك خائفة من أن يقتلك الرجل الذي قتل أمك ..

— نعم ..

— ولماذا يقتلك ؟

- ولماذا إذن قتل أمي ؟
فأحسست بالجواب فاحماً . . فقلت :
— من تظنين الذي قتلها ؟
— لا أعرف .
— بعد كل هذه الملابسات التي كشف عنها التحقيق . . ووضحت
لك هذا الوضوح . . . أليس في استطاعتك ولو مجرد الظن معرفة
من هو صاحب المصلحة في ارتكاب هذه الجريمة ؟
— لعلك أكثر مني معرفة بالظروف جميعاً . .
— أنا أظن أن دسوقي هو القاتل . .
شبهت الفتاة وقالت في ذعر شديد وهي تتراجع إلى الخلف كمن
يباغت بشيء يخيفه :
— لا . . لا . . أبداً . . أبداً . .
وأدهشني صوتهما هذا المفاجئ . . وذعرها هذا الشديد . . فقلت :
— ما الذي أخافك ؟
— هذا القول الذي تقوله . .
فتركتها قليلاً حتى هدأت . . وقلت :
— وما الذي تستنكرينه في هذا القول ؟
— مجرد هذا الظن الذي نطنه . .
— أنت تستبعدينه . . أم أنك فوجئت به ؟

— أستبعده قطعاً . .

فتركها مرة أخرى قليلاً . . ثم قلت :

— ما الذى يجعلك تستبعدينه . . وترفضين تصديقه . . بعد كل هذه الحوادث الغريبة التى أثبت التحقيق حقيقتها ؟

— إنك لم تعرف دسوق . . ولم تعرف طهارة خلقه . . ولا كريم سجايه أو نبل قلبه . . لقد كان هذا الرجل الطيب بالنسبة للناس هذا الزمن . . أشبه بنبي . .

— هل كان يخلص لها ؟

— كما يخلص العابد إلى معبوده تماماً . . كان لها أكثر من أب . . وأكثر من أخ . . وأكثر من خادم . .

وجعلنى هذا القول أزداد اقتناعاً بما تحدثت به إلى نفسى والنتيجة التى وصلت إليها . . من وجود علاقة بينه وبين المحبى عليها . . ولذلك قلت . . وكنت أعتمد على بعض الخبث فيما أقول :

— إلى هذا الحد كان دسوق يحب المحبى عليها ؟

فقلت الفتاة على الفور دون أن تفطن إلى قصدى :

— كان يحبها إلى حد الجنون.. إلى حد أنها إذا مرضت يوماً.. كان المريض الحقيقى هو.. وإذا شفيت.. كان الصحيح المعافى هو.. وإذا حزنت أو غضبت . . كان الحزين هو . . فإذا رآها يوماً ضاحكة أو مبتسمة .. كاد هذا الرجل المعجوز يخرج عن وقاره ويرقص طرباً من فرط فرحته ..

- فأحسست بالزهو الذى يحس به من يصدق حدسه . وقلت :
- ألم يداخلك شك فى هذه العلاقة ؟
- فاكفهر وجهها فجأة وقالت :
- ماذا تقصد بهذا القول ؟
- أقصد . . أنها أكثر من علاقة بين خادم ومخدومه . .
- فازداد وجهها احتقاناً . . وهى تقول :
- ولماذا تسمى الظن إلى هذا الحد ؟
- ولماذا أنكر هو فى التحقيق أنه يعرفك ؟
- ربما لأنه كان يعرف الحقيقة . .
- أى حقيقة ؟
- أنها أسمى . .
- ولماذا لم يذكر هذا ؟
- فعادت الدموع إلى عينيها وقالت وهى تنظر فى خجل واضطراب
كثير إلى الأرض :
- هل تريد أن تحقق معى مرة أخرى ؟
- فأحسست بأننى نكأت جرحها . . دون أن أدرى . . ولذلك قلت :
- إنما أقول هذا فقط لكى أطمئنك بأن الذى قتل المحبى عليها لن
يصيبك أنت بسوء .
- فقالته وهى تنكى :

— من يدري ؟

— لأنه مات . .

ففغرت فaha وهي تقول :

— مات ؟ !

— نعم . .

— إذن أنت كنت تعرفه ؟

— عرفته فقط بعد أن قتل . .

— ومن هو ؟

— دسوقي . .

فجحظت عيناها بجحوظاً خفيفاً . . وهي تصرخ :

— دسوقي . . هو الذى قتل أمى . . أنا لا أصدق هذا . .

— وأنا أيضاً كنت لا أصدقه . .

فقالت وهي لا تزال شبه صارخة :

— وما الذى جعلك تصدقه إذن ؟

— قتل دسوقي . .

— ومن الذى قتله ؟

— لا أعرف . .

ولم أشأ أن أقول لها بأن دسوقي كان عشيقاً لأملك . . وأنه قتلها

لما عرف بأن لها عشيقاً غيره . . وأن الذى قتل دسوقي هو هذا العشيق

١٣٠

الثانى . . الذى رأيته أنت بعينيك يتسلل من مخدعها فى الليل . . لم أشأ أن أقول لها هذا . . حتى لا أزيد فى جراحها . . هذه الجراح التى كنت أشعر بمدى آلامها فى نفسها . . ولكنها أدركت قصدى . . لأن صوتها اختنق فجأة . . وقالت وهى تحاول أن تجفف الدموع التى كانت تفرق وجهها :

— أرجو أن تذكر . . أنها أمى . . وأنها قد ماتت . . وأن الترحم على الموتى قد يكون ترحماً على الأحياء كذلك . . .

ونهضت لتخرج . . فإذا بى أبجد نفسى دون أن أدرى ودون تفكير أيضاً . . أمد يدي إلى ورقة أمامى . . وأكتب عليها رقم تليفونى الخاص فى المكتب وأناوله لها . . وأنا أقول . . وكأن كل جارحة فى . . ترجو وتلح فى الرجاء . . أن تتصل بى ثانية . . وتتصل بى فى أى وقت . . وفى أية لحظة تشاء . . وسوف تجدننى دائماً عند حسن ظننا . .

فتناولت منى الورقة . . دون أن تنطق . . لأن صوتها كان لا يزال مخنقاً . . ولما انصرفت ، وغادرت الغرفة . . أحسست بأنها قد أخذت منى شيئاً وانصرفت به . . ولكن ما هو هذا الشيء ؟ . . كنت لا أدرى . . .

ظل هذا الإحساس يراودنى زمناً . . . ويلح على "أياماً" . . . وكنت كلما
 مريوم أحسست به يزداد على "الحاحاً" . . . وازداد رغبة في رؤيتها . . . ولولا
 أننى تماسكت . . . لكنت قد ذهبت إليها فعلاً ، ولولا أننى أحاسب نفسى
 دائماً قبل كل خطوة أخطوها . . . لكنت قد تصرفت تصرفاً آخر . . .
 ولكنى فكرت . . . وفكرت كثيراً وطويلاً . . . حتى كاد يجهلنى التفكير . . .
 أو هو أجهلنى فعلاً . . . ماذا أريد من هذه الفتاة ؟ . . . وما هو هذا الشيء
 الذى أخذته منى ؟ . . . ولماذا أخذته ؟ وهل هى التى أخذته منى ؟ أو أنا
 الذى أعطيتها إياه . . . ومن هو المتسبب فى هذا الفعل . . . الذى أخذ . . .
 أم الذى أعطى . . . وعلى من تقع التبعة ؟ ! أتقع عليها هى لأنها أخذت
 ما أخذت . . . أم تقع على "أنا لأننى أعطيت ما أعطيت ؟ !

وخرجت من ذلك بأن هناك تبعة فعلاً . . . بدليل حدوث الفعل وهو
 هذا الشيء الذى أخذ ، ولكن الذى لم أستطع الوصول إليه هو السبب أو
 الأسباب الحقيقية التى دفعت إلى حدوث هذا الفعل . . . أهى الظروف
 القاسية التى التقت بهذه الفتاة فيها . . . أم هو هذا الخلق الطيب الذى
 أعجبت به . . . وهذا الشعور المرهف الذى شفت حساسيته إلى هذا

الحد .. حد هذه الانطباعات التي تترك أثرها في الغير .. واضحة كل هذا الوضوح .. معبرة كل هذا التعبير .. الذي لا تستطيع أن تتركه .. أو تعبر عنه حتى الملائكة نفسها .. أم هو هذا الطهر الأصيل في جوهره ، الذي لم تزد النار إلا صفاء .. ولم يزد الاحتراق إلا صفلاً وحساسية وإشراقاً ..

فكرت في هذا كله .. وفي غيره أيضاً .. من أحساسيس مماثلة .. تأثرت بها تأثراً كبيراً .. ومع ذلك لم أجد جواباً شافياً أطمئن إليه .. ولذلك وجدتني أسأل نفسي هذا السؤال المفاجئ .. وكأنني محقق أحقق مع نفسي في قضية هامة يكاد يتوقف عليها مصير إنسان :

— هل أحب هذه الفتاة ؟ !

وشرق حلقى .. وابتلعت أنفاسي .. وتلعثمت ولم أجب .. ولم يكن سبب ارتباكى هذا المفاجئ ، وحالة الاضطراب هذه التي انتابتني فجأة ، لم يكن مبعثها عجزى عن الجواب .. لا ، لم يكن ذلك .. وإنما الذي أربكني إلى هذا الحد وجف له حلقى واضطربت له أنفاسي هو أنني وجدت الجواب .. يأتي سريعاً وبأسرع مما كنت أنتظر ... و ... بالإيجاب ..

* * *

إذن أنا أحب هذه الفتاة فعلاً .. وإذن فأنا المتسبب في الفعل .. لأنني أنا الذي أعطيت وأعطيت شيئاً غالياً .. أعطيت قلبي .. وأعطيته

١٣٣

طواعية . . وعن طيب خاطر . . وبلا أدنى مساومة أو فصال . . أو
تأثير . . بل حتى دون علم منها أنها أخذت شيئاً . .
ولكن كيف حدث هذا ؟ ! وكيف أوجرت هذا الحرم . .
بحيث إنى أدرس فى يد إنسان شيئاً دون أن يدرى . . شيئاً قد يضر به . .
قد يزيده آلاماً فوق آلامه . . ومتاعب فوق متاعبه . . وحتى إن لم
يكن ذلك . . حتى لو رجب به . . حتى لو طرب له ورضى عنه . .
أفليس هذا فيه تغرير بالغير . . وأى تغرير أكثر من ذلك : تهب لإنسان
هبة . . لست أنت وحدك صاحب الحق فى التصرف فيها . . إنها
ملكك حقيقة . . لأنها قلبك . . ولكن هذا القلب . . هناك كثير من
مقومات حياته الأخرى . . لها الحق فيه . . مثلك تماماً . . مجتمعك . .
عملك . . أسرتك . . أبوك . . أهلك . . مركزك كقراض . . أكل هذا
يجعلك تفريط فى هذا الشيء بهذه السهولة التى فطرت بها أنت . .
تبيح لك أن تحب راقصة . . تتزوج من راقصة . . تظهر مجرد الظهور
فى المجتمعات مع راقصة . . مع فتاة أنت تعلم قبل سواك . . أنها ابنة
سفاح . . ابنة زنا . . ابنة خطيئة . . أمها بغى . . عشقها رجل . .
وعشقت غيره . . وماتت وهى تتمرغ فى الوزر . . غارقة فى حمأة
الزينة . . وأبوها سواء كان دسوقى أم غيره . . هو رجل مجهول . .
إلا من الإثم الذى يدل عليه . . والوزر الذى ارتكبه . . والخطيئة التى
تشير إلى وجوده . .

وإذا أنت تغاضيت عن هذا كله . . وضربت به عرض الحائط . .
وتحالت من كل القيم . . مجتمعت الذى تعيش فيه . . أسرتك التى
تنتمى إليها . . مركزك الذى تفخر به . . إذا أنت تغاضيت عن هذا
كله . . وألقيت به خلف ظهرك . . وتحالت منه . . فكيف تتمحلل من
ضميرك . . عندما تحنت باليمين المقدسة التى أقسمتها على احترام المهنة . .
والمحافظة على قدسيته . . إذا ما جعلت مطية رغباتك تعبر طريقها فوق
جسر المهنة التى أفسمت اليمين على احترامها . . بأن تحب متهمه . .
كنت أنت تحقق معها فى إحدى القضايا . . ولو لم تكن مهنتك
كمحقق أفكنت تعرفت على هذه الفتاة وأحببتها ؟ .. وهل معنى ذلك أنه
من حقك ومن حق أى محقق آخر أن يحب عشرات الفتيات والنساء اللواتى
يقفن أمامه فى تهم مماثلة . . أو غير مماثلة ؟ !
إنها الآن قد زالت عنها هذه الصفة . . ولم تصبح متهمه . . وإنما هى
الآن حرة طليقة . . شأنها شأن أية فتاة أخرى . . من حقك أن تحبها وأن
تتدله فى حبها . . وتزوجها . .

إن هذا قول تغالط به ضميرك فقط . . أو أن ضميرك الذى سكت
عن هذا الجرم هو الذى يغالطك بهذا القول . . وإلا فماذا يكون
موقفك . . لو أنك أحببتها وتزوجتها . . ثم لأمر ما أعيد التحقيق فى
هذه القضية . . واتضح لك أن هذه الفتاة هى القاتلة . . هل تتجرد
لحظتها من ضميرك . . وتحنت بقسمك . . وتخون الأمانة . . وتخرجها

١٣٥

من التحقيق نظيفة اليد من الدماء التي تلوثت بها . . أو أنك ستقدم رأسها
للمشنقة ؟ . . وهبك فعلت . . وكان لك منها أولاد . . وجاءوا يوماً يسألونك
عن أمهم . . هل يصمد ضميرك للسؤال . . أو أنه سيغالطك كما
يريد أن يغالطك الآن . . وكما غالطك من قبل . . عندما كانت صفة
الاسهام لا تزال قائمة وكانت تقف أمامك كتهمة . . وأنت تجلس أمامها
كمحقق . . ومع ذلك . . وباسم العطف . . والشفقة . . واستنكار الظلم . .
وما إلى هذه الملاحظات التي تختفي وراءها رغباتنا الحقيقية . . عندما تجابهنا
ضماثرنا . . إذا ما ثبت أنك حدثت عن طريق الحق . . والقانون . .
والعرف . . وتقاليد التحقيقات . . وأنفقت عليها من مالك . . وأعطيتها
نقوداً مما تملك . . وسألت عنها في السجن . . وأمرت بهيئة أسباب الراحة
لها فيه . .

وسمعت صوتاً في أعماقي يصرخ :

— إذن أنا كنت أحبها حين ذاك . .

— ومنذ أن وقعت عينك عليها . .

وبرغم أن هذا الصوت الذي صرخ فجأة من أعماقي أرعبني كثيراً . .
إلا أن الذي أرعبني أكثر أنني وجدته يتلاشى في نفس الأعماق ويلوذ
بالصمت والصمت المطبق . . مما جعلني أتوجس خيفة . . وأخشى أن
يستيقظ ثانية ويغرقني في هذه الدوامة . . التي أرعبتني هذا الرعب . .

* * *

لكن هذا لم يحدث .. فقد خرجت من هذه المعركة منتصراً .. وبدأت
أقدر أشياء .. كنت لا أقدرها .. وأسعد بأشياء كنت أشقى بها .. فقد كنت
أظن أنه من أشقى ما يشقى الإنسان هو محاسبته لنفسه .. هذا الحساب
العسير .. على كل صغيرة وكبيرة .. وقبل كل فرسخ يقطعه أو حتى
خطوة يخطوها .. ولكن بعد أن خرجت من هذه المعركة .. التي حاسبت
نفسى فيها هذا الحساب المرير .. أحسست بسعادة بالغة لهذه النتائج
التي وصلت إليها .. وهذه الخطوة الأولى التي وقفت عندها .. وسددت
بها ذلك الطريق الشائك الذى كنت سأخترقه بجهالة غير فطن إلى هذا
الشوك .. الذى على جانبيه .. والذى كنت من غير شك سوف
لا أفطن إليه أبداً إلا بعد أن تدمى قدى .. وأعود متخز الجراح .
ومرت الأيام .. وظل الصمت مطبقاً .. حتى عشت العناكب
على كل شيء وحجبتة فى عالم النسيان .. فنسيت كل شيء .. حتى
ذلك الشيء الذى كان قد أخذ منى أو الذى كنت قد أعطيته ؛ فقد أصبح
الأمر سواء .. سواء الذى أخذ والذى أعطى .. الذى باع والذى
اشتري .. طالما أن السلعة قد بارت .. وأصبحت غير ذات موضوع ..
وكما هى عادتي غرقت فى دوامة العمل .. وحققت عشرات القضايا ..
وقد لى النجاح فى أكثرها .. مما جعلنى أنسى متاعى جميعاً .. حتى
متاعب الذكري أيضاً نسيته ولم أعد أذكرها .. إلا كما يذكر المسافر
بعض المناظر الجميلة أو القبيحة التى مرت به .

وظللت كذلك . . إلى أن فوجئت ذات يوم بأني إنما وقعت في صلال كبير . . وأن هذا النسيان الذي عشت فيه كل هذه الأيام . . لم يكن إلا نوعاً من التخدير . . وأني ما زلت أحب هذه الفتاة . . وأن هذه الأيام التي مرت . . وهذا النسيان الذي كنت قد ظننته لم يكن إلا ستاراً . . احتجبت خلفه مشاعري . . حتى ينمو هذا الغرس . . وتمتد جذوره بحيث لا أستطيع اقتلاعها إذا أردت . . وقد اكتشفت هذا فجأة وبلا قصد ممي أو رغبة في اكتشافه . . فقد حدث أن اتصل بي صديق عزيز من الزملاء . . وأخبرني بأن صديقاً ثالثاً لنا من الزملاء أيضاً . . قد صدر أمر ترقيته . . وأنه يجب أن نقيم له حفلاً بمناسبة هذه الرقية وأن يقتصر الحفل على ثلاثتنا . . باعتبارنا أقرب الأصدقاء إليه . . وطلب مني أن أخلد له المكان الذي ستقضي فيه سهرتنا . . ووجدتني دون أن أفطن إلى ما أقول أو أفكر فيه أو حتى أتريث في القول . . أختار له المكان . . وأصر عليه بالذات وهو الملهى الليلي الذي ترقص فيه زينات في طريق الهرم . . لنقضي فيه سهرتنا . . والغريب أنه عندما وافق . . فرحت كثيراً وفرحت في جنون . . حتى إنني رحت أعد الساعات الباقية على لقاءنا والذهاب إلى هناك . . ولما التقينا . . أحسست وأنا أدخل معهما إلى هذا الملهى لأول مرة في حياتي . . أنني إنما أدخل الجنة . . ولذلك جلست معهما إلى المائدة أتحدث وأتندر . . وأضحك على غير العادة في ابتهاج شديد . . وفرحة زائدة . . تكاد تنطلق نوراً من عيني تبحث في

أركان الملهى . . عن الفتاة . . وكنت أصور وأنا أجلس معهما إحساسى
 عندما أراها . . أو إحساسها هى . . ومشاعرها عندما ترائى فى الصلاة
 وتقع عنها على بين الرواد . . وهى ترقص فوق خشبة المسرح . . وأحسست
 بشيء من الضيق . . وظللت زائغ النظرات . . أبحث عنها يميناً وشمالاً . . وأردت
 أن أسأل عنها أحد الخدم . . ولكنى تخرجت من السؤال لوجود من معى
 وأيضاً لوجود بعض الزملاء من القضاة ووكلاء النيابة . . يجلسون إلى المائدة
 القريبة منى مع زوجاتهم . . وأحسست أننى إذا سألت عن راقصة . .
 ارتكبت عملاً مشيناً . . وقام صراع بينى وبين نفسى . . حتى لأننى
 فكرت فى أن أذهب إلى خارج الصلاة . . وأنتهى ركناً بأحد الخدم
 وأبعثه إليها بورقة منى وأقول لها إننى فى الصلاة وإننى أريد رؤيتها بعد أن
 تنهى من رقصتها . . ولكنى لا أريد رؤيتها فى الصلاة . . حتى لا يراى
 أحد معها وأترك لها هى أن تحدد لى المكان الذى سأراها فيه . . فكبرت
 فى هذا للدرجة أننى كدت أهم بتنفيذه . . لولا أننى استهجنتم هذا
 الفعل . . واعتبرت هذا التصرف نزقاً لا يتفق مع شخصى أمام أحد
 الخدم . . مهما كان هذا الخادم والنية الحسنة التى ينطوى عليها تفكيره . .
 وتريث . . وانتظرت حتى تظهر على المسرح وقلت لعلها عندما يراى
 وهى ترقص تتصرف هى نفس التصرف . . وتعفينى من هذا الحرج أمام
 خاد من الخدم . . . غير أن الذى حدث شيء غريب لم أكن أتوقعه . .
 فقد حل موعد الفقرة الراقصة وأعلن عنها فى المايكروفون . . كما هى

العادة . . وإذا بالاسم غير الاسم . . وإذا بالتى ترقص غير زينات . .
 وشعرت بضيق شديد لا حده . . وظللت طوال السهرة . . مشغول البال . .
 أعيش بعيداً عن نفسى . . وعن الذين معى . . وأولا بعض من عقل . .
 وبقية من تريت . . لا فتضح أمرى . . وعرف من معى . . لماذا جئت
 بهما إلى هذا المكان بالذات . . ومن غير شك أن معرفة هذا كان سيسبب
 إلى كثير . . وظللت أفكر فى أشياء كثيرة . . لم تكن لتخطر لى على بال
 من قبل . . ولم أكن لأصدق أنه سيأتى اليوم الذى يجعلنى أنا بالذات
 أفكر فيها . . وعندما بدأ الليل ينتهى . . وينتهى معه هذا الحفل الساحر . .
 الذى كان إمتاعاً لجميع من شارك فيه إلا أنا . . أحسست بما يشبه
 الاختناق تماماً . . إذ كيف أنصرف دون أن أعرف لماذا هى غائبة ؟
 أو لماذا لم تجئ هذه الليلة . . وهل تغيب هذه الليلة فقط . . أو هى غائبة
 منذ أيام . . وهل هذه هى أول مرة تتغيب فيها . . أو هى متعودة أن تتغيب
 بين الحين والحين . . وهل هى مريضة . . وهذا هو سبب امتناعها عن
 الحضور الليلة . . أو أن هناك ما شغلها عن الحضور . . وإذا كان
 كذلك . . فما هو يا ترى هذا الشيء ؟

أحسست برغبة شديدة في أن أعرف شيئاً . . . أى تى . . . ومع أن
الخداع ليس من خلقى . . . وحتى إذا أردت أن أخادع . . . فأنا لا أعرف . .
مع ذلك لحأت إليه . . . والغريب أنني نجحت فيه نجاحاً لا بأس به . .
نجاح من تعود تجربته على الأقل . . . فقد تعمدت أن أترك علبة سجاثرى
وولاعى النهبية على المائدة . . . عندما انصرفت مع الصديقين . . . وفي
أسفل السلم تذكرتهما . . . فتركت من معى في هذا المكان البعيد . .
وعدت إلى المائدة . . . فوجدت أحد الخدم يحتفظ لى بهما . . . فشكرته
وأظهرت له سرورى لأمانته . . . واتجهزت هذا الطرف المواتى . . . وأنقذته
مبلغاً ، سألته على الفور . . . ولكن دون أن يفتن إلى أهمية السؤال . .
عن زينات . . . ولماذا لم تجئ الليلة . . . وترقص فى الملهى كمعادتها . .
ولما قلت له ذلك . . . ارتسمت علائم الأسف على وجهه . . . وقال فى
صوت حزين . . . وكأنه يتحدث عن إنسان عزيز مات :
— لقد طردوها من المحل .

فاندھشت على الرغم منى . . . وظهر الاستغراب واضحاً على وجهى . .
وقلت :

— طردوها . . ولماذا ؟ !
 — كانت قد اتهمت في جريمة قتل . . وقبض عليها وسجنت أياماً . .
 فتجاهلت . . وقلت له :
 — قتل من ؟ !
 — قتل سيلة من أسرة كبيرة جداً . .
 — ولكنها . . على ما سمعت برئت من التهمة . . وخرجت من السجن .
 فقال الرجل في سداجة الشرقى الطيب القلب :
 — لكن المحل يا سعادة البيه . . يجب أن يحافظ على سمعته . .
 فتركته وانصرفت . . ولا أدري ماذا حدث لى . . ولا ما هي الأفكار
 والهواجس التي عشت فيها في هذه الليلة . . ولا في الأيام التي أعقبها . .
 وإنما الذي أدريه هو أنني كنت أشعر برغبة لا تقاوم في رؤيتها . .
 وفكرت في أكثر من سبيل إلى ذلك . . فكرت في أن أذهب إليها في
 بيتها . . ولكن إذا فعلت . . فهل تستقبلني استقبالا حسناً . . أو هي
 ستمتنع عن مقابلتي . . وتظن في ظنًا سيئاً . . ومن حقها أن تظن هذا
 الظن . . ومن حق أى إنسان غيرها أن يظن هذا الظن أيضاً . . وإلا فما هي
 الدوافع والأسباب التي تدفع شاباً مثلى لزيارة فتاة جميلة في بيتها . .
 وقد انقطعت جميع الرسميات التي كانت تربط صلته بها . . وهبها كانت
 أكرم خلقاً . . من أن تظن هذا الظن السيئ الذي لم يخطر لى على بال . .
 ولن يخطر لى يوماً على بال . . أليس مجرد زيارتي لها فجأة في بيتها

وبلا مقدمات . . أو سابق موعد . . كفيلاً بأن يثير الرعب في قلبها . .
ويجعلها تسقط مغمياً عليها ، كما حدث لها أثناء التحقيق . . إذ ستظن
قطعا أنني جئت لأقبض عليها ثانية . . وأحقق معها مرة أخرى . . ثم أنا . .
أنا شخصياً ماذا سيظن الناس . . لو تصادف ورآني أجد يعرفني . .
أو وقف أمامي يوماً في قضية . . أو كان يدخل العمارة أو يخرج
منها . . أو هو قاطن فيها ورآني أطرق باب راقصة . .
واستبعدت هذه الفكرة نهائياً . . ورفضتها رفضاً باتاً . . ورحت
أفكر في غيرها . . كأن أبعث لها رسولاً مثلاً . . يخبرها بأنني أريد
أن أراها مجرد الرؤية . . لكي أطمئن عليها فقط . . ولا سيما بعد أن عرفت
أنها تركت عملها . . وأترك لها هي تحديد المكان والزمان الذي تريد . .
وحقاً هذه الفكرة أيضاً استبعدتها . . ولم أعد أفكر فيها ثانية . . لا لأنها
محفوفة بالمخاطر . . كالفكرة السابقة . . ولكن لأنني لم أجد هذا الرسول
الذي يؤمن بطهارة أخلاق الناس . . وحسن نواياهم .
ومرت عدة أيام . . أتعبنى التفكير فيها كثيراً . . وبدأت أشعر
بكرهية لا حد لها لهذا المجتمع الذي نعيش فيه . . والذي يفترض
السوء أولاً . . ويفترضه في كل شيء . . بحيث يجعلك تحتاج إلى جهد
قد يفوق جهد الأنبياء . . لتقنعه بالنية الحسنة . . وهذا بلاء كبير . .
يصاب به الخلق في الصميم . . لأن عهد الأنبياء قد انقضى . . ولذلك
فأنت لكي تصل إلى ما تريد وتحقق رغباتك مهما كانت سامية . . يتحتم

عليك أن تفترض السوء أولاً . . وإن أنت افترضت السوء . . كنت سيئاً . .
أو تصبح على الأقل كالأخرين . . وأنا لا أريد أن أكون كذلك . .
حتى مع نفسي على الأقل . . ولذلك أجهدت نفسي كثيراً لكي أهندي
إلى الطريق الذي يوصلني سالماً إلى ما أريد . . ومكثت كذلك إلى أن حدث
ذات يوم أن كنت أقود سيارتي في أحد الشوارع الهامة . . في طريقي إلى
مستشفى كبير معروف لزيارة مريض هناك . . غير أنني في وسط المسافة
وجدت الطريق معطلاً . . بسبب حادث تصادم ضخم انقلبت على أثره
إحدى عربات الترام وتحطمت سيارة كبيرة وتناثرت أجزاؤها . . فاضطرت
للعودة واختراق طريق آخر كنت لا أعرف مسالكه جيداً . . ولذلك
كنت بين الحين والحين أضطر للسؤال أو قراءة لافتات الشوارع . . إلى
أن تصادف وقرأت لافتة تحمل اسماً لشارع أذكره جيداً . . وأذكر أن
اسمه تردد أمامي أكثر من مرة . . وأذكر غير هذا . . إن ذاكرتي ما زالت
تحتفظ به إلى الآن . . وتحفظه عن ظهر قلب . . إنه نفس الشارع
الذي تقطنه زينات . . ووجدتني في تلهف زائد أتلفت على الرقم ١٤
والشقة الثانية من اليمين التي تطل على الشارع . . والغريب الذي اندهشت له
هو النزق . . والطيش . . والرعونة التي كنت فيها . . وأنا أتلفت ذات
اليمين وذات الشمال باحثاً عن هذا الرقم بالذات وهذه الشقة بعينها . . تماماً
كما لو كنت أعتقد أنني إذا تريت في البحث لحظات . . انتقل الشارع
من مكانه . . وأقمرت معلمه واندثرت المساكن التي فيه . . ومع ذلك

عندما بلغت الرقم ١٤. ووقفت أمام العمارة ورأيت بعيني الشقة الثانية. من اليمين. المظلة على الطريق . . لم أفعل شيئاً ولم أحرك ساكناً . . وكل الذي فعلته هو أنني أوقفت السيارة فعلاً . . وهبطت منها حقيقة . . ولكني لم أتجه إلى تلك العمارة ولم أطرق باب تلك الشقة الثانية على اليمين . . وإنما اتجهت إلى حانوت أمام العمارة مباشرة واشتريت علبة سجائر أضفها إلى العلبتين اللتين في جيبي . . ومن ثم ركبت سيارتي وانصرفت على الفور . . .

غير أن هذا الحادث أفادني من غير شك فائدة كبيرة . . فقد اكتشفت وأنا أشتري علبة السجائر أن بجانب الحانوت وأمام مدخل العمارة مباشرة مطعماً فاخراً ، عرفت فيما بعد أنه اشتهر بتقديم أجود أنواع السمك . . وقد لاحظت على رواده أن أكثرهم من عليه القوم . . وأن مثلي لا يشعر بحرج. إن هو جلس وتناول طعامه فيه . . وكان مبعث سروري في هذا هو أنني لو تناولت الغداء يوماً في هذا المطعم . . وجلست فيه أكبر وقت ممكن بحجة تناول الطعام . . فربما شاهدتها . . وهي تدخل العمارة أو تخرج منها أو رأيها وهي تعبر الطريق مادام أنه يتحتم عليها أن تعبر هذا الطريق بالذات . . ومع أنني بطبعي لا أحب هذا اللون من الطعام . . وأشعر بأن السمك بالذات يسبب لي متاعب صحية كثيرة . . فقد كنت معوداً . . وكانت معدتي مدللة إلى حد الإزعاج . . ومع ذلك ما كاد يأتي ظهر اليوم الثاني وأفرغ من عملي حتى أسرع إلى هناك . .

وكما أن الآلام - إذا كثرت - تعلمك الصبر والأناة وقوة الاحتمال . .
فكذلك الحب إذا طغى . . يعلمك المكر والدهاء . . ويفتق ذهنك عن
أفكار كثيرة صائبة . . فقد تعلمت أن أوقف سيارتي أمام مدخل العمارة
بالذات وليس أمام المطعم . . لأن ذلك يحتم على أن أعبر الطريق ذاهباً
وأن أعبره عائداً . . وقد يحقق هذا الحدث الذي أنتظره . . وتحقيق
الصدفة التي أبني عليها الكثير من الآمال . . ولا دخلت المطعم . .
تعلمت أيضاً أن أختار مائدتي بجوار النافذة المطلة على الطريق . . بحيث
تكون الشقة الثانية على اليمين في مواجهة تماماً . . وبحيث أرى العابرين
جميعاً . . ومن يدخل العمارة أو يخرج منها بالذات . . ومن ثم جلست
أتناول طعامي الذي لم أر له لوناً . . ولم أعرف أهو سمك أم غيره . .
فقد كانت نظراتي مشدودة إلى الشقة ونوافذها المغلقة التي يرين عليها
الصمت وتكتنفها الوحشة، والتي لولا الشرفة وبعض المقاعد التي فيها لظننتها
خالية مهجورة من زمن بعيد مما جعلني أحس بالضيق . . وجعلني أيضاً
أفكر في العودة إلى ما كنت قد صرفت النظر عنه . . وهو أن أبعث إليها
برسول يخبرها بوجودي في هذا المطعم المجاور لبيتها وأطلب استدعاءها إلى . .
وفكرت فعلاً في أن أبعث إليها بأحد من الخدم الذين في المطعم، ولعل الذي
شجعني على ذلك صبي صغير كان ضمن الذين يقومون بالخدمة في
المطعم . وقد توسمت فيه الذكاء وارتاحت نفسي إليه . . وإلى الابتسامة
التي تلو ثغره دائماً . . مما جعلني ألافه وأسأله عن اسمه . . ولكني

لم أفعل . . وكل الذى فعلته هو أننى بعد أن جلست ما يزيد على الساعتين تناولت خلاهما طعاعى على مهل ممل وشربت أكثر من فنجان من القهوة لأطيل جلستى دون فائدة . . وجدتنى أضع فى يدى هذا الصبى مبلغاً كبيراً من المال وأنصرف . .

ترى هل أدخر أنا هذا الصبى لشيء ؟ ؟ !
وكثر ترددى على هذا المطعم بعد ذلك . . وكنت أتناول فيه طعاعى كل يوم ، وأجلس إلى تلك المائدة بالذات التى هى فى مواجهة الشقة الثانية على اليمين ، المطلة على الطريق . . حتى إن الخدم تعرفوا علىّ وكانوا من كثرة ما أجزل لهم فى العطاء ولا سيما ذلك الصبى الصغير الذى لا تفارق الابتسامة شفثيه يحرصون على إعداد هذه المائدة لى بالذات ، وقد نتج عن ذلك . وعن السمك الذى كنت آكله كل يوم ، أن أصبت بنزلة معوية حادة . . ومع ذلك لم أصل إلى نتيجة . . فالنوافذ مغلقة بصفة دائمة . والصمت يطبق عليها من كل جانب ، وكما قدمت ، لولا بعض المقاعد التى كانت فى الشرفة والتى كانت تستبدل أماكنها من حين إلى آخر . . لظننت أن الشقة فارغة ، ومع ذلك لم أياس . . ولم أقطع الأمل . وما كنت أحسب أبداً أن الحب يهون عليه العذاب إلى هذا الحد . . فقد كنت أحتمل هذا كله بهدوء غريب ، وظللت كذلك إلى أن اتخذت مجلسى من المائدة ذات يوم . . وراح ذلك الصبى الصغير الذى كنت أخاله من فرط فرحته بلقائى يكاد برغم صغرسنه وضعف بنيته

يحملني فوق كتفيه حتى يجلسني فوق مقعدي أمام المائدة . . وجلست في هذا اليوم كما هي العادة أتطلع إلى الطريق . . وأتفحص المارة فرداً فرداً . . وكلما رأيت فتاة أو سيدة تقبل من بعيد وترتدى ثوباً يقارب لونه الثوب الذي كانت ترتديه زينات عندما قبض عليها وقدمت لي لأحقق معها . . خفيق قلبي . . وأحسست بفرحة غامرة يعقبها في الحال ضيق شديد عندما لا أجدها هي . . وأروح بين الحين والحين أيضاً . . أتطلع إلى النوافذ المغلقة ومتمناى لو أن نظراتي استطاعت أن تخترق هذه الحجب وتنفذ إلى الداخل وترى الفتاة رؤية العين . .

وبينما أنا كذلك . . أحسست فجأة بأن شيئاً ما سوف يحدث الآن . . وقد جعلني أومن بأن القلب يرى قبل العين أحياناً وأنه في كثير من الحالات . . تسبق مشاعره وأحاسيسه سرعة النظر . . فقد رأيت على حين فجأة باب الشرفة يهتز من الداخل وكأنه يريد أن يفتح . . ولكن في حذر . . وقد فتح فعلاً . . وفي حذر شديد أيضاً . . وانفرج عن قدر تستطيع العين من الداخل أن ترى منه ما تريد . . وكأن هذه العين اطمأنت إلى أن أحداً لا يراقبها لأن الباب فتح بعد ذلك رويداً . . فدق قلبي دقات سريعة . . ومن الغريب أنه ظل يدق بل تزايدت دقاته حتى بعد أن فتح الباب على مصراعيه وظهر منه شاب وسيم أنيق الملبس في ثياب فاخرة . . وتناول في سرعة شيئاً ما كان فوق مقعد في الشرفة ثم ارتد وأغلق الباب خلفه سريعاً تماماً كأنه لا يريد لأحد أن يراه . . أو يعرف

أنه الآن داخل هذا المسكن .

من المؤكد أنى رأيت ذلك تماماً . . ورأيت به عيني . . وما زادنى تأكيداً هو قلبي الذي ظلت ضرباته تدق طوال الليل وكأنها أجراس الهزيمة تدق في أذن جيش منكسر يتراجع . . ومع أننى فكرت كثيراً إلا أننى لم أكن محتاجاً إلى جهد كبير لتسويغ وجود هذا الشاب في مسكن الفتاة . . فهى كما وضح لى أثناء التحقيق معها أن ظروفها المالية ليست طيبة وأنها لم تدخر مالا تستطيع أن تنفق منه عند الحاجة وأنها لم تكن لتملك غير راتبها المحدود الذى تتقاضاه من الصالة التى تعمل بها كراقصة ، وحتى هذا الراتب كان لا يكفىها لنهاية الشهر بدليل أنها عندما قبض عليها كادت تموت جوعاً لأنها عافت طعام السجن ولم تكن لتملك نقوداً تشتري بها ما تريد مما أثار عطفي عليها وجعلنى أنفق عليها طوال مدة إقامتها فى السجن تحت التحقيق من مالى الخاص ، وبما لا شك فيه أنه لما انتهى التحقيق معها وأطلق سراحها كانت تعتمد على عملها فى الصالة ، ولكنها طردت من عملها ، وطردت وهى لا تملك ملها واحداً . وكان لابد لها أن تعيش وأن تأكل وألا تموت جوعاً ، ولا بد أنها احتملت كثيراً وعانت الفاقة كثيراً ولكنها لم تحتمل . . لم تحتمل الفقر الذى يبلغ بالإنسان إلى حد الجوع . وليس من أحد فى الوجود يستطيع أن يحتمل ذلك . : يحتمل الفاقة . . يحتمل هذا الفقر المدقع .. إن الفقر شىء بغض .. شىء كره .. رحم الله على بن أبى طالب حين قال : « لو كان الفقر رجلاً لقتلته » ، ولكنه

من سوء حظ الإنسانية أنه غير متيسر قتله .. لأنه ليس رجلاً .. ومعنى ذلك أنه قادر على تعذيبنا دون أن نستطيع نحن حتى أن نمسه .. أن نراه .. وكيف نرى أو نمس شيئاً لا وجود له إلا في كيائنا الداخلي فقط .. وما يصنعه في هذا الكيان من عذابات .. ومن غير شك أنها فكرت في هذا كله وعاشت تحت وطأة عذاباته التي لا تحتل والتي لم يقدر على احتمالها حتى الرسل . ولذلك سقطت صريعة تحت وطأته وانحدرت من فوق القمة إلى هذا المنحدر .. إلى هذا المستنقع .. إلى هذا الشاب تبيع له جسدها لكي تأكل ..

مسكينة المرأة .. إن الرجل إذا تكاثرت عليه ذئاب الفقر ، وأوجعته حدة أنيابها وهي تنغرز في أضلعه .. وجد ما يدفع به هذه النار عن نفسه أو على الأقل ما يهدئ من اشتعالها .. وجد قوته يحفر بها الأرض .. أو يحمل عليها الأثقال كما تحملها الدواب تماماً .. وشقاء أقل من شقاء .. وعذاب أهون من عذاب .. ونار تحرق ذراعاً أو كتفاً .. أهون من نار تأكل اللحم كله .. أمل المرأة فإذا أعوزتها الحياة إلى ضرورة البيع فهي لا تملك غير جسدها تبيعه .. ومن سوء حظها أنه سلعة رائجة ما من أحد إلا ويطمع في شرائها ويدفع فيها الغالي من الثمن .. والنفيس من المال .. وتعمجت من نقائص هذا المجتمع الذي يطرد فتاة من عملها الذي تقتات منه لأنها اتهمت مجرد تهمة ظالمة من الجائر أن يتهم بها أى إنسان غيرها ، في حين أنه يبيع لهذه الفتاة بالذات أن تعرض جسدها عارياً على

الناس وهى ترقص وأن تساوم علانية على هذا الجسد وأن تبيعه فى السوق لمن يدفع الثمن أكثر . . وأن يبيع فى أكثر الأحيان وهو راض مطمئن صفقة هذا البيع ، ويجيز عملية هذا الشراء . .

وارتسمت أمام عيني صورة تقرير الكشف الطبى على الفتاة الذى طلبت توقيعه عليها أثناء التحقيق والذى أثبت أنها عذراء ، كما ارتسمت بجانبه تماماً صورة ذلك الشاب الأنيق الذى رأيته بعيني فى مسكن الفتاة وأحسست بشيء فى صدرى يريد أن يتمزق . . إن التبعة من غير شك تقع علىّ أنا وحدى دون سوى لأننى لو اتصلت بالفتاة عقب الإفراج عنها ولم أتردد هذا التردد السخيف الذى كان يشبه تردد الأطفال تماماً لكنت عرفت على الأقل أنها طردت من عملها ، وكنت مددت لها يد المساعدة ، وكنت بذلك أنقذتها من هذه الهاوية التى تردت فيها . . وحلت بينها وبين هذا المتقلب الذى انقلبت إليه ، وكان هناك أكثر من سبب يدفعنى إلى القيام بهذا العمل الإنسانى البهت . . الخلق الطيب الذى وجدت الفتاة عليه . . الظلم البين الذى لحق بها دون ذنب أو جريئة . . الصدمة العنيفة التى هزت كيائها وكادت تطيح بها عندما عرفت أصل مولدها . . وحقيقة الجريمة التى جاءت عن طريقها إلى هذه الدنيا . . وهذا البؤس الذى عاشت فيه طوال حياتها تن تحت ثقل مرارته . . وهذه النار التى ظلت فى قلبها كل هذا العمر الطويل . . ومع ذلك خرجت منها سليمة معافاة . . لم يحترق معها حتى ظفر . . كما ثبت ذلك رسمياً فى

تقرير الطبيب الشرعى . . وأخيراً هذا الشيء الذى كنت أنا الوحيد دون
سواى الذى يعرفه أيضاً وهو الإلقاء بها فى خضم هذه الدنيا بعد إطلاق
سراحها دون أن تملك قرشاً فى يدها . .

. فكرت فى كل هذا . . ثم أحسست بأن ذلك الشيء الذى كان
يريد أن يتمزق فى صدرى ينفجر باكياً وتغرقه الدموع كما أحسست ولعل
ذلك لشعورى بالخطأ البالغ حد الجرم الذى ارتكبته فى حق هذه الفتاة . .
أحسست بأننى لإنسان آخر . . يختلف عن الإنسان الذى كنته تماماً . .
إنسان عنده من الجراءة أن يفعل ما يريد . . وعنده من الإيمان الثابت
بطهارة خلقه وحسن نواياه أن يضرب صفحاً عن « أنا » وقدرى
ومركزى ووظيفتى ومجتمعى وأبى وأمى وأسرتى وما إلى ذلك جميعه فى سبيل
إنقاذ هذه الفتاة واللحاق بها قبل أن تأتى النار عليها جميعاً وتتركها رماداً . .
وليس فى هذا ما يشينى أو يشين الفتاة . . فالجرح الذى أصيبت به
لم يكن عن قصد منها وإنما أرغمتها قوة خارجة على إرادتها أن تعرض
نفسها إليه وتطعن نفسها به . . وما من أحد فى الوجود يمسك بسكين
ويطعن بها نفسه إلا إذا كان الموت أحب إليه من هذه النفس . . وأنا
موقفي معها فى هذه الحال سيكون موقف الطبيب الذى يعرف مكان الداء،
وإذا عرف الطبيب مكان الداء ضمن الشفاء وضمن للمريض البرء منه
نهائياً، وما من إنسان له ضمير وفى استطاعته أن يشفى إنساناً ، يتخلى عن
هذا الواجب .

ولذلك كان أول شيء فعلته هو أنني ذهبت في ظهر اليوم الثاني وفي نفس الموعد المحدد . . . لذهابي كل يوم إلى المطعم . . . الذي يواجه العمارة التي تقطن فيها الفتاة وجلست على المائدة نفسها وقد عزمت على أن أفعل شيئاً بالذات . . . ولذلك رحت كما هي العادة أتطلع إلى الشقة الثانية على اليمين المطلّة على الطريق وإلى نوافذها المغلقة كما هي العادة كل يوم والشفرة التي لم يتغير فيها شيء أو حتى تزحزح مقعد من مكانه . . . غير أنني لا أنكر أنني في هذا اليوم كنت أنظر إلى هذه النوافذ المغلقة وأشعر بما يشبه أنياب الثعابين الصغيرة تنغرز في صدرى وتقطع في نياط القلب وازددت إحساساً بهذه الآلام أنني بعد أن جلست بدقائق رأيت سيارة أنيقة حمراء تحمل رقماً التقطته سريعاً تقف أمام مدخل العمارة بالذات وخلف سيارتي مباشرة ويهبط منها ذلك الشاب الوسيم الأنيق الذي رأيته بالأمس في شقة الفتاة . . . ورأيت أكثر وسامة وأناقة عنه بالأمس ، ورأيت يحمل بعض اللقافات بين يديه واستطعت أن أتبين إحداها وأعرف من طريقة لفها ومن الزجاجاة البارزة من اللقافة أنها زجاجاة من الخمر . . . وبعد أن أغلق السيارة أسرع بالدخول إلى العمارة وهو يتلفت حواليه كما كان يفعل تماماً وهو يخرج إلى الشرفة أمس وكأنه لا يريد لأحد أن يراه . . .

رأيت ذلك كله بعيني هذا اليوم أيضاً . . . وكدت أتهاوى في مكاني وكان السمك اللعين قد قدم إلى . . . فلم أشأ أن أنظر إليه ثانية . . . فقد

تبدى لعيني أشبه بالثعابين التى تنهش فى صدرى والتى ازدادت إحساساً
بآلامها بعد أن رأيت الشاب بعيني يدخل بيت الفتاة . .

وكان الصبي الصغير الذى لا تفارق الابتسامة ثغره يروح ويحيى
حولى وكأنه كلب أليف يصبصلى بذبذبه ، وما إن رأته حتى وائتنى فكرة
نفلتها سريعاً لكى لا أعود فأتقاعس عنها وأخرجت ورقة وقلماً من جيبى
وكتبت للفتاة ما معناه أننى الآن فى المطعم الذى يقابل بيتها مباشرة ، وأننى
أريد أن أراها الآن لأمر هام جداً وأننى فى انتظارها . .

كتبت هذا وأردت ألا أكتب شيئاً آخر . . ولكنى عدت وفكرت . .
ربما وليسبب وجود هذا الشاب عندها الآن يتعذر عليها الخروج . . وأحتاج
إلى هذه المحاولة مرة أخرى . . ولذلك زدت على ما كتبت . . وأنه لو تعذر
عليها مقابلتى الآن فإننى أنتظر منها تليفوناً فى وقت حددته لها وعينت لها
ساعته وهو الوقت والساعة الذى سأكون فيهما فى هذا الرقم الذى دونته لها .
دونت هذا كله سريعاً فى الورقة التى أخرجتها من جيبى وطويتها ثم
أشرت إلى الصبي الصغير بأصبعى فجاءنى يركض ككلب الصيد تماماً . .
فقللت له فيما يشبه الهمس لأننى من غير شك أحسست بحرج عندما
بدأت أنفذ ما اعترمت عليه :

— هل ترى هذه العمارة ؟

أشرت له بنصف أصبعى حتى لا يلاحظ أحد . . فقال :

— نعم .

—وترى هذه الشقة الثانية على اليمين ذات النوافذ الثلاث المغلقة ؟

—نعم . . نعم .

فقلت وقد ازداد صوتى خفوتاً وأنا أناوله الورقة :

— أعط السيدة التى تقطن الشقة هذه الورقة . . وانتظر ماذا

ستقول لك وعد سريعاً .

فقال الصبي فى غير مبالاة :

— حضرتك تقصد الست زينات الراقصة ؟

فابتهجت مطمئناً لأنه يعرفها . . وقلت وأنا أبتسم :

— نعم . . نعم . . هى .

فقال الصبي وقد تلاشت الابتسامة من على ثغره . . شأن من يعجز

عن جميل كان يود أن يصنعه :

— إنها تركت هذه الشقة منذ أسابيع والآن يقطنها شخص آخر .

إن الإنسان كتلة من المتناقضات أو أنا كذلك على أقل تقدير . .
فقد كان الذى ينتظر أن يحدث عندما سمعت هذا النبأ . . أن تأخذنى
المفاجأة . . فقد كنت أنتظر كل شيء إلا أن أسمع هذا . . أو أفكر
فيه . . وما دمت قد سمعته فكان يجب على أن أضيق به أولاً . . ثم أضيق
بنفسى ثانية وأضيق بهذه السلسلة الطويلة من الهواجس السوداء التى عشت
فيها طوال تلك الأيام والساعات منذ أن رأيت هذا الشاب . وظننت فيه
ما ظننت واتهمت الفتاة بما اتهمتها به . . ولكن العكس تماماً هو الذى
حدث . . لأننى ما كدت أسمع ما قاله الصبي وأعرف أننى كنت خاطئ
الفهم حتى انتابتنى فرحة جارفة . كادت تخرجنى حتى عن وقارى
الذى اعتدت أن أكونه حتى بينى وبين نفسى . . ورحت من فرحتى
أريد أن أفعل شيئاً أو أفعل كل شيء . . أن أضحك مثلاً بصوت
عال . . أحتضن هذا الصبي وأقبله . . أخرج كل ما فى جيبى من نقود
وأعطيه إياها . . أوزعها على هؤلاء الخدم جميعاً . . أطعم كل هؤلاء الذين
فى المطعم على نفقتى . . ولما لم أستطع أن أفعل شيئاً من هذا ، فعلت كل
ما أريد فى طبق السمك الذى أمامى والذى كان يتبدى لعينى من لحظات

قصار أشبه بالشعابين تماماً . . رأيته في عيني كالفرحة التي أنا فيها وفي ثغري أحلى مذاقاً من الشهد ولذلك التهمته التهاماً وأكلته عن آخره . . ولم أفعل ذلك فقط . . وإنما طلبت مزيداً من هذا الطعام الذي هو من أحلى ما تذوقته في حياتي . .

أكل هذا لأنه ثبت لي خطأ ظني في الفتاة . . وأنها بريئة من هذه التهمة الظالمة التي اتهمتها بها وأن عرضها ظاهر لم يمس وأن ذيلها نظيف لم يلوث ؟ . . وهل إلى هذا الحد يهمني شرف هذه الفتاة ؟ وهل هو يهمني إلى هذا الحد الكبير من أجلى « أنا » وخلقى الذى بطبعه يستنكر هذا الجرم ويستبشع هذه الجريمة ؟ أو هو يهمني من أجل هذه الفتاة بالذات . وحرصى على سلامتها هني بالذات ؟ من غير شك أنه من أجلها هي . . وليس من أجلى أنا . . أو أجل خلقي . . أو تربيتي . . أو طباعى . . بدليل أنني عندما رأيت ذلك الشاب وظننت فيها هذا الظن الذى بلغ عندي مرتبة الإيمان . . كنت خالص النية صادق العزم على أن أمد لها يدي وأنتشلها من هذه البر التي هوت إلى قاعها . . إذن الأمر أمر الفتاة بالذات وليس أمر سواها . وليس هو أمر العطف فقط كما كنت أظن . . أو كما كانت تغالطني نفسي وتريد أن تقنعني . . بأن صلتى بالفتاة هي أنني ربما أستطيع ذات يوم عن طريق هذه الصلة أن أكتشف شخصية ذلك الرجل الذى ضبطته الفتاة في مخدع الحجب عليها والذى أصبح هو المفتاح الوحيد لهذه القضية بعد قتل دسوقي . .

إذن لم يكن الأمر أمر هذا أو بعضه أو كله . .
 إنما هو أمر الفتاة . . والفتاة بالذات . . وإذن . . أنا أحب هذه
 الفتاة . . .

* * *

كانت المشكلة التي واجهتني والتي شغلت بالي وقتاً طويلاً هي كيف
 أعثر على زينات وأهتدي إلى عنوانها . . وأعرف أين تقيم . . وكان هذا
 بالنسبة لي أمراً عسيراً كل العسر . . فقد تبين بعد كل هذه الأحداث
 جميعاً . . وبعد أن تأكدت هذا التأكيد البالغ حد الإيمان والذي لا سبيل
 إلى الشك فيه . . أنني أحب هذه الفتاة . . تبينت أنني ما زلت عند
 طباعي التي جملت عليها . . وهي خجلى الشديد وارتباكى الذي لا حد له
 في كل ما يمس عواطفى الخاصة ويتصل اتصالاً مباشراً بمشاعرى وأحاسيسى .
 وإلا كان عندى أكثر من سبيل لمعرفة مكانها والعثور عليها في ساعات
 ولكننى لم أجرو حتى على مجرد التفكير في ذلك. برغم الأسباب القوية التي
 تدفعنى دفعاً لرؤيتها واللقاء بها . . لا من أجل الشوق إلى رؤيتها فقط
 أو الرغبة المتزايدة في التحدث إليها والجلوس معها، وإنما لكي أطمئن عليها
 وأعرف كيف تعيش . . ومن أين ترتزق بعد أن طردت من عملها . . حتى
 لا تضطرها الظروف إلى التورط فيما كنت قد ظننتها تورطت فيه واهتمتها
 به ظملاً . . واهتمتها بلا تريث أو تبصر في خطورة هذه التهم الظالمة التي
 يتهم بها الناس .

وهكذا مكثت ثلاثة أيام كادت هذه المشكلة تنسى حتى وجودى ككائن بشرى يعيش على وجه الأرض . . ولا ضائق بي التفكير ، وثقل على نفسى . . وبدأت أستشعر ثقله . . ومرارته أيضاً . . فكرت فى أن ألبأ إلى وظيفتى وأعيد التحقيق فى القضية من جديد . . ومن السهل وجود الأسباب التى تبرر ذلك وأطلب القبض على الفتاة مرة أخرى ولا بد من أنه سيقبض عليها . . وبذلك يحل هذا الإشكال ، غير أنى استنكرت هذه الفكرة . . واستبعدتها لعدة أسباب لعل أهمها الظلم الذى سيقع على الفتاة مرة أخرى . . هذا إذا افترضنا جدلاً أننا سنجد الضمير الذى يبيح لى أن أرضى رغبائى على حساب المهنة التى أحترمها ، وهذا الضمير لن أجده إلا إذا وجدت الموت ، وأنا لست مجنوناً حتى أبحث عن الموت .

وفكرت فى السمارة التى كانت تقطن فيها الفتاة . وفى بواب هذه السمارة بالذات ولاى لم أعرفه ، ولكنى أعرف أن بوابى العمارات جميعاً هم دائماً حملة أسرار السكان . . فالبواب يعرف عن الزوجة ، أكثر مما يعرف زوجها ويعرف عن الزوج أكثر مما تعرف زوجته . . وهو ودود بطبعه ومتسامح بحكم مهنته حتى الذين يتركون السكنى فى عماراته هو أكثر الناس تبعاً لأخبارهم . . فإن كان يبغضهم وسره خروجهم فهو يحلو له أن يعرف ما يسبونونه من متاعب لغيره وإن كان يحبهم فهو فى أكثر الأحيان لا يقطع صلته بهم حتى ولو بعد واديه عن واديه . . وفكرت فى مطعم السمك مرة أخرى . . وبرغم الملح الذى أحدثه لمعدتى مجرد هذا التفكير . .

فقد ذهبت إلى هناك وما كنت لأظن أو أتصور بحال من الأحوال أن مجرد هذا الذهاب العابر إلى هذا المطعم سوف يترتب عليه الكثير من الأحداث الهامة ، وبمثل هذه السرعة التي حدثت بها ، فما إن دلفت قدى إلى هذا المطعم ورأيت ذلك الصبي الصغير الذى لا تفارق الابتسامة ثغره حتى جاءنى راكضاً تغمره فرحة لا حد لها وتزدحم الكثير من الألفاظ على شفثيه حتى خلته يمسك بها فى جهد كيلاً تتساقط قبل أن يذكرها لى . . ولذلك لم ينتظر حتى يحينى كمادته وينحنى تلك الانحناءة السمحة التى تعودها . . وإنما قال على الفور وكأننا أصدقاء خلصاء يجب كلانا الآخر الحب كله :

— أين أنت يا سعادة البك ؟ .. لقد كنت أنتظر مجيئك كل يوم بفارغ الصبر .

— خيراً . .

— الست زينات . .

وما إن نطق هذا الاسم حتى خفق قلبى وأحسست بضربات تترادى وقلت :

— ماذا بها ؟

— لقد عرفت سكنها الجديد . . وعرفت أين هى تقيم الآن . .

— عرفت بيتها ؟

— نعم .

— وكيف عرفته ؟

— من يومين فقط . . في اليوم الثاني مباشرة لليوم الذى أعقب
سؤالك عنها لمحتها وأنا أعلم هنا فى المحل واقفة أمام العمارة تتحدث إلى
عم خير البواب . فأسرعت إليها فى الحال و . .
وأراد الصبي أن يتم حديثه . . لكننى قاطعته فى لهفة :
— هل قلت لها شيئاً ؟

— فازدادت ابتسامة الصبي تركيزاً فوق ثغره وقال فى كبرياء :
— عيب . . محسوبك . . وإن كان صغيراً فى السن لكنه يفهم
كل شيء . .
فأحسست بكثير من الحجل يلم بى ويجعلنى أكاد أتلثم فى الحديث
ولكننى قلت :

— وكيف عرفت عنوانها إذن ؟

— كانت قد تركت بعض متاعها عند عم خير البواب . . وهو عبارة
عن أباجرة صغيرة . . وحقيبة بداخلها بعض الملابس وجاءت لتبحث
عن أحد ليوصل لها هذه الأشياء إلى مسكنها الجديد فتطوعت أنا للقيام
بهذه المهمة .

— وابتلع الصبي أنفاسه سريعاً واستطرد قائلاً فى نفس الفرحة التى تجعله
يكاد يرقص أماى وهو يتحدث :

— وقد تطوعت بهذه المهمة عن طيب خاطر من أجل سعادتك فقط .

- لماذا من أجلى ؟
- عفواً . . أقصد من أجل أفضالك الكثيرة التى غمرتني بها . .
- أشكرك على أى حال . . وأين تقيم ؟
- فى مصر الجديدة . .
- فقلت فى دهشة :
- مصر الجديدة ؟
- نعم .
- وذهبت أنت إلى مصر الجديدة ؟
- يا سلام . . ولو كانت فى أسوان لذهبت إليها من أجل
- خاطر سعادتك .
- فازددت خجلاً وازددت أيضاً تقديراً لركة إحساس هذا الإنسان
- الصغير وقلت له . . ولكن من قلبى هذه المرة :
- أشكرك كثيراً يا عمر . .
- تفضل .
- ماذا ؟
- وأخرج عمر من بين طيات ذلك الشريط الأحمر الذى يلتف حول
- صدر الثوب الأبيض الذى يرتديه . . ورقة صغيرة ناولها إلى . . فقرأت
- فيها الآتى : ١٢٥ شارع السبق . . الدور الأرضى . . شقة رقم ١ -
- مصر الجديدة . . .

كان من الأمور التي يسرت لي مهمة كثيراً وأعفتني من أكثر من حرج كنت أنتظره . . المكان الذي ذهبت إليه في مصر الجديدة وموقع البيت الذي تقطنه الفتاة . . فقد كان المكان هادئاً إلى حد كبير . . والبيت يكاد يكون خالياً من كل جانب وأمام البيت يقع الطريق مباشرة وهو طريق عريض جداً . . يليه مباشرة ميدان السبق الفسيح وكان الوقت ليلاً . . والطريق خالياً من المارة تماماً . . اللهم إلا سيارة تغدو أو تجيء يقودها عاشق ولها أو محبة تجلس بجانبه حبسية مدلهة . . أو بعض العشاق من الفتيان والفتيات ينقلون الأقدام في خطواتهم فتتكسر أعطاف العذارى اللائي تمايلن خصورهن وهن يسرن متأبطات الأذرع بجانب سور الميدان الفسيح . ومثل أولئك أو هؤلاء في استطاعة من كان في مثل حالي أن يطمئن إليهم وإلى أن نظراتهم لا تمتد إلى أكثر من وجه الحبيب ، وأن عيونهم لا تبصر غير بسمة الثغر أو عذوبة الشفاه ولا تتطلع لغير رقة الخد أو لفئة الجيد وإن زادت فإلى استدارة الجبين أو رجفة الشعر . . ومع ذلك تريثت كثيراً وتصرفت بحذر شديد وحرص بالغ الدقة . . إذ قطعت الطريق أولاً عدة مرات رائحاً غادياً . . ومع أنني لم أجد إلا كل ما يطمئن . . ومع

١٦٣

وثوق من أن أحداً في هذه الضاحية النائية لا يعرفني من قريب أو بعيد . .
فقد ذهبت إلى شارع آخر يبعد كل البعد عن هذا الشارع الذي أريده
وأوقفت سيارتي هناك . . وعدت إلى بيت الفتاة على قدمي . . ومن حسن
الحظ أنني لم أصعد غير درجات قليلة العدد جداً حتى وجدتني بعدها
أمام باب مسكن الفتاة مباشرة . . وقد سرني هذا ووقفت لحظات استعدت
فيها أنفاسي قبل أن أدق جرس الباب . . ولما دققت الجرس . . لم يفتح
الباب سريعاً . . ولم يرد أحد في الداخل على الفور مما جعلني أظن أن
لا أحد في البيت ، ولولا أنني رأيت بعض شعاع من نور تسرب إلى عيني من
خلف شراعة الباب الزجاجية لانصرفت . . ثم رأيت النور بعد لحظة
يضئ الصالة من الداخل وسمعت صوتاً أعرفه جيداً وأعرف نبراته جيداً
أيضاً يقول من وراء الباب :

— من ؟

— أنا .

— أنت من ؟

فأسقط في يدي وارتبكت ارتباكاً شديداً . . إذ ماذا أقول لها . .
وهل تعرف من أنا إذا قلت لها اسمي . . وازدادت ارتباكاً وأنا أجيب :
— أنا فكري . .

فازدادت دهشة وهي تسأل من خلف الباب أيضاً :
— من فكري ؟

— أرجو أن يفتح الباب . . وستعرفين من أنا . .
ورأيت خيال يدها من خلف الأسطوانة الزجاجية التي تتوسط شراعة
الباب تمتد وحركت في بطاء مزلاج الشراعة من الداخل . . وسمعت لذلك
المزلاج الصغير صوتاً بغيضاً خشناً مما يدل على أنه لم يستعمل منذ وقت
بعيد . . وما إن انفرجت شراعة الباب عن نصف وجهها ورأيتني حتى
شحب وجهها فجأة وجمحت عينها في خوف شديد وقالت متلعثمة
وأفاسها تندهور في سرعة غريبة ويدها ما زالت ممسكة بمزلاج الشراعة
وكانها ماتت عليه . . ويدها الأخرى تترنح أصابعها فوق الصدر وهي تبحث
في اضطراب عن فتحة القميص عند الصدر وتلم أطرافها فوق الثديين
وتخفيهما مع الصدر في طيات الثوب :

— أرجوك . . إن كان معك أحد من الجنود . . فلينتظروا حتى
أرتدى ثيابي على الأقل .

فاندھشت دهشة بالغة . . وقلت :

— معى جنود . . ولماذا ؟

— ألم تجيئ لتقبض على ثانية ؟

فانخفض صوتي في كثير من الدهشة . . وأنا أقول بألم بالغ :

— أنا أقبض عليك ؟

ثم استطردت على الفور . . ولكن بصوت عال :

— أنا جئت فقط لأسأل عنك وأطمئن عليك . .

فارتاحت عيناها على الفور وهدأت أنفاسها وقالت مبتسمة وهي تفتح لى الباب :

— أهلا وسهلا . . تفضل . .

ولما دخلت . . لم أرها . . حتى لإننى ظننت أنها إنما انصرفت إلى الداخل . . ولكنى لما استدرت لأغلق الباب رأيتهما مخفية خلفه تلم — وهي تكاد ترتعش من الحجل — أطراف تلك الغلالة الرقيقة فوق ما تعرى من جسدها . . فأغلقت عيني على الفور . . حتى لا تتسرب نظرة أخرى على الرغم منى — كما حدث — وترى غير الوركين وثنية الساق التى تشع نوراً من خلف نسج الغلالة الرقيقة السوداء وابتعدت خطوات . . كان ظهري أثناءها لها . . ولما انصرفت هى إلى إحدى الغرف وتأكدت من أننى وحدى فى البهو . . فتحت عيني . . فلم أجد غير كنبه واحدة مستطيلة وضعت فى صدر البهو وكانت هى كل شىء تقريباً فيه . . فجلست . . ومن ثم رحت أتلقت حولى وأتطلع إلى متاع البيت البسيط المتواضع الذى ينم عن ذوق من غير شك . . ولكنه فى الوقت نفسه يعبر عن فقر مدقع ويعبر عنه فى صورة واضحة من صوره البغيضة التى تتمثل فى كل شىء . . وشاهدتها فى كل شىء : فى الكنبه التى أجلس فوقها وقد تأكل غطاؤها وبرزت نتف القطن السوداء المغبرة على جوانبها أشبه ما تكون بأمعاء جثة متعفنة .

فى المصباح الكهربائى الصغير المعلق فى وسط البهو يرسل ضوءه

— الشاحب في صمت . . وقد تركت عليه آثار الذباب بقعاً سوداء أشبه ما تكون بآثار الجدرى في الوجه السمح . . كما شاهدت هذه الصورة البغيضة للفقر بشكل أوضح في الطاولة الصغيرة التي كانت بجانب الكنية . والتي رأيت فوقها بقايا طعام متواضع جداً . . نصف رغيف جاف يعبث صرصار في قلبه وطبق صغير به بعض حبات سوداء صغيرة الحجم من الزيتون . . وبجانب الطبق ورقة صغيرة ملفوفة على بقايا من قطع الجبن الرومي التي سال زيتها حتى تلوثت به الورقة بحيث أغرى بها صرصاراً آخر راح يلف ويدور حولها .

رأيت هذا كله وشعرت بشيء من الألم كما لو كنت أنا الذي يعيش في هذا الشقاء . . غير أنني بجانب هذا الألم أحسست بشيء من الاعتبار أيضاً . . لأنني تذكرت هواجسى السوداء التي عشت فيها بعد أن رأيت ذلك الشاب الأنيق في شرفة البيت الذي كانت تقطنه الفتاة سابقاً وكنت أظنه يقيم معها . . والأحزان التي عشت فيها عندما ظننت هذا الظن الأسود . . والتبعة الجسيمة التي ألقيتها على نفسي لأنني تكاسلت في البحث عن الفتاة وتركتها حتى أرغمها الفقر على أن تتردى في الهاوية ، ولعل هذا بالذات هو الذي جعلني الآن أشعر بهذا الاعتبار الزائد . . لأنني استطعت أن أعثر عليها في الوقت المناسب . . وأن أمد لها يدي في اللحظة الحرجة . . وبدأت — وأنا جالس في مكاني — أفكر في هذه اليد التي سأمدّها لها . .

لكن قطع على تفكيرى أن الفتاة كانت قد فرغت من ارتداء ملابسها وأقبلت تقطع البهو فى روب غامق اللون سميك النسج من الصوف الخشن أغرقت جسمها كله فيه . . وحجبته خلفه كما تحجب السحائب السوداء وجه القمر وتغطيه وتحجب نوره عن العين . . وكأنها أدركت بفطنتها بكل ما كنت أفكر فيه قبل مجيئها لأنها قالت وهى تجلس قبالى فوق مقعد صغير كانت قد أتت به معها من الغرفة التى كانت تستبدل فيها ملابسها :

— معذرة . . فأنا ما زلت حديثة العهد بالسكنى هنا . . ولذلك فالبيت لا يزال كما ترى .

— إنه سكن جميل على أى حال .

وحانت منها نظرة عابرة . . فرأت الطاولة التى كانت يجانبي . . والصرصار الذى فوقها يروح ويحيى حول ورقة الخبز . . كما يروح ويحيى العابد حول المحراب . . فنهضت سريعاً ونحت الطاولة بعيداً ثم عادت إلى مقعدها وقالت فى شيء من الخجل وهى تحاول أن تبعد أشياء معينة بالذات حتى لا نتحدث عنها :

— أصنع لك فنجاناً من القهوة ؟

— أشكرك .

فنهضت ثانية وقدمت لى سيجارة . . فتقبلتها منها وقلت وأنا أتناولها وأشعل لها سيجارتها :

— أما زلت تدنين كثيراً ؟

— كثيراً جداً . .

— ولكن هذا يضر بصحتك .

— ومنذ أيام أصبت بنزلة شعبية حادة . . ألزمتني الفراش طويلاً . .

فأحسست على الفور بما يشبه وخز الإبرة في قلبي لمجرد علمي أنها

كانت مريضة . . وقلت :

— لقد سألت عنك . . في المرقص الذي كنت تعملين به . .

— وماذا قالوا لك ؟

— إنك تركت العمل هناك . .

— شكراً لهم على أى حال .

ثم استطردت وهي تبسم في مرارة :

— الحقيقة أنهم طردوني .

فتجاهلت كل شيء وقلت :

— طردوك ؟

— نعم . .

— لماذا ؟

فازدادت الابتسامة الشاحبة التي كانت لا تزال مترسمة على شفتيها

مرارة وقالت :

— لأنني مجرمة وقاتلة وخريجة سجون . .

فأحسست بأن هذه الطعنات كأنها موجهة لى شخصيًّا . . فقلت :

— كيف يقولون هذا ؟

— أليست حقيقة ؟

— الحقيقة أنه ثبت براءتك بدليل الإفراج عنك . .

فانخفض صوتها وهى تقول :

— الناس لها الظاهر . . وليس هناك جناح على ما يقولون .

وأردت أن أغير هذا الحديث الذى أدركت أنه يثُلها كثيرًا . . فقلت :

— وماذا فعلت بعد أن تركت العمل ؟

— قعدت فى البيت طبعاً .

— ومن أين كنت تنفقين ؟

— الله يعلم .

ثم اخنتق صوتها وهى تستطرد :

— ما زال فى الدنيا بعض الخير . . وقد بعث الله لى بذلك الرجل

الطيب . .

وأرادت أن تنطق اسمه . . ولكن الدموع غلبتها . . فتركها لحالها . .

ملا هدأت قالت من تلقاء نفسها وهى ما زالت تبكى :

— لقد بعث الله بهذا الرجل . . عى خير . . فكان لى أكثر من أب .

وكننت قد نسيت هذا الاسم برغم أنى سمعته مرة . . ولكن أين . .

لا أدرى . . ولذلك سألت :

- من عم خير ؟
— بواب العمارة التي كنت أقطن بها . .
فأغمضت عيني كما لو كنت لا أريد أن أرى سكيناً تغوص في
صدرى . . وقلت وأنا مغمض العينين :
— لقد أعطيتك رقم تليفوني . . فلماذا لم تتصل بي ؟ !
ولما خفضت وجهها إلى الأرض . . وأغلقت عينيها الواسعتين على
الدموع الكثيرة التي فيها ولم تجب . . قلت :
— هل ضاع منك الرقم ؟
— إنه الشيء الوحيد الذي أحمله في صدرى دائماً .
وبرغم سوء الحال الذي أنا فيه . . والسكين التي تغوص في صدرى
وأستشعر آلامها الزائدة . . قلت كطفل داهمته فرحة زائدة :
— أشكر لك هذا الشعور . . وسوف أحفظ لك ما حييت هذا
الجميل . .
— أى جميل ؟
— أنك تحتفظين برقم تليفوني . .
— إننى فى الحقيقة إنما أحتفظ بجميلك الذى أسديته لى . .
— إنك أخت . .
فانخفض صوتها حتى كدت لا أسمعها وهى تقول وكأنها تخاطب
نفسها :

— أخت ؟ هذه أول مرة أسمع فيها هذه الكلمة من إنسان .
ومرت بعد ذلك فترة صمت كانت من أتمن الفترات التي مرت بي
في حياتي . . ولذلك وددت أن تطول . . لولا أن لساني تعجل سؤالها . .
فقطعت هذا الصمت الجميل الذي لا يتوفر كثيراً في حياة كل إنسان . .
وقلت :

— إذن . . لماذا لم تتصلي بي ؟

— خشيت أن أثقل عليك . .

— تثقلين عليّ أنا ؟

قلتها في دهشة أثارت انتباهها لأنها رفعت عينها إليّ . . ولكنها عادت
فخفضتهما ثانية وقالت وكأنها تصر على شيء :

— نعم خشيت ذلك . . .

— ما هو بالذات الشيء الذي خشيته ؟

— أشياء كثيرة . .

— مثل ؟

ولما لم تجب . . وتذرعت بالصمت . . ظننتها تقصد الحرج من المال
ومد يد المساعدة إليها . . ولذلك قلت :

— وكيف تثقلين عليّ في أي طلب تطلبينه . . إنك بالنسبة لي شيء

هام . . شيء كبير . . وأظنك قد أدركت هذا . .

فقالت وهي لا تزال تلقي بنظراتها إلى الأرض :

—ولأننى أدركت هذا . . خشيت أن أتصل بك . .

—خشيت ماذا ؟

قلتها فى حدة . . وكأننى أنهرها على عمل مشين ارتكبته . . فقالت

وهى تنظر إلى هذه المرة :

—لم يكن ما ظننت أنت هو الذى خشيته أنا . . فأنت أكرم أخلاقاً

من أن يظن فىك هذا الظن . . وقد وضح كرم هذه الأخلاق عملياً

عند تطوعك بالاتفاق على وأنا فى السجن . . ووضح أكثر من ذلك عندما

تكرمت وأعطيتنى رقم تليفونك . . ومن غير شك أعطيتنيه لهذا السبب . .

وليس لسواه . . أنا أعرف ذلك جيداً . . ولكن الذى خشيته حقيقة . .

وما زلت أخشاه . . وسأظل أخشاه . . هو أنى أخاف عليك .

—تخافين علىّ أنا ؟

—نعم . .

—مم ؟

فانخفض صوتها كثيراً جداً وهى تقول :

—أرجو أن لا تنسى أننى راقصة . .

—وماذا فى ذلك من خوف ؟

—كلام الناس .

—وهل هم يعرفون عنك مثل الذى عرفته أنا ؟

—الناس دائماً لها الظاهر . .

- وما شأننا بهم ؟
- أنسيت أنهم يكونون المجتمع الذى نعيش فيه . . وأنت واحد من هذا المجتمع . . وأنا واحدة فيه . . وأنت شريف ينظرون إليك بعين الاعتبار والتقدير . . وأنا راقصة ينظرون إلىّ بعين السخرية والتحقير ؟ . .
- وهل أنت كذلك ؟
- فصمتت حيناً . . ثم قالت ؟
- ألسنت راقصة ؟
- فنطقت فى دهشة بالغة . . وبصوت مرتفع وكأننى أصرخ :
- ماذا تقولين ؟
- هل تريدنى أن أكذب عليك ؟
- أنت محتقرة وموضع سخرة من الناس ؟
- نعم أنا كذلك ؟ . .
- كيف تقولين هذا ؟
- قلت لك إننى راقصة ؟
- الرقص مهنة . .
- والبغاء أيضاً مهنة . .
- قالت ذلك وهى تزم شفيتها فى مرارة . . فقلت :
- كيف تقولين هذا القول ؟
- لا أدرى لماذا . . إذا كذبت على الناس جميعاً . . فأنا لا أستطيع

أن أكذب عليك . .

— وأنا كذلك . .

— إذن . . لماذا تغالط نفسك ؟

— أنا لا أغالط نفسي أبداً . . وإنما أتكلم عنك أنت . . وأتكلم

عنك في صدق . .

فاعتدلت في جلستها وتحدثت في روية وهدوء حديث الواصل تماماً :

— أنا لا أتحدث الآن عنى « أنا » وإنما أحدثك عن نفسى . .

أحدثك عن مهنتى كراقصة . .

— الرقص فن . . وفن معترف به . .

— اعترفنا به فقط . . ونبيحه . . تماماً كما اعترفنا بالبغاء . . وقلنا

عنه إنه يدفع عن المشتغلين به غائلة الفقر .

فأحسست بغيظ شديد لهذه التهمة الظالمة التى تريد أن تلصقها

بنفسها . . وقلت محتمداً :

— كيف تقولين هذا . . وتقرنين السيء بالحسن . . دون مبالاة

بهذا الفرق الكبير بين الاثنين ؟

فقالت فى نفس الهدوء الذى تتحدث إلى به :

— هذا الفرق الذى تتحدث عنه — فى نظرك فقط — وفى نظر القانون

أيضاً . . ولكن لا وجود له أبداً فى نظر التى تحترفه . . أقصد فى نظر

الأخلاق . . إذا ما أردنا أن نتحدث عنها كأخلاق .. وإلا فقل لى

أنت . . ما الفرق بين التي تعرى جسمها في الظلام لقاء بضعة قروش . .
والتي تعريه علانية تحت الأضواء نظير بضعة قروش أيضاً ؟ . .
وكأنها لم تنتظر منى الجواب . . لأنها قالت مستطردة :

— قد تقول إن الفرق في الامتلاك ، وأقول أنا لك حتى هذا الفرق
أدنى إلى الاستهانة منه في النور إلى القذارة والاستهانة به في الظلام . .
ومع أنني لم أفهم هذا المعنى الأخير من قولها . . ومع أنني هممت
فعلاً أن أسألها تفسيراً . . إلا أنها قالت وهي تشير إلى بأصبعها ونبرات
صوتها تكاد تشتعل غلاً وغيظاً وربما ضغينة أيضاً :

— وأعتقد أنك أنت بالذات . . وأنت من خيرة المثقفين أول من
يؤمن بهذا . .

— أومن بماذا ؟

— بأن لا فرق عندك . . بين البغى والراقصة . .
فقلت مستنكراً في شدة :

— هذه مهمة ظالمة . . تلصقني بي . .

فقالت في هدوء وهي تنظر إلى الأرض هذه المرة :

— إذن لماذا طلبت توقيع الكشف الطبي علىّ لتأكد من صحة أقوالى
وتعرف أعذاراً أنا . . أم غير أعذار ؟ . .

وفجأة دارت بي الأرض وأدركت هي ذلك لأنها ابتعلت أنفاسها
سريعاً وقالت :

— معذرة . . إذا قلت هذا الآن . . ولم أقله لك في حينه . . وصدقني
أننى سررت كثيراً لأنك فعلت ما فعلت برغم ما فى هذا من استهانة بجرمة
فتاة . . لأنك لو لم تفعل لرميتك بالغباء . . وشبهتهك بالأبله الذى يصدق
أضحك الأ كاذب . .

— أرجوك ... إننى أتألم . .

ولما رأتنى أتألم حقيقة . . قالت وهى تشعل لى لفافة من علبها وتشعل
لها أخرى :

— أظنك الآن أدركت لماذا لم أتصل بك تليفونياً بالرغم من أننى أحفظ
برقم تليفونك إلى الآن . وبالرغم من أنه كما قلت لك أعز شىء احتفظت
به فى حياتى . .

— إننى أشكرك . . ولكن الذى أريد أن أعرفه . . طالما أن نظرتك
لمهنتك هى هذه النظرة ، فلماذا تشتغلين بها ؟

وكنتم أرى من وراء هذا السؤال إلى شىء . . فقالت :

— لأننى لا أريد أن أثقل على أحد . . كما أثقلت مثلاً على عم خير
بواب العمارة التى كنت أقطنها سابقاً . . بعد أن طردوني من عملى . .

— يخيل لى أنه رجل طيب فعلاً . .

— وددت لو عشت حياتى بجانب هذا الرجل الطيب العجوز . .

— ولماذا تركت السكنى فى عمارته ؟

— كان الإيجار غالباً وقد ظل هذا الرجل يسعدنى إلى أن أعجزته

- الظروف عن هذه المساعدة ففضلت هذا السكن لعدة أسباب . .
- أليست مصر الجديدة بعيدة وتكاليف مواصلاتها كثيرة ؟
- لم أعود أن أخرج من بيتي أبداً . . لا في الليل ولا في النهار . .
- إلا في أوقات عملي فقط . . وهذا السكن قريب من عملي الجديد الذي سألتحق به بعد يومين .
- أى عمل ؟
- فقالت وهي تبسم ابتسامة شاحبة ؟
- راقصة طبعاً .
- فى أى ملهى ؟
- عم خير له شقيقة تعمل خادمة فى منزل مدير ملهى حلمية بالاس . . وقد توسطت لى فى العمل هناك برغم تفاهة الأجر . .
- كم مستقاضين هناك ؟
- خمسة عشر جنياً . .
- فقط ؟
- فقط .
- ولماذا قبلت هذا الأجر التافه ؟
- تعبت من التعتل . .
- فصمت حتى أعالج بعض آلامى . . وقلت وأنا أنظر إليها وأر:
- أن أبكى :

— منذ متى وأنت بلا عمل ؟

— منذ اليوم الذى خرجت فيه من السجن .

— كل هذه المدة ؟

— نعم . .

— ومن أين كنت تعيشين ؟

فقلت ضاحكة وهى تنهض لتصنع لى فنجاناً من القهوة بعد هذا

الحديث الطويل :

— كان عم خير يردد دائماً مثلاًظريفاً جداً . . وكنت أردده دائماً

معه « الحر بيت على الطوى . . ويصبح يلاطمثنان شعبان » .

— أنت ملاك أيتها الفتاة . .

قلتها لنفسى بعد أن انصرفت لتصنع لى القهوة . . غير أنها لم تكذ

تنصرف حتى عادت ثانية وطلبت منى علبة الثقاب لتشعل الوايور . .

فطلبت منها فى إخلاص وصدق ورجاء أيضاً أن تأذن لى فى مساعدتها

فى صنع القهوة . . وذهبت معها إلى المطبخ . . ورأيتها وهى تشعل الوايور

فى ابتهاج شديد . . ورأيت ناره وهى تنعكس على وجهها وتسير قسماته

التي تغيرت فجأة . . من حزن إلى فرحة غامرة زادت بهاء . . وأضفت على

سماته إشراقة من نور إلهى يسر العين أن تتطلع إليه . . فلم أملك نفسى

من الفرحة وقلت لها :

— أراك الآن سعيدة . . فلماذا ؟

— لأننى أصنع لك بيدى فنجاناً من القهوة . .

— زينات . .

نطقت هذا الاسم دون وعى ، ثم تداركت نفسى سريعاً ، حتى لا أنهار وتنهار قواى أمام هذا الجمال الإلهى . . أمام هذه النفس الصافية التى تشبه تماماً هذه الإشعاعات من النور التى تنبثق من قسبات وجهها . . والتى تتدفق نوراً باهراً يشع من عينيها الواسعتين الجميلتين ، فلأقلى قلبى نوراً ، وصفاء ، وبهجة .. خشيت وأنا أنظر إلى هذا كله أن أخرج راکعاً عند قدميها . . أن أسجد للأرض التى تقف عليها . . ولذلك أمسكت عن القول . . وزمت شفتى . . فلم أنطق بعد (زينات) بحرف . . وكأنها أدركت شيئاً . . أدركت على الأقل أننى كنت أريد أن أقول شيئاً ثم أمسكت عن القول . . فقالت وهى تبتسم وتنظر لى نظرة حنان لم أعودها من أحد :

— كنت تريد أن تقول شيئاً ؟ . . .

— وإذا قلت . . فهل تصدقينى ؟

— ثق أننى لو لم أصدق كل كلمة . . تصدر منك . . لما سمحت

لقدمك أن تخطو خطوة واحدة فى بيتى . .

— إذن أنت تثقين فى . .

— كما أثق فى نفسى تماماً . .

— وإننى بالنسبة إليك شىء هام . . كما أنك بالنسبة إلى شىء

هام جلدًا . . وكبير جدًّا . .

فارتعشت يدها . . وهي تحمل صينية القهوة . . وتخرج من المطبخ . .
وقالت ويدها ما زالت ترتعش :

— أنا لا أدري أقلت لك أم لا . . لأنني منذ أن رأيتك برغم الظروف
القاسية التي رأيتك فيها وبرغم الظروف الأشد قسوة التي تكشف عنها
التحقيق . . والتي عرفت منها من أنا . . وكيف ولدت . . ومن هي أمي . .
وكيف ماتت . . والهزة العنيفة التي هزت كياني . . وكادت تودي بي . .
برغم كل هذا . . أحسست بوجودي في الدنيا لوجودك أنت فيها . . فإن
كنت قد قلت لك هذا فأرجو أن تصدقه . . وإن كنت لم أقله . . فلأن
إحساسي يستشعر أنك تعرفه تمامًا . . ولست في حاجة إلى أن تعرفه مني . .

* * *

وكنا قد وصلنا ومعنا صينية القهوة إلى البهو . . والكنبة التي كنت
أجلس إليها . . فلم أجعلها تجلس على المقعد الذي كان أمامي . . وإنما
أجلستها بجانبني . . ومن ثم رحت . . وفي طفولة بريئة . . وفي قلب لا ينبض
إلا صدقًا . . وفي أحاسيس ومشاعر لا تنطق عن الهوى . . رحت أقص
عليها كل شيء وأحدثها عن كل شيء . . وأروي لها في إخلاص الكثير
من الرغبات . . وأحسست وأنا أتحدث في انطلاق السيل . . والكلمات
تزدحم على شفتي وتندفع كال موج . . أحسست كقاص . . أن الخطب
والعبارات الرنانة والأحاديث والجمل الطنانة : . كل ذلك لا قيمة له

181



ولا نتيجة فيه . . طالما أنه لم يقم على دليل . . لذلك رحت أقيم الدليل تلو الدليل . . وأذكر لها كل دقائق الماضي . . وما حدث فيه . . منذ اللحظة التي ودعتها عيني فيها آخر مرة . . قصصت عليها الجهد الكبير الذي بذلته عندما ذهبت لأول مرة في حياتي إلى « الصلاة » وما قمت به من حيل في سبيل أن أعرف شيئاً عنها والليلة التي قضيتها مع آلام الدنيا التي تجمعت في مرقدي وأنا أهتف بالغمض لعلني أجده فيه درعاً تقيني من الألم بعد أن عرفت بأنها طردت من عملها . . وبسبب هذه القضية بالذات . . ثم محاولاتي بعد ذلك التي بذلتها في سبيل رؤيتها والاتصال بها . . وما جرى لي في مطعم السمك والنزلات المعوية التي أصبت بها . . وتلك الابتسامة التي كانت لا تفارق ثغر ذلك الصبي الصغير . . والتي كانت تخفف عني كثيراً . . والتي كنت أعقد عليها الكثير من الآمال . . ثم تلك الليلة أو الليالي التي قضيتها . . ولا يعلم غير الله كيف قضيتها . . بعد أن وقعت عيني على ذلك الشاب الوسيم الأنيق الذي رأيته في شرفة البيت وكنت أظن أنها لا تزال تقطن فيه . . وذلك الحبيب العسير الذي حاسبته لنفسى والتبعات الجسيمة التي ألقيتها عليها والتقصير الذي اتهمتها به والعذاب الذي عشت فيه طوال تلك الأيام والليالي والذي كنت سأعيش فيه ما حييت لولا أنني اهتديت إلى الحقيقة في آخر لحظة . . واهتديت إليها على يد ذلك الصبي الصغير الذي أدين له بالفضل . . كل الفضل ما حييت . .

قصصت عليها كل هذا . . وهي صامتة لم تنبس . . حتى إذا أنهيت حديثي هذا الطويل المدعم بالأدلة والأسانيد . . فتحت عينيها الكبيرتين . وشالت بهديها الطويلين إلى أعلى . . ونظرت إلى . . وقالت هذه الكلمة التي ما زال رنينها العذب . . ونبراتهما الحنون . . منطبعة في القلب :

— فعلت هذا كله من أجلى ؟ !

— إنك أكثر من أخت . .

— قل هذه الكلمة مرة أخرى . .

ولما قلتها سريعاً مرة أخرى . . استلقت على صدرى فجأة . . كطفلة تلوذ بصدر حنون . . وألقت برأسها الصغير الجميل على كتفى ومن ثم راحت تبكى . . ونجهش في البكاء . . ومع أننى لا أذكر أننى بكيت في حياتى أبداً . . إلا أننى كنت في أكثر الأخايين أستشعر رغبة زائدة في البكاء . . وأحس أننى إن بكيت . . فسوف تخفف غنى الدموع الكثير من الآلام . . بل سيوف ثقل أحزاني جميعاً . . لذلك لم أشأ أن أسكتها . . وإنما تركتها تبكى . . وتنزف الكثير من الدموع دون أن أقول لها شيئاً أو حتى أنبس . . إلى أن هدأت . . فجففت لها دموعها بيدي . . ولم أفعل ذلك فقط . . وإنما أدخلتها الحمام وغسلت لها وجهها بيدي . . ولما أعدتها إلى مكانها . . وأجلستها على الكنبه . . كنت قد لاحظت وأنا أمر على باب غرفة نومها . . أن زجاجة صغيرة من الكولونيا موضوعة على الكومودينو بجانب السرير . . فذهبت أحضرها لها . . وكانت أول مرة

أدخل فيها مخدعها . . وبرغم الأشياء الكثيرة التي كانت تلفت النظر في هذا المخدع المتواضع جداً . . والتي تم في مجموعها عن فقر وفاقه . . إلا أنني استشعرت هدوءاً وطمأنينة ورائحة زكية أشبه ما تكون براائحة الطهر تماماً ، تملأ نفسي أمناً . . كذلك الذي نستشعره ونحن . . نخفض الجباه . . في مكان له قدسيته . . كما لفت نظري شيء وقفت عنده عيني حيناً . . ورحت وأنا في مكاني أتأمله في شيء من الرهبة وأنظر إليه وهو تحت الوسادة وأتذكر ما قالته في التحقيق المهمة الثانية نظيرة أحمد البسيوني من أن الفتاة تحرص دائماً على أن تضع مصحفاً كريماً تحت وسادتها لتستأنس به في وحشتها . . ويكون لها هدياً في هذه الظلمة التي تعيش فيها . . وطالت وقفتي أمام لقاء المخدع الطاهر بالمصحف الشريف وأخيراً انتهت إلى زجاجة الكولونيا التي كانت أمامي على الكومودينو فتناولتها وانصرفت . . ولكن بعد أن فعلت شيئاً . . إذ دسست يدي تحت الوسادة ووضعت بجانب المصحف مباشرة كل ما كان فيها . . ولا أدري إلى اليوم ما هو الذي كان فيها على وجه التحديد . . وهل كان الذي فيها ورقة " فقة من فئة الخمسة جنيهات . . أو فئة العشرة أو هي تزيد على ذلك . . وتصل قيمتها إلى شيء كبير . . وهل كانت ورقة واحدة أو أكثر . كل هذا إلى اليوم لا أدري عنه شيئاً . . وكل الذي أذكره تماماً أن كل شيء في كان يرتعش . . وأنا أفعل خشية أن تراني . . ولما تأكدت أنني فعلت ما فعلت وأنا في مأمن من أي عين

خرجت من الغرفة مبتهجاً جداً . . ومن ثم جلست بجانبها . . وكانت فعلاً قد هدأت كثيراً . . دون حاجة إلى ماء الكولونيا . . وقد أطربني ذلك . . وما قمت به في الخفاء من واجب . . لدرجة أنني ضحككت . . وظللت بها حتى ضحككت . . وعادت إلى وجهها لإشراقته وإشعاعات النور التي تنبثق من قسماته . . وظللنا كذلك إلى وقت بعيد من الليل . . إلى أن أحسست أنني جائع . . أو بمعنى أصح أنا الذي تعتمد هذا الإحساس . . وكاد يزعمها أنه لا يوجد في البيت ما يؤكل في هذا الوقت . . وفكرت في أن تستدعي البواب ليأتي لنا بطعام من الخارج . . ولكنني طلبت منها أن أقوم أنا بهذه المهمة . . وأشهد بأنها لم تقبل إلا بعد جهد . . وما زلت أذكر برغم مضي هذا الزمن الفرحة التي أحس أنني أعيشها الآن وأنا أكتبها . . والتي كانت تغمرني وتفيض عليّ وأنا أقف وسط أول حانوت بقالة التقيت به في هذا الوقت المتأخر من الليل في تلك الضاحية النائية وأطلب ما أريد . . وكلما طلبت شيئاً غمرني فرحة جديدة وكلما رأيت حقيبة الورق التي أمامي تمتلئ ، امتلأت فرحتي وطلبت مزيداً حتى وددت أن أنقل كل ما في ذلك الحانوت الكبير إلى بيتها مرة واحدة ، وشعرت بهذه الفرحة تتزايد وأنا أسير في الليل على قدمي حاملاً بين ذراعي هذه الحاجيات وكأنني أحمل سعادة الدنيا جميعاً . . ولما دخلت عليها محملاً بكل هذه المؤن وكل هذه المواد الغذائية المحفوظة وغير المحفوظة التي تفيض عن حاجة أسرة كاملة لشهر أو يزيد . . فغرت فاها في دهشة

زائدة ، ورميتى بالجنون ، واتهمتى بالتبذير وبأننى لا أصلح لكى أكون رب أسرة أبداً ، وبأنه لو قدر لى أن أتزوج . . كان أول قرار يجب أن تتخذه زوجتى صباح الزواج مباشرة هو الحجر على . . ولا أدري لماذا أحسست فى قرارة نفسى بارتياح لهذا القول لدرجة أننا كررناه ثانية ونحن على المائدة نتناول طعامنا ونضحك ونحدث فى كل شىء . . ونضحك كثيراً . . ولم نمسك عن الضحك إلا عندما تناول حديثنا موضوع القضية مرة أخرى وتحدثنا فيها طويلاً هذه المرة . . ورحنا نستعرض ظروفها القاسية مرة ثانية . . وكيف أن دم القتيلة ذهب هدراً بعد أن أغلقت جميع الأبواب والنوافذ بعد مقتل دسوق الذى كان الوحيد الذى يمسك بالحيوط كلها فى يده ، ولم أشأ أن أقص عليها ثانية تكييفى المنطقى للجريمة وأقول لها إن الذى قتل أملك هو دسوق بعد أن تأكد أنها أصبحت عشيقة لغيره . . لم أشأ أن أقول لها ذلك حتى لا أزيدها ألماً ولا سباً بعد أن عرفت منها أنها منذ أن انتهى التحقيق وعرفت ما عرفت وخرجت من السجن ، وهى حريصة على أن تذهب فى صباح كل يوم جمعة إلى قبر المحبى عليها وتقرأ عليها الفاتحة وترحم عليها مبتهلة إلى الله أن يغفر لها ذنوبها وأن يجعل اللجنة مثواها . .

لماذا لم يتركز حديثنا على المحبى عليها ، ولا على دسوق أيضاً ، بقدر ما ركنزناه على هذا الرجل الذى شاهدته يخرج من مخدع القتيلة قبل الحادث بعشرين يوماً كما قالت فى التحقيق . . هذا الرجل الذى ما زالت شخصيته

مجهولة ، وأغلب الظن أنها ستظل إلى الأبد مجهولة لأنها هي نفسها لم تتأكد من رؤيته كل التأكد . . مع أنه لو اكتشفت شخصيته لتغير وجه القضية على الفور وأمكن معرفة كل الحقائق التي لا يعرفها سوى هذا الرجل المجهول .

كان هذا تقريباً هو محور حديثنا في تلك الليلة التي سعدت بها سعادة لا تقدر لدرجة أنني لما انصرفت من بيتها على أن نلتقي في الليلة التالية ، كانت غاية الأمانى عندى أن أغمض عيني وأفتحها على هذه الليلة الثانية التي سأراها فيها ، وأنس إليها كما رأيتها وأنست إليها في هذه الليلة . غير أن الأمانى جميعاً حتى التي نشقى منها ليس من السهل تحقيقها ، وإن هي تحققت فدون ذلك العذاب ، والدليل أنني بعد أن خرجت من عند زينات في تلك الليلة لم يتغير شيء ، فقد ظل الليل يسير في بطء كعادته من ملايين السنين ، والقمر في السماء يسير إلى مستقر له كعادته أيضاً لم يتغير فيه شيء ، وحتى الشمس عند مجاء الصباح طلعت كعادتها من الأفق ، وظلت تسير في بطء وتكاسل ممل طوال اليوم كله ، لم يتغير حتى لون إشعاعها ، وكذلك عقارب الساعة لم يتغير شيء فيها هي الأخرى ، منذ أن وجدت من مئات السنين ، بل أغلب الظن أنها قد تغير فيها شيء لم أفطن إليه إلا هذا اليوم ، فقد بدأت تواصل سيرها في ملل وضيق وجبن . . وفي خوف كذلك . . فقد كانت دقائقها مضطربة أشبه ما تكون تماماً بضربات قلب الخائف الرجل .

مرت الساعات التي كانت باقية على لقائنا الثاني وكلها ملل وضيق . .
ولما جاء الموعد سبقتني الفرحة إلى هناك . . وقد بلغ من فرط إحساسي
بذلك أنني شعرت وأنا في الطريق إليها بشيء من الغيرة حيال هذه الفرحة
التي سبقتني إلى هناك . إذ كيف يسبقني إليها شيء ، حتى لو كان
هذا الشيء هو فرحتي باللقاء .

ولما ذهبت إليها في الموعد المتفق عليه ، وكانت الساعة الثامنة والنصف ،
أطربني أنني وجدت عندي من الشجاعة والجرأة ما جعلني أوقف
سيارتي أمام منزلها مباشرة ، ولم أبحث عن مكان خفي أوقفها فيه ، كما
حدث مثلاً في الليلة الماضية ، وكذلك وجدت عندي من الجرأة والشجاعة
ما جعلني أهبط من السيارة علانية وأدخل البيت وأصعد ذلك السلم الموصل
إلى باب مسكنها دون حرج أو خوف من أن يراني أحد . . . غير أنني
عندما طرقت الباب فوجئت بشيء غريب لم أصدقه في أول الأمر . .
ولكنني تأكدت منه أخيراً . . وهو أنها ليست في البيت تنتظرني كما كنت
أتوقع . . . وإنما وجدت البيت مظلماً . . بل مغرقاً في الظلمة والصمت . .
فاندعشت . إذ أنها لم تعود الخروج من البيت كما قالت لي . . ولم يحن

بعد موعد ذهابها إلى الملهى الذى ستعمل فيه ابتداء من الليلة . . فقد أخبرتنى أنها لن تذهب إلى هناك الا عند الحادية عشرة ، وهو الموعد الذى ستقوم فيه برقصها كل ليلة . . وقلت إنه لا بد أن يكون قد طرأ طارئ استدعى خروجها الآن ، وتمنيت مخلصاً أن يكون خيراً ورحت أنتظر . . وانتظرت طويلاً جداً حتى تعبت قدماي من كثرة الذهاب والإياب أمام المنزل فى انتظار عودتها كما تعبت أيضاً من طول جلستى فى داخل السيارة أنظر إلى كل غاد ورائح . . ومكثت كذلك حتى اقتربت الساعة من الحادية عشرة وقطعت الأمل من مجيئها . . وكان لابد لى أن أراها على أى وضع لكى أطمئن عليها ، ولذلك لم أجد بداً من الذهاب إلى الملهى . . وكانت هذه أول مرة أذهب إلى هذا الملهى الليلي ، وابتعت تذكرة ووقفت فى وسط هذا المكان الجميل الهادئ أنظلع إلى مائدة بعيدة عن الرواد ، أجلس إليها . . إذ شعرت بخرج إذا أنا جلست بينهم . . فقد لاحظت أن كل رجل يجلس معه سيدة قد تكون زوجته وقد تكون غير ذلك ، ولكنها سيدة على أى حال . . ولم أرواحداً يجلس بمفرده حتى الذين جاءوا دون أن يصطحبوا نساء معهم . . إنما فعلوا ذلك لغرض ، وهو صلتهم ببعض الفتيات اللواتى يعمان فى الملهى واللواتى يجلسن معهم علانية على الموائد أمام الجميع ، وغير ذلك فلم أر مائدة واحدة خالية من الخمر وأنا لا أشرب الخمر أبداً ، فكيف أجلس فى وسطهم بلا خمر وبلا نساء . . لهذا كله بحثت عن مائدة بعيدة عن

الناس جميعاً ، وجلست إليها . . ومن ثم رحت أنظر من بعيد إلى هذا الخليط الغريب من الناس ، وإلى هذه الأماكن بالذات . . التي تظهر فيها أخلاق الناس على حقيقتها . . وإلى هذا التنافر العجيب وهذا التناقض الذى لا تجده إلا فى هذه الأماكن ، أو هذه الأوضاع التى لا تقبلها كرجل شريف إلا فى هذه الأماكن فقط . . وتعجبت لماذا نحن نقبلها وفى هذه الأماكن بالذات . . ورحت أتأمل هذه المائدة التى يجلس إليها زوج وزوجته ، وتلك التى تجاورها تماماً ويجلس إليها عشيق وعشيقتة ، وكيف أنك تستطيع بسهولة أن تتبين هذا من ذاك وأن مجرد نظرة عابرة إلى هذا الرجل المتزمت الذى يصطنع الوقار اصطناعاً والذى يضع نصف تقطيعه دائماً فوق جبينه ، تستطيع أن تعرف أنه زوج ، ونظرة إلى ذاك الذى يضحك ويهرج ويتحدث بهذا الصوت الصاخب وهذا الانطلاق بلا تحفظ تستطيع أن تعرف أنه عشيق .

وكذلك النساء فأنت من السهل عليك جداً فى هذه الأماكن بالذات أن تتعرف بمجرد النظرة الخاطفة إلى شخصية كل واحدة منهن . . فهذه التى تجلس مرتدية كل هذه الثياب من الوقار والحشمة والتزمت الذى تعرف كيف تصنع منه فى لحظة واحدة عدة ألوان . . والتى تجلس وكل آمالها أن تتسع المائدة حتى تبتعد أكثر وأكثر عن الرجل الذى تجلس معه . . هذه هى زوجة من غير شك . . أما تلك التى على نقيضها تماماً والتى تغافل حتى نفسها وتقرب مقعدها من حين إلى حين إلى مقعد الرجل

الذى معها حتى تكاد تلتصق به من غير أن تدري . . فهذه عشيقته من غير شك . . ورحت أتعجب من هذه الأوضاع التى كان يجب أن تكون على العكس تماماً . . وأتأمل حياتنا الغريبة التى نعيشها والتى نرتدى فيها دائماً ثوب النفاق . . دون أن يرغمنا على ذلك أحد . . كأن النفاق فريضة فرضتها علينا الأديان التى نعتنقها . . أو كأن الصراحة التى يجب أن نجابه بها أنفسنا جريمة نعاقب عليها ؟

وكدت أغيب فى دوامة هذا التأمل . . لولا أن أقبل الجرسون وانحنى أمامى تلك الانحناء التى يرسم الاحترام الكبير فوق ظاهرها فقط . . ونجملت أن أطلب منه قهوة أو شاياً أو كوباً من المثلجات . . ومع أن هذه الأشياء موجودة فعلاً فى هذه الأماكن وموجودة ليطلبها الناس إذا أرادوا . . ولكن طلبها يجعلك دائماً موضع سخرية . . لماذا ؟ لا أدري . . ولذلك نجملت فعلاً أن أطلب شيئاً من هذا . . وطلبت زجاجة من البيرة . . ولا جاء بها . . ووضعها أمامى على المائدة . . رحت أحسبها على مضض . . وظللت كذلك أشاهد بعض الألعاب والنمر التى كان يعرضها هذا الملهى على رواده . . إلى أن انطفأت أضواء المسرح فجأة فانطفأ معها شيء كان فى وجهى . . ما هو . . ؟ لا أعرف . . لماذا انطفأ . . ؟ ! لا أدري . . ولكن الذى حدث أننى شعرت بانقباض شديد . . وأنا أرى تلك الفرقة الموسيقية تخرج إلى المسرح وتعزف لحناً راقصاً . . وفجأة تعالى تصنيف يكاد يصم الآذان . . وكان له وقع الصواعق

فى أذنى .. ثم خرجت على إثره زينات تكاد تكون عارية تماماً إلا من بعض قطاعات محددة من جسمها، وحتى هذه القطاعات أيضاً كادت تبدو عارية لولا بعض الأشرطة الحمراء والصفراء التى انعقد بعضها فوق أسفل البطن .. وتدل بعض الأشرطة وتناثر فوق الوركين ومؤخرة الأرداف .. وما إن رأيت ذلك حتى أحسست بما يشبه النار فى عيني .. فأدريت وجهي حتى لا أرى هذا الجسد يتعري هكذا أمامى وأمام هذا الحشد الكبير .. وتذكرت حديث زينات لى ، عن الفرق بين البغى والراقصة ولست أدري لماذا أحسست أنها كانت على حق عندما عقدت هذه المقارنة وأن الفرق لا يكاد يذكر، أو هو يذكر فعلاً إذا ما تحدثنا عن الأخلاق .. — أى أخلاق — وقارنا بين التى تدفعها الحاجة إلى أن تتعري فى الظلام ولعين واحدة .. وهذه التى تتعري تحت الأضواء ولثلاث العيون .. ورحت أسأل نفسي ... ما هو الشرف .. وما هو مفهومه عند المرأتين .. وما هو الشرف فى مفهومه عند المجتمع ؟ ..

وظلت كذلك إلى أن دوى التصفيق فى أذنى مرة أخرى .. فاستدعيت الخادم وأنقذته ثمن زجاجة البيرة وأجزلت له بعد ذلك فى العطاء .. وأعطيته ورقة لزينات قلت لها فيها .. إننى فى الصالة وإننى أنتظرها ..

ومن ثم رحت أنتظر .. وانتظرت فعلاً ساعات طويلة .. ولما انصرف الناس جميعاً .. ولم يبق غيرى تقريباً .. نظرت فى ساعتي

فوجدتها الثالثة صباحاً . . اندهشت وسألت عنها أحد الخدم . . فقال
 ساخراً وهو ينظر لى فى كثير من الازدراء . . بأن الست زينات إنما
 انصرفت من ساعات طويلة . . أى عقب أن أنهت رقصتها مباشرة . .
 فازدادت دهشتى وانصرفت . . وذهبت إلى بيتها . . ولكنى عندما بلغت
 البيت انصرفت على الفور لأننى وجدت نفسى فى حاجة إلى جرأة أهل
 الأرض جميعاً . . وحتى لو ظفرت بها لما استطعت أن أدخل بيت راقصة
 فى هذا الوقت المتأخر من الليل . . وفى اليوم الثانى . . وجدت نفس
 الشئ . . ذهبت إليها فى البيت فلم أجدها . . ولم أشأ أن أذهب إليها
 فى الصالة ثانية . . فقد أحسست أنى لن أقدر على هذا مرة أخرى . .
 ومرة يوم آخر . . ولم أجدها أيضاً . . وهكذا مرت ثلاثة أيام لم أرها ولم
 تحاول هى أن تتصل بى مما زاد غاوى وجعلنى أترك عملى وأذهب إليها فى
 النهار ما دام قد تعذر على وجودها فى الليل .

لا حظت شيئاً غريباً عندما وصلت إلى البيت .. فما إن كادت أوقف سيارتي وأهبط منها وأصعد إلى باب المسكن حتى رأيت رجلاً عملاقاً - عرفت فيما بعد أنه البواب - يعترض سبيلي .. ويسألني في غلظة وخشونة عما أريد فارتبكت .. وشعرت بشيء كثير من الحرج .. إذا ماقلت له عما أريد .. وبشيء كثير من الحرج أيضاً إن لم أقل له شيئاً .. وماذا سأقول له إن أنا أنكرت عنه الحقيقة ؟ وكأن الرجل لاحظ على هذا الارتباك لأنه قال مستطرداً وقد ازدادت لهجته جفاء :

— إذا كنت تريد الست زينات .. فهي لا تريد أن تقابل أحداً ..

— هي التي قالت لك ذلك ؟ ..

— طبعاً ..

فلم أنطق .. ورحت أهبط الدرج ثانية .. وكان هو أيضاً يهبطه خلفي .. فقلت له ونحن عند الباب الخارجي :

— قد تكون الست زينات تعني أحداً آخر لا تريد مقابلته ؟

ثم استطردت وأنا أخرج ورقة من جيبى لأكتب عليها شيئاً :

— فهل لك أن تخبرها بوجودي .. وتعطيها هذه الورقة ..

فلم يشأ الرجل حتى أن يصغى إلى .. وإنما قال وهو ينصرف لينهى الحديث ..

— أنا لا أعرف أحداً آخر يتردد عليها ..

فوقفت خزيان .. إذ فهمت من حديث الرجل أننى المقصود بالذات .. وما يزيد هذا تأكيداً .. محاولة تهريبها منى فى الأيام الثلاثة الماضية .. وقد اندهشت دهشة كبيرة لهذا الانقلاب الغريب ، إذ مازلت أذكر اللحظة التى ودعتها فيها .. ونحن على أحسن حال ، وبعد أن تفاهمنا تفاهماً صريحاً وجميلاً .. وطيباً فى الوقت نفسه ..

ورحت أفكر فى شتى الأسباب البعيد منها والقريب والطيب منها وغير الطيب وحتى الخبيث الذى لا يتأتى إلا لذوى النفوس السيئة ومع ذلك لم أهتد إلى سبب واحد معقول أو حتى غير معقول يجعل زينات تفعل معى هذا الذى فعلته ولو كنت وجدت سبباً ، ولو كان تافهاً ، فربما كنت أرحت نفسى من هذا العناء ، وعملت أنا من جازبى على تلبية هذه الرغبة ، ولكننى لم أجده ولذلك كان على أن أراها وأن أراها بأى حال ، ومهما كلفنى ذلك من ثمن ولهذا قمت بعمل جريء لم يكن أمامى سواه وهو أن أنتظرها عند منتصف الليل أمام منزلها فهى كما قد عرفت تنهى دائماً من رقصتها فى الملهى حوالى الساعة الحادية عشرة والنصف وهى كما تعودت وعرفت أيضاً تنصرف عقب الانتهاء من عملها مباشرة وهى تنصرف دائماً إلى

بيتها . . وسواء أكان ذلك أم غيره فهي لا بد أن تذهب إلى البيت . .
ولإذن فخير السبل إلى أن أراها وأتحدث إليها وأعرف منها حقيقة هذا
التغير الغريب هو أن أنتظرها في هذا المكان بالذات .

* * *

ما كادت الساعة تقرب من منتصف الليل حتى كنت أجلس
داخل سيارتي أمام مدخل البيت مباشرة . . ومن ثم رحت أنتظر . . ولا
أدري هل انتظرت طويلاً أولاً . . ولا أدري حتى ما هي الأفكار التي
كانت تدور برأسي طوال ساعات هذا الانتظار . . وهل كانت من
السواد بحيث إنى كلما حاولت أن أبعدا اقتربت هي . . أو أنها كانت
من الأفكار المطمئنة التي تريح البال وتجعل الإنسان يتمسك بها ويدور
ويلف حولها كما تدور الفراشة حول مضباح من نور . . أو تلف النحلة
حول زهرة متضوعة العطر . . وإنما الذي أدريه تماماً هو أنني رأيتها بعد
منتصف الليل بعشر دقائق على وجه التحديد . . وهو القدر الذي قطعتة
في الطريق من الملهى إلى البيت بعد أن فرغت من عملها مباشرة . . رأيتها
مقبلة من بعيد في سيارة أجرة . . ولما وقفت بها السيارة بالقرب من البيت
وهمت بأن تغادرها كانت قد رأنتى ، فإذا بها ترتد سريعاً إلى داخل
السيارة وتختبئ في قلبها وهي تأمر السائق بأن ينطلق سريعاً وقد انطلق
بالسيارة وبها فعلاً . . فاندعشت . . اذ تأكدت من أشياء كثيرة . .
كنت أحاول أن لا أصدقها . . أو حتى أسمح لنفسى بالتفكير فيها . .

وما دامت قد حدثت .. وما دمت قد تأكدت منها .. فلا بد لي على الأقل
أن أعرف أسبابها .. ولذلك تصرفت تصرفاً لا يصدر عن عاقل أبداً ..
إذ كنت أشبه بصبي صغير حدث السن .. وأنا أطاردها بسيارتي
وأتعقبها في كل مكان تختفي سيارتها فيه .. ولما أدركت أن لا مفر لها
وأني سوف أتعقبها مهما حاولت الهرب مني .. أوقفت السيارة وهبطت
منها وصرفت السائق ثم جاءتني حانقة نائرة وقالت وكل شيء فيها يرتعش
من الغيظ :

— لماذا أنت تتعقبنني ؟ !

— ولماذا أنت تهربين مني ؟ !

— أرجوك .. ابتعد عن طريقي ..

فازدادت دهشة وقلت :

— هكذا دون ما سبب ؟ !

— أجل .. دون سبب .. دون سبب ..

فقلت وأنا أنظر إلى وجهها المحترق وعينيها المغروقتين بالدموع :

— لابد من سبب ..

— السبب هو أنت .. أنت ..

— أنا ؟ !

نطقها في ذهول لاحد له .. ثم أطبقت ولم أنبس .. ورأيت كل شيء
فيها يرتعش ويهتز .. ففتحت باب السيارة وأجلستها بجانبني ومن ثم قلت

لها وأنا أنظر إلى شيء في عينيها يحترق :

— أنا السبب ؟ !

فانفطرت الدموع من عينيها وقالت :

— أجل .. أنت السبب ..

فتوجست خيفة .. وظننت فعلا أنني إنما ارتكبت شيئاً أغضبها

وأغضبها إلى هذا الحد .. حد أنها تهرب مني .. وحد أنها تبكي بهذه

الحرقه .. ولهذا سألتها وأنا أضطرب كما لو كنت فعلا قد ارتكبت عملا

مشيناً :

— لماذا أنا السبب .. وماذا فعلت ؟ !

فلم تجب .. وصمتت بعض الوقت .. ولما جففت دموعها قالت

وكأنها مخاطب إنساناً لا تعرفه ولم تره من قبل :

— ماذا تريد مني ؟ !

وكنت أنتظر كل شيء إلا أن أسمع منها هذا القول الذي أخرجني

حرجاً شديداً .. وزادني حرجاً أنني لم أجده جواباً أرد عليها به .. ولذلك

صمت .. ومرت فترة صمت ثقيلة كدلت أرزح تحتها خجلاً ومع ذلك

استطعت أن أخرج من هذا الصمت وأن أتكلم .. وقلت لها :

— أنا أريد لك .. ولست أريد منك .

— تريد لي ماذا ؟ !

— الخير ..

- فقال في سخرية جارحة وهي تبسم في مرارة :
- حتى الذى يسرق .. يظن أحياناً أنه يفعل الخير ..
- وهل أنا لص ؟
- فقال في خشونة :
- إنك تريد أن تكون كذلك ..
- إنك تخرجينى بهذا القول ..
- بل أنت الذى تريد أن تخرجنى .. وكأن تلك الجراح التى تعرفها .. لم تؤثر فيك .. حتى تريد أن تخرجنى هذا الجرح الذى سيودى بحياتى ..
- فخرجت عن طورى حتى كدت أختنقها .. ولكن يدي تجمدت بجانبي .. وقلت :
- ما هذا القول الذى تقولينه ؟
- بل قل أنت .. ماذا تريد منى .. وماذا يريدك شاب فى مثل سنك من فتاة مثلى .. لماذا يريد أن يصادقها ، ويوطد علاقته بها ...
- ويتردد عليها فى بيتها .. ويلحقها فى كل مكان تذهب إليه ..
- فنظرت إليها لكي أتأكد من أن هذه هى زينبات التى كنت أتحدث إليها طيلة أمس الأول حتى الثالثة صباحاً .. ولما تأكدت من أنها هى فعلاً .. قلت وكأننى أهلى :
- ما الذى غيرك هذا التغيير المفاجئ ؟

- أرجوك .. إننى أسألك ماذا تريد منى ؟
— قلت لك لا شىء ..
— إذن .. لماذا لا تتركنى ؟
— لأننى لا أستطيع ..
— ولماذا لا تستطيع ؟
فازددت حرجاً .. وارتبكت ارتباكاً شديداً .. ولما لم أجب ..
قالت وكأنها تريد أن تصرخ :
— قل .. تكلم .. لماذا لا تستطيع ؟
— لأننى أحبك ..
نطقها سريعاً .. وبلا تريث .. وبلا وصى أيضاً .. فقالت وقد
هدأت على الفور وكأنها ما كانت تريد سوى أن تنتزع منى هذا
الاعتراف :
— هذا ما كنت أخشاه ..
— تخشين أنى أحبك ؟
— أجل ..
— ولماذا تخشين هذا ؟
فقالت .. وكأنها تنتزع القول انتزاعاً :
— أتريدنى أن أصدقك القول ؟
— من غير شك ..

- لأننى لا أحبك ..
- أنت تكذبين .. لأن ما لمستته منك حتى ليلة أمس الأول على الأقل يؤكد غير ذلك .. ثم إنه لا يمكن أن يكون هذا هو شعورى نحوك وأنت لا تبادلينى نفس الشعور ..
- جائز جداً ..
- .. لا ..
- أمن الحتم أن نتبادل الشعور ؟
- إن الزهور دائماً لا يصدر عنها غير العطر ..
- كثير من الزهور لا عطر لها ..
- ليست من فصيلة الزهور إن لم يصدر عنها العطر ..
- أليس من الجائز أن يكره الأخ أخاه ؟
- فى السراء فقط .. أما فى الضراء فهو شقيقه ابن أمه وأبيه ..
- فاخترنى صوتها كثيراً وهى تقول : ..
- وهذا هو الضر الذى أخشاه ..
- أى ضر ؟
- أن تحببى وأن أحبك ..
- أضر .. أننا نتحاب ؟
- بالنسبة لى على الأقل ..
- فازددت حيرة وقلت :

— أتشكين في حبي لك ؟
— ليس هذا هو الذى يعذبنى ..
— ما الذى يعذبك إذن ؟
— أنك تجبى كل هذا الحب ..
فأمسكت بيديها ووضعتها بين يدي .. وقلت وأنا أتحسس ظهر
يدها وكأننى أتحسس شغاف قلبى :
— إذن ما الذى تخافينه ؟
فاختنق صوتها مرة أخرى واغرورقت عيناها بالدموع ثانية وقالت :
— إننى أسأل نفسى .. ما هو مصير هذا الحب .. وما هى
نهايته ؟؟

— لن تكون له نهاية أبداً ..
— لكل شىء نهاية ..
— شيثان ليست لهما نهاية .. الله .. والحب ..
— ومع ذلك فلانى خائفة ..
— مم ؟
— لا أدرى ..
— هل تشكين فى طهارة خلقي ؟
فقالت صارخة وهى ترمى على صدرى وتبكى :
— لا .. لا .. ليس هذا ما أخافه .. ليس هذا ما أخافه ..

— فيم الخوف إذن ؟

فأجهشت في بكاء طويل وقالت في خوف شديد وهي تلوذ بأحضاني مرتعشة .. وكأنها تبحث بين خبايا صدري عن مكان تختبئ فيه :

— لإنني خائفة عليك .. خائفة عليك مني .. أفهمت ؟

فربت على صدرها المختبئ في صدري وقلت :

— تحدثني .. قولي كل شيء .. تخافين علىَّ مم ؟

— قلت لك مني .. مني ..

ولما كانت ثقتي في خلقتها فوق الشبهات جميعاً .. قلت :

— منك أنت يازينات ؟

— لست أخاف عليك من زينات التي تعرفها أنت .. وإنما أخاف

عليك من زينات الراقصة التي يعرفها الناس ..

فأدركت على الفور كل ما تعني .. وكل ما يجول في خاطرها ..

كما أدركت أيضاً لماذا أغلظت لي في القول أول الأمر .. ولماذا

كانت تريد أن تنصرف عني .. وكيف أنها كانت جادة عندما تهربت

منني .. ولا أدري لماذا قدرت لها هذا الشعور تقديراً معيناً .. وتأثرت به

إلى حد أنني كدت أبكي وأنا أضمر شغاف القلب على هذا الشعور النبيل

وهذا الجميل الذي جعلني أحس لأول مرة في حياتي بأن لي في هذا الوجود

من يحبني ويحرص على ويريد لي أكثر ما يريده لنفسه من خير ، والشعور

بذلك ليس من السهل احتمال السعادة به ولا الصبر على الاعتراف به ..

فلمظاهرة والاعتراف به هو خير حافظ للفضل نفسه . . إن كنت حقيقة تريد أن تبقى عليه وثبت أنك جدير به . . لهذا كله لم أملك نفسي فبكيت حقيقة . . بكيت وأنا أضرم هذه السعادة كلها إلى صدري وأحتويها بين حنايا الضلوع . . وأنا أربت على كتفها الصغيرة التي كانت لا تزال مستلقية على كتفى . . ودموعها لا تزال تنساب دافئة فوق صدري . . ولا أحسست بذلك الدفء يتسرب إلى قلبي رفعت ذلك الرأس الصغير الذى أحبه إلى عيني ومن ثم تحسست بشفتي ذلك النور الذى فوق الجبين وعند مفرق الشعر تماماً. أودعت قبلى التى قدر لها منذ هذه اللحظة أن تكون العنوان الجميل لكتاب حبنا السماوى . . . حبنا الذى عشنا له وبه زمناً . . فكان هو الزمن وكان هو العمر وكان هو الدنيا وهو الحياة . . حبنا الذى كان لنا أشبه بالكتاب المقدس الذى يهذى إلى سواء السبيل ويعلم الطهر والصفاء . . والخلق الطيب . . ويخلق من البشر أناساً يرسمون خطى الملائكة فيما يقولون وفيما يعملون وفيما يحبون لأنفسهم ويحبون لغيرهم من الناس.

* * *

ويهذى من هذا الطهر والصفاء . . والبعد عن الغرض . . توطدت علاقتنا واستقامت حياتنا بعيدة عن الشوائب وبعيدة أيضاً عن كل ما يعتمل فى النفس من سوء أو ما يشوبها من متاعب . . فقد تجنب كلانا كل ما يضايق الآخر. وكل ما يؤذى شعوره أو يسبب له المتاعب. فقد كان أشد ما يؤذيها أن ترى قدمى تنزلق إلى الصالة التى تعمل فيها ، ويرانى أحد

روادها وأنى لا أزيد. أو أنقص عن أولئك الذين يعيشون في الظلام كما كانت تسميهم . . وكان أشد ما يؤذى شعورى ويؤرقنى طوال الليل ويجعلنى أقلب على فراشى أتوجع من حرقة النار المشتعلة فى مرقدى هو أننى أراها ترقص أمام الناس وأن أرى تلك العيون النهمة وهى تنطلق معربة كالسهام وتنغرز فى كل موضع تعرى من جسدها أو اختفى خلف الثياب . . . ولا أدري لماذا كان هذا يسبب لى كل هذه الآلام . . وكل هذه النار التى تحرقنى فى الليل وفى النهار . . تحرقنى وأنا مغمض العينين تحرقنى أيضاً وأنا مبصر أرى تلك العيون التى كانت تنغرز سهامها الماثلة فى قلبى أنا . . لقد كنت أحس وأنا أتوجع حقيقة أننى إنما أتوجع لنفسى وليس لأحد آخر . . ولشد ما كان يزيدنى هذا الإحساس ترجعاً فلا أملك غير أن أبكى وأبكى طويلاً دون أن تنسكب دموع واحدة من عيني . . ولقد علمنى هذا أن حر البكاء وأشدّه حرقة وإيلاماً هو الذى من غير دموع . . ولا أدركت هى هذا بفطنتها . . وكنت أخرج فى أن أظهرها عليه حتى لا أزيد من آلامها امتنعت عن الرقص وطلقت هذه المهنة ولم تعد إليها بعد ذلك أبداً . . وكانت بهذا سعيدة . . سعادة لا تقدر كما قالت لى فيما بعد . . لأنها استطاعت بذلك أن تجعلى أنجذب مواطن الزلل . . بأن أبتعد عن ارتياد هذه الأماكن التى كان انهيار القيم فيها وتحطيم المقدسات وركلها بالنعال . . هو غاية كل من يرتادها كما كانت تقول!

استأجرت لزينات شقة صغيرة منعزلة في حي هادئ من أحياء القاهرة..
وأثنائها أثنائاً لا بأس به .. وزودناها بكل ما تحتاج إليه فتاة في مثل
خلق زينات .. أحب الأشياء إليها هو أن تكون بعيدة عن الناس وأسعد
الأيام عندها هي التي تقضيها وحيدة بين جدران بيتها لا ترى أحداً
ولا يراها أحد .. . وكنت أتردد عليها من حين إلى آخر .. لأطمئن
عليها أو أقضى لها ما تكون في حاجة إليه ..

وعلم الله الذي أشهده على نفسي وأنا أدون الآن هذه المذكرات ، والقلم
يرتعش في يدي .. . ويكاد يرتعد فرقاً كلما اقتربت من الأحداث الجسام
التي أروىها في صديق وأثبت كل صغيرة وكبيرة فيها بأمانة وإخلاص .. .
أقول أشهد الله على أنني ما ترددت على بيتها الجديد بعد ذلك أو ذهبت
إليها فيه مرة في الليل أو في النهار إلا كما يتردد العابد على المحراب ليستمتع
بلحظات من الهدوء والسكينة ورضا النفس والزلزلى إلى الله بالنية الحسنة
واطمئنان البال .

وبرغم أن ترددي عليها كان قليلاً نظراً لكثرة مشاغلي التي كانت
أحياناً تستغرق مني النهار والليل كله .. . فقد كانت تطرب له كثيراً
وتفرح له فرحاً زائداً .. . وكان هذا يسرني سروراً بالغاً .. . إذ كان أقصى

أمانى أن أنزل الطمأنينة إلى قلبها دائماً ، وكنت كلما وجدت متسعاً من الوقت قضيته معها إما في البيت أو في نزهة بالسيارة في الخلاء وأحياناً كنا نذهب إلى السينما ، وكثيراً ما كنت أسأل نفسي وأنا معها . . لماذا أنا سعيد كل هذه السعادة وأنا في صحبتها ؟ ! وكانت هي أيضاً تسأل نفسها هذا السؤال عينه . . وكان الجواب يجيء دائماً واحداً لا يتغير .. لأننا نحب لغير ما غاية ولغير ما هدف كان حيننا كالزهر تماماً .. غاية ما نشده منه هو أن تظل رائحته تتضوع عطراً .

وهكذا ظللنا وظلت سفينة السعادة تمخر بنا عباب النعيم تحيطها إشعاعات من نور باهر الضياء يهديها دائماً إلى الطريق القويم ويجنبها عوادي الغرق أو يكتسح أمامها الصخور حتى لا ترتطم بصخرة منها فتتحطم . . وما كنت لأظن أبداً أو حتى يظن القدر نفسه أن سفينة سعادتنا هذه سوف تتحطم وبهذه القسوة وهذا العنف . . وأن موجة عاتية سوف تقذف بها فجأة فتجعلها في سرعة الغمض تتحطم وتتناثر أشلاؤها فوق الصخرة وتذهب معالمها في بجوف البحر وأن يحدث هذا كله سريعاً جداً . . وقبل أن تقوم من مقامك . . أو حتى قبل أن يرتد إليك طرفك . فقد كنت في تلك الليلة على موعد مع زينات لنشاهد فيلماً كان يعرض إذ ذاك في سينما « ديانا » بشارع ألفى بك . . وبينما كنت أنتظرها على باب السينما . . شاهدت سيارة أبي الحمراء الكبيرة يجيء بها عم أحمد السائق ويقف بها أمام مطعم سان جيمبس ، كما شاهدت

أبى خارجاً من المطعم بعد تناول العشاء وكان فى صحبته أحد أعيان الدائرة الانتخابية الذى سيساعده فى الانتخابات ، وكنت لم أر أبى من عدة أيام فذهبت إليه وصافحته وتحدثت إليه فى بعض الشئون ، وسرّنى كثيراً أننى وجدته مبتهجاً إلى سیر المعركة الانتخابية التى قربت نهايتها والتى تبشر بالنجاح المؤكد ، ثم صافحنى مرة أخرى وانصرف مع من معه وانصرف أنا أخترق عرض الطريق لكى أنتظر زينات . . غير أننى شاهدتها واقفة فى الظلام على الطوار الجانبى بجوار مطعم نيو كورسال فذهبت إليها وما إن اقتربت منها حتى وجدتّها فى حالة اضطراب شديد وذهول يكاد يفقدها صوابها . . فاندهشت وزادت دهشتى عندما وجدتّها تمسك بذراعى بيديها المرتعشتين وتسالّنى وهى تكاد من الخوف تصرخ فى الطريق :

— من هذا الرجل الذى كنت تتحدث إليه ؟
وكانت طريقة إلقاء السؤال غريبة .. ومريبة فى الوقت نفسه .. فقلت :
— لماذا ؟ ..

فهزّنى فى عنف من كفتى وهى تصرخ هذه المرة :
— تكلم .. قل .. من هذا الرجل الذى كنت تتحدث إليه ؟
— لماذا أنت مضطربة هكذا ؟
فقالت وهى تكاد تسقط إغماء .. لولا أنها استندت إلى كفتى :
— هل تعرف من هو هذا الرجل ؟

— من ١٩

— إنه الرجل الذي رأيته بعيني هاتين يتسلل من مخدع « أمى »
قبل أن تقتل بأيام ..

ففتحت عيني وأغمضتها آلاف المرات .. قبل أن ألتقط أنفاسي
وقلت وكأنني أناطب شبحاً خرج إلى في الظلام :

— ما هذا القول ؟

فلم تصخ إلى ما أقول .. واستطردت وهي ما تزال تهزنى من كفتي :
— لماذا أنت تنتظر .. أستيقظ .. أسرع خلفه .. أمسك به .. اقبض

عليه .. إنه هو الذى قتل أمى ..

فلم أستيقظ كما كانت تريد .. وإنما ظلت في مكانى متحجراً
أشبه ما أكون بتمثال من الحجر تماماً .. ولم أفق إلا على شيء
يتسرب من بين أصابعى ويتطاير في الهواء .. عرفت فيما بعد
أنه كان تذاكر السينما .. ثم ذهبت معها إلى البيت ولا أدري حتى الآن ..
هل ذهبت معها إلى البيت في سيارة أجرة أو في سيارتى .. وهل كنت
أقودها أو لا .. وهل كدت أرتكب أكثر من حادث في الطريق أو
أننى كنت متالكاً لقوى العقلية والجسمانية .. وهل كانت هى من
الإعياء والفرع بحيث حملتها على كفتى حتى أدخلتها البيت أو هى التى
فعلت معى ذلك .. كل هذا لا أذكر منه شيئاً الآن .. ولكن الذى
أذكره جيداً هو أننى كنت وأنا معها نتحدث كلما أفقت من غشيتى ...

وعادت هي فأكدت أن هذا « الرجل » هو نفسه الذى شاهدته بعينها يخرج من بيت المحنى عليها . . فعلت ثانية إلى فقدان صوابي ، كما أذكر شيئاً آخر وأذكره جيداً . . وهو أنني لم أقل لها من هو هذا الرجل ولا ما هي صلتى به . . وهل أعرفه أنا معرفة جيدة أو هي معرفة عابرة ؟ كما أذكر شيئاً ثالثاً وأذكره تماماً . . لأنه لا ينسى وهو أنني بعد أن غادرت بيتها في الساعة الثالثة صباحاً في هذه الليلة وقطعت ثلاثة أرباع الطريق إلى بيتي . . عدت ثانية فرجعت إليها لأسأله بعض أسئلة جديدة اتضح أنني سألتها لها أكثر من مرة . . مثل هل هي متأكدة من هذا القول الذى تقوله . . ومثل رجائي لها أن تكون مخطئة في الفهم . . ومخطئة في النظر . . ومخطئة في الرؤية . . ولكن المسكينة لم تستجب لرجائي ولم ترحم قلبي . . فجمته في أعز ما يملك . . وهو حياته . . وراحت تؤكد لي كل حرف قالته . . وتدعم قولها بالأسانيد والأدلة والوصف الدقيق للرؤية . . وهي تعيد على نفس المشاهد التي رأتها بعينها ووصفتها في التحقيق وصفاً دقيقاً وكيف أنه كان يضع صحيفة على وجهه حتى لا تراه . . ولكنه عندما استدار ليخرج من الباب . . استطاعت أن ترى نصف وجهه . . بل ثلاثة أرباع الوجه . . وكيف أنه هو نفس الوجه ونفس الشارب ونفس العيون الضيقة التي تميل إلى السواد . . ونفس الياقة المنشأة والدبوس الماسى الذى يلتصع بريقه فوق رياط العنق ، بل نفس الطول والعرض واللون الذى يميل إلى السمرة .

۲۱۱



ولما أعادت على مسامعى كل هذه الأوصاف للمرة العاشرة بعد المائة . . أو المائة بعد الألف تركتها وانصرفت ثانية إلى الطريق أو إلى البيت لا أدرى . . وأنا أسبح في دوامة من الهواجس الغريبة والأفكار السوداء . . ترى هل هو أبى حقيقة . . ولو كان هو . . فما هى العلاقة التى كانت بينه وبين هذه المرأة . . وهل أبى كذلك . . ممن لهم علاقات نسائية ؟ ! ولكنى أعرفه جيداً . . إننى ابنه وأكاد أعرفه أكثر مما يعرف هو نفسه . . حقيقة إنه كأى إنسان آخر فيه الكثير من صفات الخير ومن صفات الشر . . ولكن صفة الشر هذه بالذات ليست أهدأ من صفاته . . إن كل ما فيه من صفات الشر حقيقة كما أسميها أنا « صفات شر » هو حب المادة . . وجمع المال . . والجري خلف الشهرة والمجد بأى ثمن وقد بلغ من ذلك كل ما يريد بل أكثر مما يريد . . فهو يملك ما يزيد على أربعة آلاف من الأفدنة غير العقارات الكثيرة التى تدر عليه أموالاً طائلة . . وبلغ من الشهرة والمجد ما لم يبلغه غيره . . فهو « باشا » وهو مرشح للوزارة .

مثل هذه الصفات أعرفها فى أبى . . ولكن هذه « الصفة » بالذات لا أعرفها عنه أبداً ، ولا أستطيع أن أكون خالص الضمير إذا اتهمته بها . . ولو كان كذلك . . أفىكون هذا مع تلك المرأة ؟ ! إنها كما هو ثابت من التحقيق فى الخامسة والأربعين من عمرها . أى أنها عجوز لم يفثها القطار فحسب . . وإنما فات عليها فعلاً حتى كادت عجالاته

تأكل شبابها وتدوس أنوثتها بدليل الآثار التي تركتها في الوجه هذه العجالات
الخميس والأربعون .. حقيقة لأنها كما يتضح من صورها كانت لا تزال
بها بقية من جمال .. وبقايا من أنوثة .. ولكن ليس إلى هذا الحد ..
حد الفتنة والعشق .. و .. القتل أيضاً .

وكدت أترسل في هذه الأفكار ، وفي غيرها .. لولا أنني فجأة ..
رويت نفسي بالسخف .. وقصر النظر وبلادة التفكير .. إن الذي
يعينني الآن ليس هذا أبداً .. ليست هذه العلاقة وأسبابها إن مجرد التفكير
في ذلك معناه أنني قطعت بأنه أبن حقيقة .. إن الذي يتحتم عليّ أن أفكر
فيه أولاً : أهو أبن أم لا .. وكنت كلما فكرت في ذلك ورأيت
الظنون تسبقني إلى تلك النافذة السوداء .. التي سأطل منها على الحقيقة ،
أحسست بنار السكين التي تنغرز في صدري .. وكلما فكرت في العكس
أو أملت في أن يكون العكس هو الصحيح أحسست بتلك السكين تنسل
من صدري وتخرج منه .. والغريب أنني كنت أشعر في الحالين بنفس
الأوجاع .

واتنتى فكرة لا أدري لماذا ارتحت إليها بعض الشيء . . وأحسست بعدها أن آلامى قد نامت . . كما تنام تماماً آلام الطفل الذى تلهب رأسه الحمى إذا ارتفعت درجة حرارته إلى حد الهذيان .

إن زينات قد رأت أبى وهو يتحدث إلىّ فى الليل ، وعيون الليل مهما كانت مبصرة فهى لا ترى ما تراه عيون النهار . . فلماذا لا أمكن لزينات من رؤية أبى مرة ثانية فى النهار . . ومن المقطوع به أنها بذلك سوف تزداد تأكيداً إن كان هو أم لا . . ولكن كيف أمكن لها من ذلك دون أن أجعله يراها . . حتى لا يعرفها . . حقيقة إنه من المقطوع به حتى الآن أن أبى لا يعرف زينات ولم يرها فى حياته . . ولكن إذا كان هو فعلاً الشخص الذى شاهدته زينات يتسلل من غرفة القتيلة ، هذه الغرفة التى كانت زينات تقف على بابها تلك اللحظة . . فمن المقطوع به أنه رآها وأنه سوف يعرفها فى الحال إذا وقعت عينه عليها . . وأنا ليس من صالحى ، حتى الآن على الأقل ، أن يعرف أبى من هى زينات . . فكيف إذن أمكن لها من أن تراه دون أن يراها هو؟ ... رباه ! أن رأسى يكاد ينفجر . .

وهكذا مر الليل بطوله . . ولبا جاء النهار . . كان أسوأ حالاً بكثير

من الليل الطويل الذى مضى ، فقد واتنى فكرة لا أعرف كيف اهتديت إليها . . . ولذلك فقدتها فى الحال . . . فقد كانت فكرة صائبة فعلا . . . كان المكتب الذى اتخذته أبى لنفسه فى ذلك الحين ليدير منه أعماله ويعقد فيه اجتماعاته ويستقبل فيه من يريد استقباله من أهل دائرته الانتخابية يقع فى إحدى عمارات الخديوى بشوارع عماد الدين ، وكان المسكن الذى يجاور مكتب أبى مباشرة ولا يفصله عنه سوى باب المصعد فقط هو مسكن مدام إيلين مصممة الأزياء المعروفة ، وكانت بحكم مهنتها تتردد عليها نساء كثيرات من شتى الطبقات ، وكنت أعرف ذلك جيداً لأن أمى كانت فى يوم ما إحدى زبائن مدام إيلين . . . وكثيراً ما كنت أذهب معها إلى هناك . . . فقد كانت أمى مقلة جداً فى الخروج ، ولا تخرج إذا خرجت إلا فى صحبتي أنا بالذات . . . فلماذا لا أشتري بعض الثياب لزينات وأجعلها تذهب بها إلى مدام إيلين وفى وقت يكون أبى فى مكتبه يستقبل ويودع بعض زواره الذين كان يصبر — ولا سيما فى هذه الأيام الأخيرة للانتخابات — على أن يودعهم لا إلى باب المكتب فقط ، وإنما إلى باب المصعد بالذات ، وبذلك تستطيع زينات من خلف شراطة باب مسكن مدام إيلين أن تراه جيداً دون أن يراها هو . . . ونفذت هذه الفكرة . . . وقامت زينات أيضاً بتنفيذ كل ما اتفقت معها عليه بدقة زائدة . . . وجلست أنا أنتظرها فى قلب سيارتي أمام «بارفنيكس» الذى لا يبعد عن العمارة إلا بأمطار قلائل . . . وكل جارحة فى وكل نقطة دم

تجري في عرق من عروق ترجو وتتمنى وتضرع إلى الله أن يخيب ظن الفتاة .. وأن تكون الرؤية التي رأتها خاطئة ... وبرغم أنني انتظرت طويلاً .. وانتظرت ما يزيد على الساعتين تقريباً ، إلا أنني لم أشعر بملل الانتظار ولم أضيق به ، بل العكس تماماً هو الذي كنت أشعر به .. كنت أود أن يطول انتظاري النهار كله والليل أيضاً بل العمر بطوله .. فقط لا تأتي زينات وتقول لي إنه هو .. كنت أشعر في هذه اللحظات أنه في مقدوري أن أحتمل كل شيء .. أحتمل حتى أن تموت زينات قبل أن نجىء إلى أو أن أموت أنا قبل أن نجىء زينات .. أما الذي كنت لا أستطيع حتى مجرد التفكير فيه فهو أن تتحقق رؤية الفتاة .. وأن يكون الرجل الذي سوف تراه الآن هو نفسه الرجل الذي رأيته يتسلل من مخدع الخبيء عليها قبل ارتكاب الجريمة بأيام .. ولذلك عندما وقعت عيني على زينات وهي خارجة من باب العمارة .. ذلك الباب الذي ظلت عيني مسلطة عليه ما يزيد على الساعتين حتى لكأن نظراتي مشلودة إليه بجمل .. أغمضت عيني على الفور .. حتى أطيل في عمري لحظات قبل أن أرى وجه زينات .. وأرى الفاجعة مرتسمة عليه وعلى قسماته .. ولا أقبلت وجلست بجواري في قلب السيارة وفتحت عيني ورأيته رؤية العين .. كانت كل الأسئلة التي أردت توجيهها إليها تسبقني الأجوبة عليها ممثلة في كل شيء فيها .. في وجهها الشاحب المصفر الذي يشبه في صفوته وجوه الأموات تماماً .. في عينيها المضطربتين ونظراتها الملتهبة التي

تتدفق منهما كما تتدفق السنة الذهب من فجوتين صغيرتين .. فى شفيتها المرتعشتين كشفاه محمود .. فى صمتها المطبق الثقيل الذى لا يستشعر وطأة ثقله سوى المفجوع فقط .

سارت بنا السيارة وتحدثنا .. تحدثنا أحاديث كثيرة .. ولكنى لا أستطيع أن أذكر من هذه الأحاديث شيئاً حتى أثبتة الآن بحرفيته .. فقد كنا ونحن نتحدث إذا تنفست هى بسهولة واستقامت ألفاظها أصبت أنا بالصمم فلا أسمع شيئاً .. وإذا تفتحت أذناى وأصبحت حاسة السمع عندى قادرة على التقاط حتى صوت تراحم الدموع فى عينها اختنقت أنفاسها وأطبقت على شفيتها .. فلم تعد تنطق .. ولهذا لا أذكر من هذا الحديث الطويل شيئاً اللهم إلا سؤالها لى من حين إلى حين ... من هو هذا الرجل .. ؟ وما اسمه .. ؟ وهل أنا أعرفه أو .. ؟ ولماذا لم أقبض عليه حتى الآن .

وكذلك لا أعرف أيضاً ما الذى حدث بعد ذلك فى هذا اليوم بالذات .. وهل قضيته مع زينات فى بيتها .. أو قضيته بمفردى أسير وحدى على غير هدى كإنسان آلى تحركه قوة هائلة من قوى الشر .. وكنت كلما رأيت هذه القوة تستبد بى نفيت عن خاطرى نفيّاً باتّاً كل هذه الأحداث جميعاً ... الحبنى عليها التى قتلت ... القضية التى حققت فيها .. زينات التى تعرفت عليها وأحببتها .. دسوقى الذى اغتيل فى ظروف غامضة .. تكييفى للأحداث بعد مقتل دسوقى .. دسوقى

الذى كان عشيقةً للمجنى عليها .. المحنى عليها التى عشقت غيره ..
 الرجل الذى شوهد وهو يتسلل من مخدع المجنى عليها .. قتل دسوق
 للمرأة التى خائنه وفضلت عليه رجلاً آخر .. هذا الرجل الذى قتل
 دسوق .. أبى وأنا أتحدث إليه أمام سان جيمس .. زيناب التى كاد
 يغمى عليها عندما رآته .. المعايينة التى تمت فى الخفاء فى بيت مدام
 إيلين .. كل ذلك كنت أنفيه عن خاطرى .. وأبعده عن يدي
 الاثنين كما يبعد الإنسان الذباب من على وجهه تماماً .. ولكن هذا
 الذباب واأسفاه كان أقوى من أن تبعده يد .. وكان كذلك أكثر من
 أن تتجاهله عين .. ولو كانت عين .. عين .. ابن .

وفى الصباح ، ولعل هذا من سوء الحظ أيضاً ، حدثت بحادث
 خلقتة الصدفة البحتة .. فقد استيقظت مبكراً على غير العادة وارتدبت
 ثيابى وخرجت حتى دون أن أتناول طعام الإفطار كما هى العادة قبل أن
 أغادر البيت .. وبينما أنا أهبط سلم القصر الرخامى الثقيل بأبى يهبطه
 هو الآخر .. فقد كان كما قال لى .. على موعد مع أحد الوزراء فى
 بيته فى هذا الوقت المبكر .. فلاحظت وأنا أتحدث إليه شيئاً خفيفاً
 للغاية .. تسمرت نظراتى عليه .. فقد رأيت — ولعل هذا عن طريق
 المصادفة أيضاً — البدلة التى كان يرتليها فى هذا اليوم .. ورأيتها
 سوداء مغرقة فى السواد وذات خطوط رفيعة بيضاء .. ولا أدري لماذا
 نظرت إليها جيداً وتفحصتها بعينى بدقة كادت تلفت نظره لولا أننى

كنت أكثر لباقة من أن أجعله يفطن إلى هذا .. ولما انصرف ..
وانصرفت أنا إلى طريقى .. تذكرت أننى استمعت إلى وصف دقيق
إلى هذه البدلة وأن هذا الوصف ملون بحرفيته فى شيء ما ، ولذلك كان
أول شيء فعلته ، عندما ذهبت إلى مكتبى هو أننى استدعيت سكرتير
التحقيق وطلبت منه دوسيه الجنائية رقم ١١٠٧ .. ورجت معه أراجع
أقوال بعض الشهود وبعض الذين كانوا قد اتهموا فى هذه القضية ..
وقرأت مرة أخرى الوصف الدقيق الذى وصفت به زينات ذلك الرجل
الذى رأيته يتسلل من مخدع الحبنى عليها .. ووقفت عيني طويلا على
وصف البدلة التى كان يرتديها ولونها الأسود الغارق فى السواد وخطوطها
الرفيعة البيضاء كما استوقف نظرى فى أوراق التحقيق بعض أشياء
أخرى .. أشياء كثيرة دونتها خلصة فى ورقة صغيرة أمامى وأحفظتها جيبى
خلصة أيضاً .. ومن هذه الأشياء التى استرعت انتباهى ... بصمات
الحائى التى وجدت بعضها فوق مزلاج باب الغرفة التى ارتكب فيها الحادث ...
ووجد بعضها الآخر على « فآزة » وجدت ملقاة على الأرض . كان
الحائى قد قذف بها الحبنى .. علمها قبل أن يرتكب جريمته بالمسدس ..
ومنها أيضاً نوع المسدس الذى استعمل فى الحادث .. ولست أدرى لماذا
استرعى انتباهى هذا كله .. ولست أدرى أيضاً لماذا ضربت بكل
أفكارى السابقة عرض الحائط .. ولم أعد أفكر فى غير شيء واحد
فقط .. وهو التأكد أولاً من إبعاد هذا الشك القاتل ، وهو علاقة أبى

بهذا الحادث .. هذه العلاقة التي برغم كل ما حدث مازلت أستبعدها وأنفيها بكل قوتي .. وكنت كلما نفيتها نفياً باتناً وأبعدتها عن خاطري بعد السماء عن الأرض ، عادت بعض الأفكار السوداء التي لا قبل لي بإبعادها تأكل في خاطري وتقضيه بأنيات موجعة للغاية .. أحاديث أبى .معى عن القضية .. حديثه عن دسوقي بالذات .. أرض المجنى عليها المناخة لمزارع أبى تماماً .. وإمكان إيجاد صلة عن هذا الطريق .. وحتى لا تتناثر أفكارى أو يغيب بعضها عن البعض الآخر ويمتد في هذا العذاب المفضى طويلاً .. رحت أدون هذا كله في مذكرات خاصة في حملتها في جيبى واحتفظت بها بين طيات ثيابى .

ومن ثم بدأت لإجرائاتى السرية الخاصة التي قمت بها بمفردى ولا يعلم بها أحد غير الله وأنا وهذه المذكرات التي بدأت تتكاثر صفحاتها ... والتي كنت أدون فيها أولاً بأول حتى أفكارى التي كانت تدور في الظلام بينى وبين نفسى .. هذه الأفكار التي كانت بالنسبة لى أشبه بالسم الذى يفرى جسدى ولا سيما عندما أمسك بخيط جديد يزيدنى قرباً من الفاجعة ويجذبنى إليها على الرغم منى .. وقد مكثت كذلك إلى أن حدثت في يومين اثنين فقط بعض الحوادث الهامة جداً التي أطارت صوابى وأطاحت بكيانى من جنوره ..

استيقظت كالعادة في الصباح وارتيديت ثيابي . . وكان أبي قد عرف بذلك قبل أن أخرج فاستدعاني لأتناول طعام الإفطار معه كما هي العادة إذا تواجدنا معاً في البيت وقت تناول الطعام.. وبينما أنا أجلس معه على المائدة نتناول طعام الإفطار ونحدث عدة أحاديث كانت تدور جميعها حول معركة الانتخابات التي قربت نهايتها جداً .. لاحظت أنه بعد أن شرب من كوبة الماء التي أمامه على المائدة ووضعها ثانية مكانها . . لاحظت أن أصابعه قد تركت بعض البصمات عليها ، وكانت واضحة تماماً . . ولست أدري لماذا استرعى هذا انتباهي وفكرت فيه جيداً . . ولست أدري لماذا أيضاً تعمدت أن أطيل من تناول طعامي على غير العادة حتى فرغ أبي من طعامه وودعني وانصرف . . وانتهزت هذه الفرصة وصرفت عم لإدريس الخادم إذ طلبت منه أن يحضر لي شيئاً من غرقى بالدور العلوى . . وأسرت بتناول الكوبة في حرص شديد للغاية ووضعها في علبة من الكرتون وجعلتها فوق البوفيه في مائدة الطعام . . وكان بها بقايا من بسكويت ومن ثم حملتها وانصرفت إلى مكبي دون أن يفتن أحد إلى ذلك . . وفي المكتب استدعيت أحد الذين يعملون معي في المكتب

وكنْتُ أَتَقَرَّبُ فِيهِ ثِقَةً عَمِيَاءَ وَطَلَبْتُ مِنْهُ أَنْ يَقُومَ-- وَبَطَرِيقَةٍ سَرِيَّةٍ لِلْغَايَةِ --
بِمُضَاهَاةِ هَذِهِ الْبَصْمَاتِ الَّتِي تَحْمِلُهَا هَذِهِ الْكُوبَةُ بِالْبَصْمَاتِ الَّتِي تَرَكَهَا
الْجَانِي عَلَى مِزْلَاجِ بَابِ الْغُرْفَةِ وَعَلَى الْفَازَةِ فِي الْجَنَائَةِ رَقْمَ ١١٠٧ وَأَنْ يَحْضُرَ
لِي الْكُوبَةُ ثَانِيَةً مَعَ التَّقْرِيرِ الَّذِي سَوْفَ يَجِيءُ بِهِ إِلَيَّ بِطَرِيقَةٍ غَيْرِ رَسْمِيَّةٍ .
وَفِي الْيَوْمِ الثَّانِي . . . مَبَاشَرَةً وَلَكِنْ فِي اللَّيْلِ . . . حَدَثَ أَنْ
ذَهَبْتُ إِلَى الْبَيْتِ فِي وَقْتٍ مُتَأَخِّرٍ مِنَ اللَّيْلِ فَوَجَدْتُ أُمِّي قَدْ انْتَابَتْهَا أُمُومَةٌ
الرَّبُوبِ بِشَكْلِ مَزْعَجٍ هَذِهِ الْمَرَّةَ مِمَّا اسْتَدْعَى لِحَضَارِ الطَّبِيبِ فِي الْحَالِ ،
وَوَجَدْتُ الطَّبِيبَ عِنْدَهَا وَمَعَهُ أَبِي فِي حَالَةٍ قَلْقٍ زَائِدٍ فَانْضَمَمْتُ إِلَيْهِمَا ،
وَبَعْدَ أَنْ أَسَدَفَهَا الطَّبِيبُ وَبَدَأَتْ عَيْنُهَا تَغْفُو طَلَبَ مِنِّي أَبِي الَّذِي كَانَ
بِمَلَابِسِ النَّزِيمِ أَنْ أَحْضَرَ لَهُ عِلْبَةَ سَجَائِرِهِ مِنْ غُرْفَةِ نَوْمِهِ الَّتِي كَانَتْ
تُجَاوِرُ غُرْفَتَهُ بِالدَّقِ مَبَاشَرَةً لَا يَفْصِلُهَا عَنْهَا سِوَى مَرِّ قَصِيرٍ لَا يَزِيدُ عَلَى
عِدَّةِ . ار ، وَلَمَّا ذَهَبْتُ لِأَحْضَرَ لَهُ عِلْبَةَ السَّجَائِرِ وَفَتَحْتُ بَابَ الْغُرْفَةِ
وَدَخَلْتُ . . لَفْتُ نَظْرِي مُسَدِّسَ أَبِي ، فِي جَرَابِهِ الْجِلْدَ الْأَصْفَرَ ،
مَوْضُوعاً فَوْقَ الطَّاوِلَةِ بِجَوَارِ عِلْبَةِ السَّجَائِرِ . . وَمَا لَنْ رَأَيْتُهُ حَتَّى وَاتْنَيْ
فِكْرَةَ جَرِيئَةٍ مُجَدِّدَةً مَعَ ذَلِكَ نَفَذْتُهَا فِي الْحَالِ . . وَنَفَذْتُهَا بِدَافِعٍ قَوِيٍّ لَمْ
نَفْسِ الدَّافِعِ الَّذِي جَعَلَنِي اخْتَلَسْتُ بِالْأَمْسِ كُوبَةَ الْمَاءِ . . وَلَكِنْ مَا هُوَ
هَذَا الدَّافِعُ ؟ . . لَا أَدْرِي حَتَّى الْآنَ . . وَلَكِنْ الَّذِي أَدْرِيهِ هُوَ أَنَّنِي كَمَا
اخْتَلَسْتُ كُوبَةَ الْمَاءِ وَوَضَعْتُهَا فِي حَرَصٍ شَدِيدٍ دَاخِلَ عِلْبَةِ الْكَرْتُونِ
كَذَلِكَ اخْتَلَسْتُ الْمُسَدِّسَ . . وَاسْتَبَدَلْتُ بِهِ مُسَدِّساً آخَرَ كُنْتُ أَحْمِلُهُ فِي

جيبى دائماً ، من حسن الحظ أو من سوءه لا أدرى . . فى نفس الحجم بحيث إننى لما وضعته فى الجراب وأعدته إلى مكانه لم يتغير شىء . . ومن ثم حملت مسلسل أبى فى جيبى وانصرفت . . وأعطيته علبة السجائر . . وظللنا نتحدث أنا وهو والطبيب إلى أن انصرف كل منا إلى حال سبيله .

وما إن انصرفت أنا إلى غرفة نوبى وأغلقت بابها خلفى وتأكدت من ذلك جيداً ومن أننى وحدى دون رقيب حتى أخرجت المسلس من جيبى وتفحصته . . وما إن فعلت حتى شعرت بدوار شديد . . كما شعرت بأن الضوء الذى ينير غرفتى يظلم فى عيني . . أو هو على الأقل ينخفت إلى حد أننى لم أستطع معه أن أدون فى مذكراتى الخاصة هذه النتيجة المربعة لهذا الفحص الدقيق الذى قمت به والذى ثبت منه ثبوتاً قاطعاً أن هذا المسلس هو نفسه الذى استعمل فى الجريمة وأنه ماركة « براوننج » عيار ٧ ، وأن « المشط » الذى يتسع لسبع الرصاصات كاملة العدد ليس به سوى أربع رصاصات فقط . . وأن ثلاث الرصاصات الناقصة هى التى استعملت فى الحادث وهى التى هتكت فروة الرأس وحطمت الجمجمة ونفذت إلى المخ فأحدثت الوفاة فى الحال . . كما جاء فى تقرير الطبيب الشرعى .

وشعرت بأننى أخنق . . وبأن كل ما تحتوى عليه غرفتى من أثاث إنما هو كابوس يحجم فوق صدرى . . ويخنق أنفاسى . . ففتحت الباب

سريعاً وهربت . . وفى الطريق لا أدري أين ذهبت فى الليل . . هل رحت
أجوب الطرقات وحدى فى الظلام . . أو جلست فى قلب سيارتى أحترق
ككومة من نار تندلع منها ألسنة اللهب . . أو ذهبت إلى زينات
وأيقظتها من نومها فى هذا الوقت المتأخر من الليل . . وأنها هى التى جعلتنى
أفطن إلى ما أنا فيه من سوء حال وإلى النار التى تشتعل فى صدرى
وجمراتها التى تنقد فى عيني . . وكيف أن المسكينة ظلت بقية الليل
تطفئ فى هذه النار وتلقى فوق ألسنتها المشتعلة بكل ما تملك من أحاسيس
ومشاعر وروح وقلب ووجدان . . فلم تزد على أنها زادتها اشتعالا . . إلى
أن جاء الصباح . . فركتها هى التى تحترق وانصرفت . .

وفى مكتبي وحوالى الظهر تقريباً كانت قد حلت الفاجعة . . إذ جاءتنى
نتيجة مضاهاة البصمات التى تمت بطريقة سرية كما طلبت تماماً فإذا بها
نفسها بصمات القاتل . . وبذلك استقامت أركان الاتهام جميعاً . .
واستقامت بما لا يقبل الشك . . أو يحتاج إلى دليل . . وبذلك أيضاً
انقلبت جميع أفكارى العقلية والمنطقية وحتى الاستنتاجية التى كنت قد
كونتها لنفسى . . فلم يكن دسوقي هو الذى قتل المحبى عليها . . لأنه
اكتشف أنها فضلت عليه عشيقاً غيره . . ولم يكن ذلك العشيق الجديد
هو الذى قتل دسوقي انتقاماً منه لأنه قتل عشيقته . . وإنما الأمر غير
ذلك كله . . . وأن الذى قتل المحبى عليها إنما هو هذا الرجل الذى
شاهدته زينات يتسلل من مخدعها فى الليل والذى هو . . . رباه ! ...

٢٢٥

إنني لا أقدر حتى على مجرد نطق هذا الاسم . . ولكن الذى أقدر عليه وعلى التفكير فيه لأنه فوق طاقة البشر تجاهله . . هو . . لماذا ارتكب أبى هذه الجريمة ؟ . . لماذا سفك دماء المحبى عليها ؟ . . لماذا قتل أبى زينب عبد العال الشوباشى وأطلق عليها ثلاث رصاصات من مسدسه فأرداها قتيلة ؟ . .

إن الثابت والمقطوع به . . أنه كان على علاقة مشينة بها . . بدليل تردده على بيتها فى الخفاء حتى لا يراه أحد . . وبدليل رؤية زينات لهما فى هذا الوقت من الليل وهما فى حالة تكاد تشبه التلبس يقطع بريبتها أكثر من سبب . . خلو البيت حتى من الخادمة التى أبعدت عن البيت لنفس الغرض التى قطعت زينات بأنهما كانت خارج البيت فعلاً، بدليل أنها التقت بها مقبلة من الخارج بعد خروج أبى، وبدليل رؤية زينات للحادث رؤية العين . . . الاثنان فى قلب الخدع . . النور الذى انطفأ فجأة . . ارتباك الرجل وتسله سرياً من قلب الغرفة . . . ارتباك المحبى عليها الشديد والحالة المريبة التى كانت عليها . . . وقميص النوم الخفيف الذى كانت ترتديه . . واضطرابها الزائد عندما شاهدت زينات . . كل ذلك يقطع بوجود العلاقة المشينة بين الاثنين . . وهذه العلاقة ظلت قائمة إلى ما قبل ارتكاب الحادث بأيام قلائل . . فما هو الذى حدث حتى جعل هذه العلاقة تنقطع فجأة . . وهى لم تنقطع فحسب ، وإنما انقلبت إلى هذا المنقلب . . من حب . . وغرام . .

الابواب المغلقة

وهيام .. وجراحة متناهية في سبيل تحقيق الغاية .. إلى البغض .. والكراهية
 البالغة هذا الحد .. حد القتل .. سفك الدماء .. ارتكاب
 أشنع الجرائم .. ومن الذى يفعل هذا كله ... أبى؟
 ودارت بى الأرض دوراناً شديداً .. وأحسست بمقت وكراهية
 لكل شيء .. للناس جميعاً .. لبيتى .. ولكتبى .. ولأبى .. وأمى ..
 وزينات .. وحتى نفسى .. وأردت أن أهرب .. أهرب من هؤلاء
 جميعاً .. وقد هربت فعلاً .. وذهبت إلى فندق متواضع فى حى غير
 معروف .. واضطرت ولأول مرة فى حياتى لكى لا أرى أحداً أو يتعرف
 على أحد أن أزور وأن أقيد نفسى فى الفندق تحت اسم غير اسمى ..
 ومكثت ثلاثة أيام فى غرفتى لم أبرحها .. ثلاثة أيام هربت فيها فعلاً ..
 من الناس .. والدنيا .. وكل ماله صلة بالحياة .. وبهذا العالم الذى
 نعيش فيه .. ومع ذلك لم أقدر على أن أهرب من نفسى .. من الشيء
 الحقيقى الذى وددت أن أهرب منه .. من المذكرات التى بلغت الكثير
 من الصفحات .. والتى دونت فيها هذه الأحداث جميعاً .. واحتفظت
 بها فى جيبى .. بين طيات ثيابى .. بين محاجر عيني .. خوفاً من أن
 يراها أحد غيرى .. ثم خرجت بعد هذه الأيام الثلاثة وبى رغبة ملحة
 إلى شيء .. شيء أحسست أننى لو عرفته فربما انطفأت هذه النار التى
 كادت تحلف جسدى تراباً .. هذا الشيء هو أن أعرف لماذا ارتكب
 أبى هذا الجرم .. وقتل هذه المرأة فى عقردارها ؟ ..

رجعت إلى بينى فى مساء اليوم الرابع . . وما كدت أقرب من
مدخل القصر حتى رأيت شرفاته وردهااته وحديقته الواسعة تموج بمجموع
من الناس تهتف وتصفق وتملأ ضحكاتها أرجاء القصر . . وتعطر الفرحة
الكبيرة أبهاءه جميعاً . . لقد نجح أبى فى الانتخابات وتحقق الحلم الكبير
الذى كان يسعى إليه ودخلت فى غمار هذه الجموع وضحكت أنا
أيضاً مع من ضحكك وصفقت أنا أيضاً مع من صفق وارتيمت فى أحضان
أبى وعانقته وذابت الفرحة التى غمرتنى فى خضم المرح الزاخر الذى كان
يصطبغ فى صدر أبى أنساً وفرحاً وإبتهاجاً . . ومن ثم انتحيت جانباً . .
وجلست أجفف العرق الذى كان يتصبب منى بغزارة ، والذى لا أعرف
حتى الآن سببه . . ورجت وأنا فى جلستى هذه أقرب أبى وهو يروح
ويجيء وكل شىء فيه يرقص . . حتى الأرض التى يسير عليها . . حتى
الملابس التى يرتديها . . حتى تلك الياقة المنشأة وذلك الدبوس الماسى
الذى تتحلى به ربطة العنق . . ولا أدرى لماذا استقرت عيني على هذا
الدبوس بالذات وهذه الياقة المنشأة بالذات . . وتذكرت أننى شاهدتهما
كثيراً من قبل . . وأننى أيضاً استمعت إلى وصف دقيق لهما ذات

مرة أو ذات مرات . وأن هذا الوصف مدون في بعض الأوراق .
 ومرة أبى من بجوارى وهو يروح ويحيى بين الناس وأقبل على مرة أخرى
 وقبلنى مرة ثانية مهنتاً بنجاحه .. كأنه نسى أنه هنأتى وقبلنى من قبل . .
 وأطال هذه المرة من تقبيلي ومداعبتى ، وراح يربت على وجهى بأصابعه
 وأحسست بدفع هذه الأصابع وحلاوة حنانها وهى تمر على وجهى . . .
 وتعجبت كيف يمكن لهذه الأصابع التى تعرف مثل هذا الحنان وتعرف
 مثل هذا العطف والتى لها مثل هذه اللمسات الإلهية التى تدوب رقة
 وحناناً . . وجباً . . كيف يمكنها أيضاً أن تضغط فى قسوة وفى ظلم
 وفى وحشية على مفتاح مسدس لتزهق روحاً من الأرواح . .
 ومكثت كذلك فوق مقعدى أشبه ما أكون بحجر كبير وضع فوق
 قاعدة من القواعد . . لا أنطق ولا أتحرك . . ولا أتكلم . . إلى أن أتنصف
 الليل وأنصرف الناس وخلا القصر من الرواد جميعاً . . . ولم يبق فى
 هذا القصر الفسيح الأرجاء سوى أنا وأبى فى الدور الأول الذى ما زالت
 الأنوار تتلألأ فى قاعاته كالشموس المشرقة . . وأبى فى الدور العلوى
 راقدة فى فراش المرض كجثة محنطة حديثاً وموضوعة فى خوض من
 البلور . . ونظرت إلى أبى وهو يجلس أمامى فى إحدى شرفات القصر
 التى تطل على الحديقة الواسعة ، وتأملتة وهو يرفل فى الفرحة التى تحيط به
 من كل جانب . . وأحسست بالدموع تغمر عيني . . لماذا ؟ ! . . .
 لا أدري . . كما أحسست بأبى أريد أن أقول له شيئاً . . وأن قوة فوق

طاقتي تدفعني دفعا لأن أقول له هذا الشيء .. مع ذلك لم أقدر ..
كانت شفتي أشبه بقطعتين من الجلد الجاف تماسكتا والتصقتا بحيث
لا ينفذ من بينهما حتى خيط من هواء .. وكأنه لاحظ على ذلك
فسألني : لماذا أنا صامت هكذا ؟ .. فلم أجب .. وزاده صمتي
إصراراً على السؤال أو زاده إحساساً بما أعاني من فزع وخوف .. فقال
وهو ينظر إلى شفتي المطبقتين المرتعشتين :

— إنك تخفي شيئاً ..

ولما لم أجب أيضاً .. تحققت شكوكه .. وقال وعلائم الدهشة ترتسم
على وجهه :

— إنك تريد أن تقول شيئاً ..

— فعلاً .. أريد أن أقول أكثر من شيء ..

فقال وهو يقترب مني في حنان الأب ويضع يده على كتفي :

— أعرف أنك غير راض من أول الأمر عن هذه المعركة الانتخابية
التي خضتها والتي كبدتني هذه المبالغ الطائلة .. ولكن العشرة آلاف
جنيه التي أنفقتها ليست بذات بال إزاء هذا النجاح الذي جعلني الآن
أكاد أجلس فوق كرسي الوزارة .

يا لله ! .. إنه ما زال يتحدث عن أطماعه .. وعن كرسي الوزارة
الذي يحلم به .. لماذا لم يفتن إلى ما في خاطري .. ويحدثني عنه ؟ ..
رباه ! .. لماذا لم يجعل للبشر حاسة سادسة أو سابعة أو ثامنة تمكن لهم

٢٣٠

من معرفة ما يدور في نفوس الغير . . وما يحرق هذه النفوس حتى كان
أبى على الأقل يعرف ما بخاطري ويحدثني هو عنه ، حتى لا يكلفني هذا
العناء الشديد . . وحتى لا يترك لهذه العقدة تمسك بشفتي كما تمسك بها
تماماً أنياب أفعى قاتلة تنفث السم ؟!

ولما رأيته يريد أن يستطرد ثانية في أحاديثه هذه البغيضة إلى نفسى ..
عن المجد والطموح والعظمة وكبرى الوزارة الذى بات يحلم به . . لما رأيته
كذلك قلت له وأنا أخفض صوتي . . فقد كان منأى أن لا يسمع ما
أقول :

— إن الذى أريد أن أقوله . . فوق هذا كله . .

— ما هو ؟ . . وماذا تريد أن تقول ؟

— إنك متهم بجريمة قتل . .

فاربدت سحنة الرجل على الفور . . وقال :

— إنك تهذى . .

— ليتنى كنت كذلك . .

فانقبضت قسمات وجهه . . وهو يقول ثانية :

— قلت لك إنك تهذى . .

فاخنتق صوتي حتى كدت لا أستطيع التنفس . . وأنا أقول :

— من المؤسف أننى ما زلت متمالكاً لكل قواى . .

فدوى صوته كالرعد هذه المرة :

- كيف تجرؤ على أن توجه إلى أبيك مثل هذه التهمة ؟
- لست أنا الذى يوجهها . . وإنما الذى يوجهها هو القانون . .
- فغابت التجاعيد التى على وجهه . . خلف موجة داكنة من السواد . .
- وقال وكأنه هو الذى يهذى حقيقة :
- إننى ألقى بك من هذه الشرفة . .
- وأخرج المسدس من جيبه سريعاً وهو يستطرد :
- أو أفرغ هذه الرصاصات فى صدرك . . قبل أن أسمع منك هذا القول عن أبيك .
- فنظرت إلى المسدس الذى فى يده . . وتذكرت المسدس الآخر الذى احتفظ به . . وقلت وأنا أتلقى من الألم :
- إنه من السهل عليك أن تفعل ذلك إن أردت . . أن تلقى بى من الشرفة . . أو تفرغ رصاصات هذا المسدس فى رأسى . . ولكن ليس من السهل أن يعفبك هذا من تهمة القتل . .
- أى تهمة يا مجنون ؟
- تهمة قتل المحبى عليها زينب عبد العال الشوباشى . . .
- إننى لا أعرف واحدة بهذا الاسم . .
- فنظرت إليه فى دهشة غريبة . . دهشة امتزجت فى نفسى بفرحة زائدة حتى إننى وددت لو أنه يعيد على مسامعى هذا القول مرة أخرى .
- كما أحسست بشيء آخر . . وددت لو يدوم إحساسى به وهو أن بى

رغبة أكيدة لتصديق هذا القول . . ولماذا لا أصدقه . . ولماذا لم يكن حقيقة ؟ ! . . ولماذا لم يكن أبى صادقاً فيما يقول ؟ ؟ . . ويكون هو المفترى عليه . . وأنا الذى يفترى . . . حقيقة إن عهد المعجزات قد انقضى . . وإن طاقة فى السماء لن تفتح مرة أخرى . . ويتسلل منها نور يضىء الكون أو ظلام يعتم الدنيا . . أو يخرج منها للناس رسول يهدى إلى الحق أو نبي ينصف الناس . . حقيقة إن هذا كله قد انقضى ولن يرجع إلى أن تقوم القيامة ويخلق الله الناس خلقاً جديداً . . ولكن لماذا هذا القطع . . لماذا نحن البشر نقطع بذلك . . أليس هذا فيه ما فيه من جهود . . أليست اليد التى خلقت كل هذه المعجزات من أجل هناءة البشر قادرة على أن تجنب فئة أخرى من الناس هذا الشقاء الكبير الذى يعيشون فيه . . حتى لو تطلب هذا خلق معجزة جديدة رباه . . إنه شقاء كبير فعلاً وأى شقاء يكون هذا الذى يتعذب به ولد من أجل والده ؟ !

ووضعت آمالى جميعاً فى هذه المعجزة . . التى سوف تبعد ذلك الرجل عن أبى وتبعد أبى عن ذلك الرجل . . وتستبدل قتيلة بأخرى لا يعرف أبى عنها شيئاً ولم يسمع باسمها من قبل كما قال لى الآن..رباه ! اللهم اجعل قول أبى هو الصدق . . فليس سوى هذا يطفى هذه النار التى تحرقنى رباه ، لأنك أعلم بحرقه النار لأنك أعلم بقلبى الذى يتمزق ! تعلقت بأذيال هذا كله سريعاً . . ودعوت الله من أجل أبى . . ثم

٢٣٣

قلت وأنا أنظر إلى وجهه الذى تغيب ملامحه أمام عيني فى أفق مظلم
حالك السواد :

— ولكن ماجاء فى التحقيقات يثبت أنك تعرفها . . ويؤكد أنك
قتلتها .

— قتلت من ؟ !

فقلت مرة ثانية :

— المحبى عليها زينب عبد العال الشوباشى . .

— ومن الذى يثبت ذلك ؟ !

فأشفقت عليه من الإجابة . . وصمت . . ولم أنطق . . فقال وهو
يدق الأرض بقدميه . . كما يدقها تماماً الثور الهائج . . وقال :

— أكمل هذيانك وقل . . ما الذى يثبت ذلك ؟

— أشياء كثيرة جداً . . الراقصة زينات شوقى التى شاهدتك تخرج
من مخدع المحبى عليها قبل الحادث بأيام . . . تعرفها عليك عندما
شاهدتك بعد الحادث . . وصفها . .

فقاطعتنى وكأنه يبعد شيئاً عن أذنيه :

— لإننى لا أسألك عن الراقصة زينات شوقى . . وإنما أسألك عن
جريمة القتل . . ما دليلك عليها ؟ . .

— البصمات التى تركها الجانى والتى اتضح أنها بصماتك أدت
بالذات . .

— ولكن أحداً لم يأخذ بصماتي .. حتى يتحقق هذا ..

فلم أصنع إلى هذا القول .. واستطردت :

— والمسندس الذى استعمل فى الجريمة .. واتضح أنه مسندس أنت .. ماركة براونج عيار «٧» والرصاصات الثلاث التى أطلقت منه على رأس المجنى عليها فأردتها قتيلاً للحظتها ..

— ولكن مسندسى فى جيبى لم يأخذه منى أحد حتى يعرف ذلك .. قال هذا وأخرج المسندس من جيبه .. ولكنه ماكاد ينظر إليه حتى جحظت عيناه جحوظاً غريباً مخيفاً وقال وهو ينهار أمامى فوق أحد المقاعد ويجهش باكياً كطفل ..

— كيف سولت لك نفسك أن تفعل هذا ؟

فأغمضت عيني .. لأننى لم أجروء على أن أرى الدموع تنهمر من عينيه .. ولما كرر على السؤال اضطرت إلى أن أروى له الحقيقة كاملة .. وهى أننى فعلت ذلك اضطراراً بعد أن عجزت عن احتمال ذلك الشك القاتل الذى كان يغرس أنيابه السامة فى صدرى .. وكانت كل آمالى أن أثبت لنفسى سوء الظن وأن أقطع لها براءة أبى .

فظل يبكى .. ولما نزف الكثير من الدموع تتمم وهو يتلوى وكأنه جواد جريح مضروب على أم رأسه :

— وبعد أن عرفت ؟

— أسألك لماذا قتلت ؟

- وهل يعفى هذا من الجريمة ؟
- قد يخفف هذا من الجرم .
- إننى أسألك . . هل يعفى هذا من الجريمة ؟
- لا . .
- ولو اعترفت بالجرم ؟
- ولو اعترفت بالجرم . .
- ولو كانت الدوافع قاسية ؟
- ولو كانت الدوافع قاسية .
- فيكى ثانية . . وصمت مرة أخرى . . ثم استطرد وهو يحفف دموعه :
- ولو أن الذى قتل أب . . من أجل ابنه ؟
- فجحظت عينائى . . ونظرت إليه . . وقلت مشدوهاً :
- أى . . . أب وأى ابن ؟
- ألم تسألنى لماذا قتلت ؟ إننى قتلت . . . من أجلك أنت يا بنى ..
- من أجلى أنا ؟
- فلم ينطق . . وظللت أنظر إليه بجاحظ العينين . . ومرت فترة صمت
- لا أدرى حتى الآن كيف مرت ولكن الذى أدريه أنها طالت إلى حد
- كبير . . كبير جداً . . وظللنا كذلك أنا وهو إلى أن نهض متهاكاً على
- نفسه . . وجلس يجوارى . . ومن ثم أمسك ييدى التى كانت ترتعش
- وتهتز بين يديه والتى كانت تزداد ارتعاشاً كلما تساقطت عليها نقاط

الدموع التي كانت تتساقط من عينيه كنقاط من نار . . والتي ظلت تتساقط طوال هذا الحديث المفزع الذي كنت أستمع إليه . . قال أبى وهو يرحلنى أن أصغى إليه جيداً . . وهل كنت أملك غير أن أصغى إليه جيداً :

— تعرفت على المحبى عليها منذ ثلاثين عاماً أو يزيد . . وكنت إذ ذاك لا أزال فى ريعان الشباب . . وكنت فقيراً معدماً لا أملك سوى راتبى الذى كان فى ذلك الحين لا يتجاوز الخمسة جنيهات وكانت هى كل أجرى الذى أنقاضه عن عملى كناظر للزراعة فى أحد تفتيش جدك لأملك هذه . . وكان هذا لا يرضى طموحى وأطماعى التي كانت عريضة واسعة لا يعرف لها حدود . . وكان هذا يقض مضجعى ويؤرق عيني فى الليل وفى النهار أيضاً . . ولذلك كانت عيوني دائماً مشبوبة بأفاق عليا . . آفاق مليئة بكل شهوات النفس التي كنت أحلم بها . . من مجد وسجاء ومال وثناء . . ومن يكن كذلك لا يغمض له طرف . . إنه يكون دائماً أشبه بالصائد الذى يتتبع القنينة بعين يقظة . . وإلا غيب عنه فى الأرض . . أو غابت عن عينيه فى السماء . . . إن (الفرصة) كالعقاب الذى لا يخلق إلا عالياً جداً لى يتعذر عليك رؤيته ولذلك فهو لا يقع عليك أبداً . . وإنما عليك أنت أن توقعه . . ولكى تتمكن من ذلك يتحتم عليك أن تكون صياداً ماهراً تحلق فنون الرماية وتجيد إصابة الهدف . . ومن سوء الحظ أنه كانت عندى هذه القدرة .

٢٣٧

أعرف أن هذا سوف يؤلك يابني .. ولكني الآن أعترف ..
والاعتراف لا يكون مطهراً للنفس إلا إذا نبع من ذات النفس التي
تعترف بآثامها .. عند ذلك يكون الاعتراف صادقاً .. والصدق حسنة
.. حسنة قد لا تكون بذات بال عند ابن .. ولكنها عند قاض شريف
شيء له قيمته ..

قال ذلك وصمت لحظات .. جفف خلالها بعض الدموع ..
ثم استطرد في هدوء .. وفي وضوح أيضاً .. وقال :

— وذات يوم واثت الفرصة .. وكانت مغرية بحيث انشبت عيني
فيها على الفور وتعلقت بها ، حتى في لحظات الغمض كانت عيني أشد
تعلقاً بها .. كما لو كانت في الحلم أكثر منها إغراء في الحقيقة ..
وهكذا دائماً يكون الشيء الثمين .. تفكر فيه وهو في يدك كما تفكر
فيه وهو في قاع البحر .. إنه في يدك تخاف عليه .. وفي قاع البحر
تبحث عنه .. ومن الغريب أن أملك في الحصول عليه لا يقل عن أملك
في الاحتفاظ به .. حتى الفرصة ذاتها أمل .. ولذلك عندما جاءت
كانت هي أمل .. الذي عشت عليه حياتي كلها .. هذا إذا افترضنا
أنه كانت لي حياة في ذلك الحين ..

كانت أرض هذه السيدة — زينب عبد العال الشوباشي — تقع
بجوار التفيش الكبير الذي كنت أدير أعماله .. والذي أصبح فيما بعد
ملكاً لي كما هو اليوم .. وكان موقع هذه الأرض غريباً .. وقد اتخذت

من غرابته هذه وسيلة لأول حجر ألقى به فوق الشجرة لكي يطير
العصفور وأخرجته من عشه حتى أراه ، وأصوب له البندقية . .
كانت هذه الأرض التي تملكها هذه السيدة . . وتزيد مساحتها على الخمسين
فداناً . . تقع بين فكي تفتيشنا الكبير . . كانت أشبه ما تكون باللسان . .
وأرض هذا التفتيش الواسعة هي فكاه . . وكانت هذه السيدة قد مات
عنها زوجها وهي في العشرين من عمرها . . فترملت عليه برغم هذه السن . .
وبرغم جمالها الذي كان يضرب به المثل بين النساء والرجال معاً . . فقد
كانت جميلة جمالا ليس من سبيل إلى وصفه . . كما كانت أيضاً
طيبة العنصر . . دمثة الخلق . . متدبنة إلى حد كبير . . وقد قنعت من
الغنيمة بالإياب . . فلم تشأ أن تتزوج ثانية . . ولم تفكر في ذلك . . أو
حتى تدخله في حسابها . . ولكن هذا لم يمنعني من التفكير في الزواج
منها . . ومن تنفيذ رغبتى مهما أصرت هي على الرفض . . ذلك لأننى
إن فعلت وأمسكت بهذا الشيء الثمين في يدي فسوف أربح أرباحاً
طائلة . . سوف أربح جمالا . . وأربح أخلاقاً . . وأربح عنصراً
كريماً . . ونفساً طيبة . . وقلباً طاهراً وأربح كذلك مالا . .
حقيقة إن المال عندى كان هو الربح الحقيقي الذى أطمع فيه وتصبو
إليه نفسى وخمسون فداناً ليست بالربح القليل . . وهذه بالذات
سوف تكون أكثر ربحاً إذا ما جعلتها هذه الصفات الأخرى . . ولكن
السبيل إلى ذلك كان صعباً وطويلاً . . كان كالطريق الطويل في

٢٣٩

الصحراء القاحلة ليس فيه سوى الرمال الى تحرق قدميك .. ومع ذلك عرفت كيف أقطعه .. دون أن تتعثر قدمي ..

أعلنت عليها الحرب في الخفاء .. وأعلنتها حرباً لا هوادة فيها .. اتخذت من طبيعة الوضع الجغرافي للأرض التي تملكها هذه السيدة ساحة لهذه الحرب التي أعلنتها .

فهي إن طلبت الماء منعتة عنها .. وهي إن استكفت منه أغرقها به .. وإن هي زرعت شيئاً زرعت أنا غيره .. وهي إن تصادف وانطلقت دابة من أرضها وخطت حتى مجرد الشبر فوق أرضنا ، -أطلقت أنا دواب التفطيش جميعاً وماشيته تدوس أرضها .. ومع أن هذا فيه ما فر من ظلم وافتئات على الحقوق وعدم مراعاة للحفاظ بالجار .. إلا أنه كان السبيل الوحيد لهزيمة ، وليس من سبيل سواه .

وهكذا ظلت هذه الحرب قائمة بيننا ثلاث سنوات .. ثلاث سنوات كاملة .. ثم انتهت آخر الأمر باتفاقنا .. اتفقنا على كل شيء .. على الحب وعلى الإخلاص وعلى الوفاء .. ثم أخيراً على الزواج الذي سوف نتوج به هذا كله آخر الأمر .. وأشهد بأنني كنت مخلصاً في ذلك الإخلاص كله .. وكنت محباً لها أيضاً الحب كله .. مما جعلها تترك زمام أمورها جميعاً إلى .. حتى زمام نفسها .. شخصيتها .. ذاتها .. حياتها .. كل ذلك أتصرف فيه كما أريد .. وكما أشاء .. وتشاء رغباتي جميعاً .. حتى تلك التي تعيش منها في الخفاء .. وفي

ذات كل إنسان .. وترسب في باطنه .. ولا نفطن إليها إلا في ظروف معينة .. وحين تتحرك من تلقاء نفسها وتمطى كما تتمطى الأفعى الملتفة حول نفسها في قلب العشب .. حتى هذه الرغبات أسلمت لى قيادها أيضاً .. وتركتنى أحققها على الوجه الذى أريد .. وأشهد أن هذا كان فيه سعادتها .. لأنها وجدت فيه سعادتى .

وهكذا عشنا زمناً كما يعيش العشاق تماماً لا عمل لهم إلا البحث عما ينمى سعادتهم ويزيد من الهناءة التى هم فيها .. وعشنا أيضاً كزوجين لا ينقصهما غير التوقيع على ذلك الصك الذى نعلن به على رؤوس الأشهاد زواجنا .. ولكننا لم نفعل ذلك .. أو حتى نفكر فيه .. ولم يكن هذا لسبب من الأسباب ولكن لأن تيار سعادتنا كان جارفاً بحيث أبعدنا عن الناس بدرجة أننا نسيناهم ولم نذكرهم إلا عندما تجددت بعض الظروف التى أرغمتنا على ذلك ، وكثيراً ما تأتى بعض الظروف التى لم تكن فى الحسبان فترغمك على تنفيذ ما كنت أهملت تنفيذه .. أو هى تذكرك به على الأقل .. فقد جاءنى زينب ذات يوم وأخبرتني بأنها حامل .. ولا بد لنا من أن نعقد العقد حتى لا يفتضح أمرنا .. ورحبت بهذا ترحيباً كبيراً لأننى كنت خالصة النية - فى كل ما اتفقت معها عليه - واتفقت معها فعلاً على اليوم الذى سننزوج فيه وحددناه .. غير أنه حدث فجأة حادث غريب لم نكن لنتنظر حدوثه .. وهو موت جدك الباشا لأملك هذه .. وكان رجلاً محبوباً منا جميعاً .. ومنى أنا

بالذات . فقد كان رحمه الله يحبني ويعطف عليّ ويقرّيني منه ويعتبرني كشخصه تماماً بدليل أنه كان يطلق يدي في كل شؤونه جميعاً . . في هذه الأموال الطائلة . . والتفتيش الكبيرة التي تزيد مساحتها على الأربعة الآلاف من الأفدنة . . كان كل ذلك زمامه في يدي أتصرف فيه كما أريد . . ويعلم الله أنني كنت حقيقة جديراً بهذه الثقة . . مخلصاً لهذا الرجل الذي لم ينجب غير ابنة واحدة قدر لها منذ طفولتها أن تصاب بمرض في ساقها كثيراً ما كان يقعدّها عن السير . . وأعني بها والدتك هذه .

وكان لوفاة هذا الرجل الطيب وقعه السيئ على نفوسنا جميعاً ولا سيما على نفسي أنا بالذات ولذلك كان من غير المعقول أن أتزوج عقب وفاته مباشرة . . وهذه تقاليد لها في الأرياف اعتبارها الكبير . . وأحسست أنني لو فعلت ذلك وتزوجت زينب في ذلك الحين برغم هذه الظروف القاهرة التي كانت تدفعني إلى ذلك فسوف أفقد احترام الناس جميعاً ، — وعلى رأسهم — جدتك التي حزنت حزناً شديداً على وفاة زوجها ، وربما أثر هذا على كمشرف على هذه الأعمال جميعاً ، وباعتبارها هي صاحبة هذه الأملاك بعد وفاة زوجها أردت أن أكون عند حسن ظنها .

وقد تقول لماذا لم أتزوج زينب في الخفاء . . طالما أنه قد حدث ما حدث . . ثم أعلن عن زواجنا في الوقت المناسب . . وقد فكرت في ذلك فعلاً . . وفكرت فيه جديداً . . فاتضح لي كما اتضح لزينب أيضاً أن مثل هذا الزواج وفي الأرياف بالذات سبة تظل عالقة بالزوجين إلى

الأبد . . وتزول الدنيا ويفنى العالم ولا تزول الأيدي أو تنفى الحجارة
التي يرى بها مثل هذا الزواج . . وأنا أريد أن أكون زوجاً شريفاً في
نظر الناس طالما أنا كذلك فعلاً في نظر نفسي أو على الأقل كنت أظن
أننى كذلك .

لهذا اتجه تفكيرى إلى وسيلة أخرى ووافقتنى عليها زينب عن طيب
خاطر . . ورجبت بها ترحيباً كبيراً . . وهى أن أسافر معها سرّاً إلى
القاهرة وهناك بواسطة أحد الأطباء نزيل هذه العقبة التي ترغمننا لإرغاماً
على أن نسرع بالزواج حتى إذا ما انتهت هذه الظروف القاسية ومرت
أيام الحداد التي يمتد طولها في الريف إلى ما يزيد على العام أتممتنا العقد
وتزوجنا علانية وأعلنناه على رؤوس الأشهاد .

وصمت أبى لحظات . . كانت برغم قصرها طويلة ممضة في الطول
والثقل . . ثم استطرد حديثه بعد أن جفف دموعه الغزيرة التي كانت
تحرق عينيه . . قال :

— غير أننا عندما ذهبنا إلى الطبيب وعرضت زينب نفسها عليه
وفحصها فحوصاً دقيقاً اتضح أن أى إجراء يعمل لإزالة هذه العقبة فيه خطر
كبير على حياتها، ولم يكن هو وحده الذى قرر هذا ، وإنما قال به
كل الأطباء الذين عرضتها عليهم . . وقد أثر هذا في حالتها النفسية
ففرضت مرضاً خطيراً وأصبحت بتضخم في الكبد . . . وهبوط شديد في
القلب مما استدعى ملازمتها للفراش عدة شهور ، وقد اضطرها هذا إلى

٢٤٣

أن تخفى عن الناس ، فاستأجرت لها مسكناً في القاهرة ظلت فيه طوال شهور المرض . . ولما تماثلت للشفاء كانت شهور الحمل قد أوشكت أن تنتهى . . وبدأت آلام الوضع تنتابها وكانت تعيش بمفردها وليس معها في البيت أحد . . وكنا حريصين على ذلك حتى لا يقف الناس على سرنا . . لذلك نقلتها إلى المستشفى لتلد هناك ولتكون تحت الرعاية الكافية . . فأدخلتها مستشفى (فؤاد الأول) للولادة وأنزلتها باسمي — أى أنها زوجة لى — ولم أجد أية غضاضة في ذلك فقد كانت زوجتي فعلاً أمام الله وعمما قريب سوف تصبح زوجتي أمام الناس .

وكانت دموع أبى طوال هذا الحديث لا تنقطع . . وكان لا يصمت إلا ريثما يجففها فقط . . ولست أدري لماذا كانت هذه اللحظات القصار التي كان يصمت فيها أبى ليحفف دموعه تثير الرعب في قلبي . . لقد كنت أنظر إليه وهو يتحدث وأنظر إلى شفتيه وهي تتحرك وهم بالكلام كما أنظر تماماً إلى شفتي قاض تعلق مصير حياتي بكلمة سوف تصلني من هذه الشفاه .

واستطرد أبى بعد صمت قصير ، قال :

— وكنت وهي في المستشفى تنتظر الوضع أتردد عليها بين الحين والحين . . كنت أجيء إليها من الريف في أول النهار ثم أعود في آخره . . أو أسرق نفسي في الليل وأذهب إليها ثم أعود إلى عملي في الصباح . . وكنت في كل مرة أجيء فيها إلى القاهرة أدعى بأنني إنما أجيء بسبب أعمال تتعلق

بالتفتيش أو التفاتيش التي أصبحت أدير أعمالها جميعاً بعد أن مات صاحبها . . وذات يوم كنت في القاهرة . . فاستدعني « أنجه هانم » صاحبة هذا الثراء كله والتي شاء القدر فيما بعد أن تكون هي جدتك لأملك هذه . . أقول استدعني إلى القصر وهناك فاجأتني مفاجأة مذهلة . . مفاجأة لم تكن في يوم لتخطر لي على بال . . قالت لي إنها بما سوف تطلب مني تنفيذه إنما تنفذ وصية زوجها الباشا رحمه الله وتحقق له رغبة تمنى لو تحققت قبل موته كما أنها هي أيضاً تود أن تحققها قبل أن تموت حتى تموت مرتاحة البال .

قالت لي إنها تعيش الآن في أيام حياتها الأخيرة وإنها لن تترك لها وريثاً غير ابنتها هذه التي قدر لها أن تعيش حياتها هكذا مريضة بساقها . . وإنها إن ماتت وتركها دون أن تتزوج فسوف لا يتزوجها إلا طامع في مالها فقط . . وهذا سوف يسبب لها كأم الكثير من القلق حتى يعد الموت . . ولأنها - أي الأم - تعتبرني خير من يصلح للزواج منها لأنني خير من يحفظ لها مالها ويحفظ لها أيضاً كرامتها كزوجة ثرية ولكنها مريضة . . لذلك فهي تعرض عليّ الزواج منها طالما أنها تثق فيّ كل هذه الثقة . . وطالما أنني غير طامع في مال . . أو ثراء . . أو جاه . . . يا للعجب !

قالت لي « أنجه هانم » هذا القول . . فدارت بي الأرض وعشت لحظات في دوامة هذا الحلم الكبير . . الذي كان أشبه بطاقة من السماء

انفتحت لى أنا وحدى دون سائر البشر جميعاً . . لقد كان كل مناى وكل ما كنت أطمع فيه من دنياى . . وتصبو إليه نفسى هو أن أتزوج زينب عبد العال الشوباشى لأمتلك هذه الأفدنة التى لا تزيد على الخمسين . . وأصبح من أصحاب الثراء . . وأحقق حلمى العريض الذى كنت أحلم به . . فما بالك إذا تزوجت « منيرة هانم » وأصبحت أنا المالك الوحيد لهذه الأربعة الآلاف فدان غير كل هذه الأملاك والعقارات الأخرى التى تملكها الآن . . مرة أخرى . . يا للعجب ! . . .

قلت لك إن الحلم كان كبيراً بحيث جرفتنى دوامته . . ولم أفق منه إلا وأنا الزوج الشرعى . . . لهذه السيدة التى شاء القدر أن تكون هى أملك أنت يا بنى .

فهضت وأنا أكاد أصرخ :

— وزينب التى فى المستشفى تضع غلاماً منك ؟

فقال :

— لم أجرو على أن أذهب إليها ثانية . . أو حتى أراها رؤية العين . . وإلا فكيف كنت سألتقى بها وكيف كنت سأراها . . وماذا كنت سأقول لها ؟ ! . .

وصمت لحظات أخرى نظر فيها طويلاً إلى أصابع يديه وهى ترتعش . . ثم قال :

— كل الذى فعلته أننى كتبت لها خطاباً وبعثت به إليها فى

المستشفى .. وقلت لها فيه : إننا أردنا شيئاً .. وأراد القدر غيره ،
وسألت لها الله أن يمد لها يد العون وأن يخرجها من هذه الأزمة فهي
لا تستحق أبداً كل هذا الشر الذي أوقعها أنا فيه بحسن نية ..

— وهل هذا يكفي ؟

— هذا ما حدث ..

— وماذا فعلت ؟

فأنخفض صوته كثيراً وهو يتحدث ويلقى بوجهه إلى الأرض :
— أشهد بأن الصدمة كانت بالنسبة إليها قاسية لا أعرف حتى
الآن كيف احتملتها .. كانت تماماً أشبه بمن وقع في الفخ وأطبقت
عليه أسنانه من كل جانب بحيث إنه لا يستطيع حتى أن يصرخ ...
فهي لا تستطيع أن تطالبني علانية بشيء وسيف هذه الخطيئة مسلط
على رقبتها . ومثل هذا الجرم قد يغتفر .. يستطيع أن يغتفره حتى الإله
نفسه .. ولكنه في الريف حيث تعيش هذه السيدة وحيث عاشت كل
هذا العمر تتمتع بالسمعة الحسنة والخلق الطيب .. أقول إنه عندنا في
الريف ذنب لا يغتفر ذنب دونه القتل .. أو الرجم .. أو
الحرق علانية في رابعة النهار .. ولذلك فهي لم تستطع أن تبوح بشيء
أو تطالبني بشيء علانية أو حتى في السر .. كل الذي فعلته أنها بعد
أن وضعت وخرجت من المستشفى لم تملك إلا أن تتخلص من هذا العار
بأن تلقى بالطفلة التي ولدتها سرّاً في الطريق .

فقلت صارخاً .. وكأن شيئاً فى قلبى يتمزق :

— إذن هذه الطفلة هى

فقاطعتى أبى على الفور والدموع تغمر وجهه وكل شىء فيه هذه

المرءة يرتعش :

— أرجوك .. دعنى أتعرف .. دعنى أطفئ هذه النار التى

تحرقتى .. لقد عرفت الآن حقيقة لماذا يذهب الناس ويعترفون بخطاياهم

عن طيب خاطر ..

ولما بكى كثيراً هذه المرءة قال :

— أجل يابنى .. إن هذه الطفلة بالذات هى التى شاء لها القدر

أن تكون أختك غير الشرعية ..

فصرخت مرءة أخرى :

— زينات .. أختى ؟!

— ومن ذات الصلب الذى بجثت منه أنت .. علم الله ..

— اسكت .. اسكت .. لا أستطيع أن أسمع .. لا أستطيع

أن أسمع ..

هتفت بذلك مرات فى وجهه ثم انخرطت أنا فى بكاء طويل ..

وظل هو يتحدث : قال .

— كانت عاطفة الأمومة عندها أقوى من أن تجعلها تنظف ثوبها

نهائياً من دم هذه الفتاة ... كما كانت تماماً عاطفة الأبوة عندى أقوى

من أن تجعلنى أسكت على سوء يمسك . . حقيقة إننا أحياناً نقتل أولادنا بأيدينا ولكننا لا نفعل ذلك إلا إذا قتلنا أنفسنا أولاً . . إننا حينما نقتل أنفسنا وتموت حواسنا وتنجمد مشاعرنا ويحف الدم الذى يجرى فى عروقنا نهائياً . . عند ذلك فقط نستطيع أن نمد أيدينا ونخنق أنفاس من نحب .
ولذلك بعد أن ألفت بالطفلة فى الطريق تتبعتها خلصة حتى رأت اليد التى بعثها الله وجعلها تمتد إلى هذه الطفلة البريئة وهى قطعة من اللحم ملقاة فى الأرض . . إننى لا أعرف حتى الآن لماذا يد الله التى تمتد بكل هذا الخير والحب والعطف والإشفاق على الناس . . . هذه اليد التى تفجر الماء من قلب الحجر الصلب لتروى غلة الصبابة وتنبث الزرع فى الأرض الصماء ليأكل الجائع . . لماذا هى أيضاً لا تمتد إلى أنفاس هؤلاء الذين يتعذبون كل هذا العذاب فترجيحهم من هذا الشقاء . .
إننى لا أدري لماذا وجد الموت إن لم تكن هذه هى إحدى حسناته . .
لماذا لم أمت ؟ . .

واستطرد أبى وهو يبكى بحرقة هذه المرة وكأنه يبكى لأنه لم يمت . .
وقال :

— ثم لما عرفت الأم المكان الذى استقرت فيه ابنتها . . ذهبت إليها فى اليوم التالى ، وأوصت التى تكفلت بها خيراً . . وأعطتها المال . . وظلت تنفق عليها بعد ذلك إلى أن حدثت كل هذه الأحداث التى شاء القدر أن يطلعك أنت عليها وتستعرضها أمامك واضحة جلية فى

التحقيق .. أما الذى لم يتوضح إليك حتى الآن فهو أسباب هذه الجريمة والدوافع التى دفعت إليها .. وإليك هذه الحلقة المفقودة .. إليك هذا السر الذى ظل مستتراً كل هذا الزمن .. وإليك كذلك هذه الخيوط الدقيقة التى سوف تجعلك تربط بين الخيوط جميعاً وتوضح لك حقيقة الوالد الذى قتل من أجل ولده .. وحقيقة الأم التى قتلت من أجل ابنتها ..

واستطرد أبى فى شجاعة هذه المرة فقال :

— لقد اتضح لى أن نعمة النسيان التى وهبها الله للناس لتتسببهم أحزانهم لم تكن قادرة على أن تتسببهم الأحزان الكبيرة .
وأن هذه الستر السميكة — السوداء أو البيضاء — التى يسلمها النسيان على أحزاننا إنما تبلى أحياناً بمرور الزمن ، وتتهرب بمضى الأيام .
وأنها إن بليت أو تهرب نسجها انتكست أحزاننا وعادت إلينا بجراحها أعمق غوراً وأكثر ألماً وأعنف ناراً من لحظات الجراح نفسها .. بدليل أن الأم عندما افتقدت الطفلة بعد أن تزوجت نظيرة محمد البسيونى وانتقلت إلى الصعيد مع زوجها وتركت الطفلة ضالة فى الطريق .. ظنت الأم بعد زمن وجيز أنها قد نسيت الطفلة نهائياً ؛ وإن ظلت تذكرها بعد ذلك ، فلأنما من أجل الذكرى فقط .. كما نذكر موتانا أحياناً ونترحم عليهم بين الحين والآخر ... ولكنها لم تكن لتظن أو يدور بخلدّها فى يوم ما أنها تعيش على هذه الذكرى كل هذه السنوات الطويلة

التي افتقدتها فيها، وأن هذه الذكرى هي التي كانت تقيم أود الأم لتعيش وتلتقي بابنتها . . وليس أدل على ذلك من الفرحة التي فرحتها الأم لحظة أن علمت بأن ابنتها لا تزال على قيد الحياة وأنها سوف تراها وتلتقي بها . . وليس أدل على ذلك أيضاً من ذلك العذاب الذي تعذبته الأم عندما عثرت على ابنتها ورأتها ورأت ذلك المنحدر الذي انحدرت إليه وجلست تنظر إليها في « الصالة » وهي ترقص . . وترى مئات العيون التي تنهات عليها كالنمل . . وتلف وتدور حول ما تبدى عارياً من جسدها وتتحمسه بهذه النظرات المهمة حتى إذا ما وجدت ملمساً غرزت أنيابها فيه ونفثت سموها . . عند ذلك أحست الأم بأنها هي التي تقف عارية وسط هذه العيون . . وأن هذه النظرات المهمة إنما تخترم جسدها هي وليس جسدها هذه الفتاة التي ترقص أمامها . . فأصابها لؤثة وانتابها سعار مجنون. جعلها تركب عقلها وتفقد صوابها وتضع الأمور جميعاً في كفة . . والظروف والملايسات والأوضاع الاجتماعية وغير الاجتماعية وسمعة الناس وأقدارها وما يمكن أن يكون وما لا يمكن أن يحدث وتقويض بيت وهدم أسرة وموت رجل وانتحار غيره . . كل ذلك جميعه وضعته في كفة . . وأن أعترف ببؤة هذه الراقصة في كفة أخرى .

ومد أبي أصابعه بحكم العادة ليجفف دموعه . . ولكنها كانت قد نضبت . . ولما لم يجد غير قلة من نقاط حمراء بلون الدم . . واصل حديثه وهو ينظر إلى أصابعه التي ترتعش :

— أنا أعرف جيداً أنها ابنتى .. وأعرف أننى المتسبب الأول فى هذا الجرم الذى وقع .. وأعرف كذلك أن ضميرى يحاسبنى حساباً عسيراً وكان يورق عيني ويقض مضجعى وكثيراً ما كان يضغط على قلبي بعنف حتى ليكاد يسحقه .. وكان هذا يسبب لى آلاماً كثيرة لا يعرفها إلا ضمير الأب فقط .. ولكن هذا الضمير نفسه .. هذا الضمير ذاته .. كان أيضاً يحاسبنى على أشياء أخرى .. لعلها كانت عنده أكثر أهمية وهى كذلك فعلاً .. ذلك لأن الشقاء بها فى هذه المرة لن يكون وقفاً علىّ وحدى وإنما هو أيضاً على غيرى من الناس .. إنه حاسبنى فعلاً على هذا الشقاء الذى سببته لابنتى .. وهو اليوم يريد أن يحاسبنى على هذا الشقاء الكبير الذى أريد أن أسببه لابنى .

إن الذى حدث يختلف تماماً عن الذى يحدث .. إن الذى حدث يكون كالיום الذى مر .. ليس من سبيل إلى إرجاعه .. أو لإصلاح الخطأ الزمنى الذى وقع فيه .. أما الذى سيحدث فيكون كالغد .. يتحتم علينا أن نعمل له حساباً .. وإلا تورطنا فى الخطأ نفسه الذى تورطنا فيه بالأمس .. إن هذه الفتاة قد قدر لها أن تعيش كما عاشت وتنشأ كما نشأت وتقتنع بأن هذه المرأة التى تبنتها هى أمها ... وترضى بما قسم لها من حظ .. أو تسخط عليه .. على حد سواء .. إن الخط قد تحدد بدليل أنه حدث .. إنها بذلك قد قطعت الشوط على أى حال .

وجفف أبى دموعه .. وقال :

— إن الذى يرى الموت غير الذى يسمع عنه.. وأنا قد رأيته ..
عشت فيه .. تعذبت به .. كنت أشعر بأن الذى يموت هو « أنا »
وليست هذه الطفلة .. وأن الذى يتعذب هو « أنا » وليست هذه
الإبنة .. فكيف أستطيع أن أجربه مرة أخرى .. وعلى صورة أبشع ..
كيف أقوى على أن أتركك تبدأ الشوط .. وقد رأيت بعينى هاتين
الجراح التى أئخنت قدمى .. كيف أجعلك تمسى وتصبح فلماذا بأخت
لك تعمل راقصة فى ملهى .. كيف أستطيع أن أغمد فى صدرك هذه
السكين .. وهل يجرؤ أب على أن يفعل ذلك .. هل يجرؤ والد على
أن يقتل ولده بيديه ؟ ... إننى وإن كنت قد فعلت ذلك مرة .. فقد
فعلته لأننى لم أكن قد عرفت حرق النار .. لأننى لم أكن قد اكتويت
بها .. حقيقة كنت أعرف أنها نار .. ولكن معرفتك للشئ غير
تجربتك له .. إننا مهما شاهدنا اشتعال النار .. وسمعنا دمدمة جمراتها ..
فلأنا لا نستشعر حرارة لها إلا إذا احترقنا فعلا .. وأنا قد احترقت
فكيف كنت أستطيع أن أحترق مرة أخرى ؟ ..

قلت لها هذا كله .. وبصرتها بنتائج هذا كله .. قلت لها إن الذى
يعيش فى الظلام هو وحده الذى يعرف نعمة النور .. وأنا وهى قد عشنا
فيه .. أنا وهى .. قد عرفنا قيمة هذه النعمة .. فكيف نحرم غيرنا منها ..
قلت لها إننى أدفع لها كل ما تريد .. أدفع لها حياتى .. فقط
ألا تحرم « ابنى » من حياته ..

قلت لها إن مالى قسمة بين الاثنين .. ابنى .. وابنتى .. أهب لها نصف ثروتي لتهبه هى بدورها إلى الفتاة .. قلت لها هذا .. وكنت من الصادقين .. ولكنها ركبت عقلها وأصرت على تنفيذ ما تريد .. على أن أعترف رسمياً ببنة الفتاة .. وإلا أشهرت فى وجهى السلاح الذى تملكه .. ووضعت على رقبتى السكين التى تحتفظ بها لهذا اليوم .. وكانت تملك حقيقة هذا السلاح البائر الذى تستطيع أن تقتلى به ... كانت تحتفظ بالخطاب الذى أرسلته لها .. وهى فى المستشفى .. واعترفت لها فيه ببنة الطفلة .. وكانت تحتفظ أيضاً بهذا التاريخ .. تاريخ اليوم الذى أدخلتها فيه المستشفى لتلد فيه .. وقيدتها فى دفاترها الرسمية بأنها زوجتى ... كانت هذه الأسلحة ماضية من غير شك .. كنت الوحيد الذى يعلم كيف أنها قاصمة للظهر ... لذلك لم أبجد بدءاً من ... أن أفعل ما فعلت .. من أن أرتكب جريمتى ... من أن أقتلها ... من أن أسفك هذه الدماء على الرغم منى ... وصمت أنا هذه المرة .. وصمت طويلاً .. ثم قلت وكأننى أخاطب نفسى :

— ولهذا كان حرصك الشديد على أن تعرف منى أولاً بأول سير التحقيق فى هذه القضية .

— ولم أنم ليلة أن عرفت منك بأن الشبهات بدأت تتجه حول الشخص الذى انتقل إليه مفتاح هذا السر بعد مقتل المحبى عليها .. من المؤسف

حقيقة أنه كان الوحيد الذى يعلم هذا السر .

— تعنى دسوقى ؟

— أجل . . هذا الرجل الطيب . .

— إذن أنت الذى قتل دسوقى أيضاً . .

— لأننى أردت أن ألقى بالمفتاح الذى كان فى يده إلى القاع . . كان

هذا هو الحل الوحيد . . . كان لا بد لى أن أفعل ذلك . . أن أعيد هذا

المفتاح إلى . . وإلى أنا وحدى . . لقد كان هذا السر كبيراً يابنى . .

فقلت وكأننى مرة أخرى أخاطب نفسى :

— وهل فعلت ! ؟

— من المؤسف حقيقة أننا عندما نطمئن إلى شىء . . نكون قد

فقدناه دون أن ندري . . إن أستار الظلام عندما تنسدل ويعلو طبقاتها

ذلك السواد الذى لا تنفذ إليه عين . . . عند ذلك فقط تشرق الشمس . .

ومن المؤسف أننى كنت أجهل ذلك . .

ولم يصمت أبى هذه المرة . . . وإنما ابتعد الصوت الذى كان

يتحدث إلى . . . وغاب عن أذنى فى مكان سحيق . . . وتلاشى كنسمة

هواء . . . ذابت فى قيظ صحراء يتوهج حرها . . ففتحت عيني . . فلماذا

بى وحدى أجلس فوق مقعد من المقاعد كجثة هامدة لا حراك فيها . .

ترى هل كنت كذلك . . حتى قبل أن يبتعد هذا الصوت . . . ويغيب

عن أذنى فى صحراء كبيرة . . . صحراء واسعة . . .

مكثت بعد ذلك .. عدة أيام ... وحدى ...
 كانت الأيام التي مكثتها وحدى .. تختلف عن هذه الأيام التي
 يعيشها الناس .. ويحياها البشر .. كانت من لون آخر .. وصنف
 آخر .. وطعم آخر .. كان نهارها غير الأنهر التي نعرفها .. وليلها غير
 الليل الذي نراه .. والشمس غير الشمس .. والقمر غير القمر .. حتى
 الناس كانت هي الأخرى غير الناس ..

هكذا عشت هذه الأيام ..
 أنا لا أدرى على وجه التحديد كيف عشتها ... أو كيف
 قضيتها .. أو كيف مرت هي ؟ !
 إن كل الذي أذكره ... هو تلك الأشباح التي كنت أنا واحداً
 منها ...

كنت أرى نماذج غريبة من هذه الأشباح .. تراقص أمامي كلما
 فتحت عيني ... نماذج من الخير ... ونماذج من الشر ... ونماذج
 من الضمائر التي ماتت ... وغدت أشبه بالحدث الذي في الرمس ...
 ونماذج أخرى من الضمائر الحية ... التي كنت أحس بها تزداد غلياناً،
 وكلما ازدادت إحساساً بالتبعة ازدادت إحساساً بالمسؤولية ...

كانت هذه الإحساسات تتبلور في أشياء كثيرة . . . أشياء كانت كلها حية وأسفاه . . انصلات المتعددة التي لا يمكن تجاهلها . . صلوات الدم والرحم والحياة . . وهذا الرباط المقدس الذي يربط بين هذا جميعه . . . هذه الأم التي فعلت ما فعلت . . وأصرت على ما أصرت . . . هل هي محقة أو غير محقة ؟

وهذا الرباط الذي يربط بين الدم والدم . . بين الرحم والرحم . . . بين الأم وابنتها . .
أيمكن أن نغفله ؟

وهل يكون في مقدورنا إغفاله إذا أردنا ؟
وإذا نحن لم نقدر . . إذا أجزناه . . . إذا أجزنا لهذه الأم أن تفعل ما فعلت . . بدافع من هذا الرباط . . . بدافع الأمومة . . . فلماذا نحن لا نحييها ذلك ؟ إن الصلة هي نفس الصلة . . والدم هو نفس الدم . . والأرحام هي نفس الأرحام . . والصلب شو نفس الصلب . .

فلماذا لا نحيي للأب في سبيل الدفاع عن ابنه . . ما أجزناه للأم . . في سبيل الدفاع عن ابنتها ؟
ولكن هل هذه هي المشكلة فقط . . ؟
ألا ليها كانت كذلك !

* * *

وأغمضت عيني مرة أخرى .. وفتحتهما ثانية .. ولكن على جثتين
 هامدتين .. واحدة هتكت الرصاصات الثلاث فروة الرأس ..
 وحطمت الجمجمة .. ونفذت إلى المخ .. وأحدثت الوفاة في الحال ..
 وواحدة مزقت الصدر .. وكسرت العظام .. ونفذت إلى الرئتين ..
 وذهبت القلب .. وتركت الجثة مزقاً مزقاً .. وثقوباً ثقوباً .. تماماً كما
 كما يحدث البلى في الثوب ويتركه مزقاً مزقاً .. وثقوباً ثقوباً ..

... ورنّت في أذني كلمات .. ولا أدري لماذا ارتعدت لها فرائصي
 الآن .. مع أنني عندما استمعت إليها أول مرة .. لم أعرها التفاتاً :
 « أحياناً يكون غير الواجب هو الواجب » .

يا الله ! ... أمثل هذه الروح البريئة ... هذا الضمير
 الحساس ... هذه النفس النبيلة ... يذهب دمها هدراً ... تزهق
 روحها ظلماً ... يتقطع لحمها هكذا مزقاً مزقاً ؟ !

وهذه الأم ... هذه الأم ... التي كل جريرتها أنها طالبت
 بحق ..

دافعت عن حياة ..

تمسكت بآينة ..

استماتت في وجود ..

.. تموت .. تقتل .. تسفك دماؤها ...

أين القصاص ؟ !

أين السماء ؟
أين عدالة الله ؟
أين الضمير الذى يرضى ؟
وتراقصت أمامى هذه الخيالات جميعاً .. وتراقص أيضاً غيرها
وغیرها ..

إن هؤلاء قد ماتوا ..
توارت جثثهم فى التراب ...
ولكن أولئك الذين يموتون ..
ما ذنبهم ؟
أجل .. ما ذنبهم ؟
هل نتركهم .. حتى تزهق أنفاسهم أيضاً ؟
..... زينات
هل نتركها هكذا تعيش هذه الحياة ؟
.. رباه .. لماذا أحبيت أنا هذه الفتاة ؟
ولماذا أحبيتها أنا الآن .. أكثر من ذى قبل ؟
بل لماذا أنا أحبيتها - الآن - كل هذا الحب الكبير ؟
... رباه ... لأننى أسألك ...
وانسابت الدموع من عيني .. ومع ذلك لم تذهب هذه الخيالات ..
ولم ينقطع هذا الحديث .. ولم تنقطع أيضاً هذه الدموع ...

٢٥٩

... هل ستظل هذه الفتاة .. ميتة هذا الموت الدنيوى .. يلفها
 هذا الكفن .. كفن هذه الحياة التى تحياها ؟ !
 وهل سيظل المجرم .. يتمتع بكل هذا النعيم .. كل هذا الجاه ؟ !
 هل سيظل الوالد ينكر ابنته ؟ !
 ويظل الأخ ينكر أخته ؟ !
 هل تبدلت الأرض غير الأرض .. حتى يحدث هذا ؟ !
 وتبدلت السماء غير السماء ... حتى تبدل بعض الضمائر ...
 هذا التبدل ؟ !
 .. تموت هذا الموت ؟ !
 رباه !!
 ومرة أخرى .. رباه !!
 لماذا خلقت مثل هذه الضمائر الميتة ... ولماذا أيضاً خلقت غيرها
 حية .. تكاد تذوب من رقة حساسيتها .. ولماذا خلقتها كذلك ،
 وقدرت لها أن تتورط فيما تورطت أنا فيه الآن ؟ !
 رباه ... لماذا فعلت ذلك ؟ ! ..
 لماذا حملتنى هذا الحمل الثقيل .. وأنت تعلم أننى بشر .. أننى
 من دم ولحم ...
 رباه ... لأننى لم أكن رسولا .. ولا نبياً .. وأنت تعلم ذلك جيداً .

* * *

الأبواب المغلقة

وأغمضت عيني مرة أخرى .. وكان أملى هذه المرة .. أن يظل
 غمضهما إلى الأبد .. ولكن لم يتحقق هذا الأمل .. وأسفاه ...
 لأن تلك القوة التي تفوق قوانا كبشر جعلتني أفتحهما ثانية .. ولكن
 على وجه أبي هذه المرة ..
 على وجه من أحب ..
 ... إنني لا أعرف .. في الثلاثين سنة التي عشتها ...
 :.. في هذا العمر الطويل .. الذي قضيه ...
 لا أعرف .. أنني أحببت ذات يوم هذا الوجه .. كما أحبه الآن ..
 ... أنني أتعشقه ... كما أتعشقه الآن ..
 أو أنني شعرت بهذه العاطفة الجميلة ... الحلوة ... الرقيقة ...
 كما شعرت بها الآن ... كم أنت غالية .. أيتها البنوة ... كم أنت
 عزيزة على النفس ... أيتها الأبوة ...
 ... أهكذا سريعاً .. يمكن الاستهانة بك .. التفريط فيك ...
 القضاء عليك ...
 وببد من ١٩ ...
 رباه ... إن القتلة .. وشاربي الدماء لا يجرؤون على ذلك ...
 إن الأنبياء والرسل ... لا يقدرّون عليه ..
 وأحسست أنني على استعداد لأن أفعل كل شيء .. كل شيء ..
 أجل .. كل شيء .. فقط يبقى لي أبي ..

أحطم القدسيات جميعاً . . .

ولم لا ؟ ! . .

أليست هذه هي قدسية أيضاً ؟ ! وإن لم تكن هذه قدسية . .

فما هي القدسيات إذن ؟ !

أجل سأفعل كل شيء . .

سأرتكب أشنع الجرائم جميعاً

أسرق . . .

أقتل . . .

أسفك الدماء . . .

أنبش قبور الموتى . . .

فقط يبقى لى هذا الوجه الذى أحبه . . .

وأحسست أننى أريد أن أراه . . . أن أرى هذا الوجه . . أرى

أبى . . . فقد افتقدته كل هذه الأيام التى مضت . . . اللبالي السوداء

التي عشتها . . . الساعات الطويلة التى مرت وأنا أهتف بالغمض . . .

أهتف بمن يطفى هذه النار التى فى عيني . . . وكأنه هو أيضاً كان

يحس هذا الإحساس . . . ويتشوف لهذه الرغبة . . . لأننا التقينا بعد

عشرة أيام . . . التقينا مصادفة . . على باب القصر الذى ما زلنا نعيش

فيه معاً .

حقيقة إننا لم نتكلم . . ولم ننبس . . وإنما نظر كل منا إلى الآخر . .

وانصرف .. وكأن كلاً منا يتأسف على شيء .. وكأن كلاً منا يتأسف
على هذه النظرة .. التي بدت منه إلى الآخر ..
ولكنني رأيته على أي حال ... رأيت أبي .. إن هذا فقط هو الذي
كنت أريده .. والغريب أنه قد أفادتني كثيراً هذه الرؤية .. أفادتني
في أشياء كنت أظن أنني لن أقدر عليها .. لقد شئت من أذى ..
وقوت من عزيمة .. لقد جعلتني أتردد في كل شيء .. إلا فيما كنت
قد عقدت العزم عليه ..

وبهذه العزيمة الصادقة .. وبهذه القوة التي تفوق قوى البشر
جميعاً ... ذهبت إلى مكتبي في هذا اليوم ..
لقد كنت أذهب إلى مكتبي .. في الأيام التي مضت .. والتردد
وخور العزيمة .. وتبلبل الخاطر وضعف الإرادة ... كل ذلك يلزم
كل خطوة أخطوها .. كل حركة تبدر مني .. كل نظرة ألقها على
شيء ... أما اليوم .. فلم أكن أثبت قدماً .. مما أنا فيه الآن ..
لماذا ؟ كنت لا أدري ...

كان أول شيء فعلته .. هو أنني استدعيت سكرتير التحقيق ..
وفاجأته بطلب دوسيه الجتاية رقم ١١٠٧ ولما أحضره لي .. طلبت منه
أن يتركني .. أراجع هذه الصفحات مرة أخرى .. وأن لا يأذن لأحد
في الدخول علي .. ولما انصرف .. قمت إلى الباب .. وأغلقت خلفه ..
ومع أنني أغلقتة جيداً وأحكمت رتاجه أيضاً .. إلا أنني عدت إليه مرة

أخرى لكى أتأكد من ذلك .. ومن ثم تناولت هذه الأوراق وراجعتها بدقة ... راجعتها وكأننى أقرأها لأول مرة .. وكأننى لم أكن المحقق الذى حققها . ولما راجعتها صفحة صفحة .. وقرأت كلماتها كلمة كلمة .. تعجبت .. تعجبت كيف أننا أحياناً نؤمن بالباطل كل هذا الإيمان ... ومددت يدي إلى شيء .. والغريب أن أصابعى لم ترتعش هذه المرة .. وهى تمتد إليه .. كما كانت ترتعش فى كل مرة .. تمتد إليه فيها .. مددت يدي إلى ذلك الشيء الذى أحفظ به بين طيات ثيابى .. ولكن لم أكد أفعل حتى أعدته ثانية فى رعب .. وأعدته سريعاً جداً .. لقد أردت أن أتأكد مرة أخرى .. هل أغلقت الباب فعلاً .. وأغلقتة جيداً .. وأحكمت رتاجه إحكاماً دقيقاً .. يا الله ! ... إلى هذا الحد أنا أخاف على هذا الشيء ؟ ! ترى هل أنا أخاف منه أو أخاف عليه ؟

ولما قمت إلى الباب .. وتأكدت من أنه محكم الإغلاق .. عدت إلى ذلك الشيء الذى أحفظ به بين طيات ثيابى وأخرجت تلك المذكرات .. التى كنت أدون فيها أولاً بأول معلوماتى ... وأثبت فيها جميع الحقائق التى وصلت إليها ..

فردت صفحات هذه المذكرات جميعاً أمامى .. وبدأت أقرأ .. ولكنى توقفت .. أحسست بأن هذه المذكرات ينقصها شيء .. وأن القصة تنقصها النهاية .. ولما كنت أشعر برغبة ملحة فى القراءة ...

وكان من غير المعقول أن أقرأ شيئاً ناقصاً .. مددت يدي .. وتناولت
القلم .. وأكملت النقص ... كتبت كل الحديث الذي دار بيني وبين
أبي .. دونت كل جملة قالها ... وكل لفظ فاه به .. وكل اعتراف
صدر منه .. وحتى كل قطرة من الدموع انسكبت من عينيه ..
صورتها في موضعها .. ووضعها في مكانها من الحديث ..
وبذلك تمت القصة ... واستقامت فصولا .. ورحت أقرأ شيئاً
كاملاً لا عوج فيه ولا لبس ..

* * *

قرأت هذه المذكرات مرات عديدة .. هذا هو الذي تأكدت
منه .. أما الذي لم أتأكد منه حتى الآن فهو عدد هذه المرات بالضبط ..
هل هي عشر؟ ... هل هي مئة؟ ... هل هي أكثر؟ هل هي
أقل؟ .. هذا هو الذي لا أذكره ..
ثم لما استوعبت سطورها جيداً ... وحفظت كل كلمة فيها عن
ظهر قلب .. طويتها لأعيدها إلى مكانها الأمين .. بين طيات ثيابي ..
ولكن هل ستظل هذه المذكرات في هذا المكان ؟ وإلى متى ؟
وهل أنا واثق من هذا المكان إلى هذا الحد .. حد أن أحفظ فيه بهذا
الشيء الذي هو حياتي ووجودي ودنياي .. دون أن تمتد
إليه يد .. أو تراه عين ؟! ... وما دمت أنا أخاف عليه هذا الخوف ..
ومادام الشر .. في وجوده ... والإبقاء عليه .. والنفع كل النفع

.. هو في إخفائه .. إلى الأبد .. مادام الأمر كذلك .. فلماذا
أحتفظ به .. لماذا لا أخفيه من الوجود نهائياً .. لماذا لا أجعله كذرة
من رماد .. أتركها تتطاير في الهواء .. إن الهواء هو الشيء الوحيد الذي
لا تراه عين .. ولا تمتد إليه يد ..

واستقر رأيي على أن أفعل ... و ... وفعلت .

مددت يدي إلى علبة من الثقب كانت أمامي ...

ولكن هنا ؟ في هذه الغرفة ؟ فوق مكتبي هذا ؟ ولم لا ؟ ..
ولكن إذا اندلعت ألسنة النار وتطاير اللهب .. وتجمع الناس حول النار
وأخذوها .. قبل أن يتحول هذا الشيء إلى رماد كما أريد ... وبقيت
قصاصة .. ورقة .. أو حتى كلمة .. فماذا يكون الحال ؟ ! ...
لا .. لا ... إن هذا ليس مكان ذلك ...

... أي مكان إذن ؟ .. أي مكان غير هذا ؟ ... إذن سأظل
أحتفظ بهذا الشيء معي .. حتى أذهب إلى بيتي على الأقل .. وفي
بيتى أفعل ما أريد .. كما يفعل الإنسان في بيته ما يريد ... ورجحت
عندي هذه الفكرة .. وفكرت فيها جيداً .. ولكني في النهاية .. لم
أستصوبها .. لقد تسلط عليّ وهم غريب .. وهم جعل فرائصي ترتعد ..
من مجرد التفكير فيه .. وهم يجعلني أقف عن هذه الفكرة .. نهائياً ..
إذ ماذا يكون الحال لو حدث بعد أن غادرت مكتبي الآن وأنا أحمل
هذا الشيء معي ... لو حدث لي حادث ... دهمني سيارة مثلاً

اصطدمت سيارتي أنا ... فاجأني الموت وأنا في الطريق ... لا ... لا ... لا ...

وفكرت ثانية .. ولكنى فكرت هذه المرة .. فى الشقاء الذى يلاقيه السارق .. بعد أن يسرق ... والقاتل بعد أن يقتل ... والمجرم بعد أن يرتكب جريمته ... إن الشقاء لم يكن قط فى السكين التى تقتل بها ... وإنما هو فى السكين التى نخفيها ... وواتنى فكرة .. ولا أدري كيف وواتنى ... ولا أدري كذلك .. لماذا فرحت بها ولها ... ونفذتها على الفور ..

ومددت يدي إلى علبة الثقاب التى أمامي .. ومددت يدي أيضاً إلى هذا الشيء الذى أخاف عليه أو أخاف منه ... لا أدري ! وأمسكت بكل ذلك فى يدي جيداً ...

كانت دورة المياه .. التى نستعملها نحن الرؤساء بعيدة عن دورة المياه العامة ... كانت فى مكان منعزل تماماً عن الناس .. فلماذا لا أفعل ذلك هناك .. لماذا لا أغلق هذا الباب على ... وأفعل ما أريد ... وبدل أن تتطاير تلك الذرات من الرماد التى تخلفها النار ... بدل أن تتطاير فى الهواء ... لماذا لا تغيب فى تلك البالوعة القذرة .. التى لا يغيب فيها إلا كل قدر ... وهل هناك أكثر قذارة من هذا الذى سأغيبه فيها ؟ ! ..

ونفضت إلى الباب وفتحته .. ومن ثم رحت أخترق ذلك الممر الطويل

الموصل إلى هناك . . . وكنت أحترقه برباطة جأش . . . وبقدم ثابتة . . .
جداً . . . يعلم الله . . .

* * *

. . . وفتحت الباب . . . ودخلت . . . وفتحت أيضاً عيني ونظرت . . .
ولإذ بي أرى شيئاً عجباً لم يكن في تصوري أبداً أنه يحدث . . .
أننى سأراه . . .

لقد أخطأت الباب الذى كنت أقصده . . . وقصدت باباً آخر . . .
كيف حدث هذا . . . ؟؟ لا أدرى . . .
إن كل الذى حدث . . . كل الذى أذكره . . . هو أننى رأيت
باباً أمامى فدخلت . . .

. . . لم أفطن إلى ما حدث . . . لم أفطن . . . إلى أن هذا
الباب الذى فتحته ودخلت . . . هو باب غرفة مكتب — رئيس
النيابة — . . . نعم، لم أفطن إلى ذلك إلا . . . عندما رأيت نفسى أمامه
وجهاً لوجه . . . وعيناً لعين . . . ووجدتنى أضغ كل ما أحمل بين يدى . . .
من أوراق فوق مكتبه . . . حتى علبة الثقاب وضعتها هى الأخرى أمامه . . .
و . . . وانصرفت . . .
. . .
. . .

أنا لا أستطيع بعد - هذه اللحظة - ... أن أدون شيئاً مفيداً ...
 إن كل الذى حدث بعد ذلك لا أعرف عنه شيئاً ... لا أعرف حتى
 أين ذهبت ... أو ماذا رأيت ... أو سمعت ... لقد كانت
 الرؤية غير واضحة أمام عيني ... كنت أرى الأشياء ... ولا أستطيع
 أن أتبينها ... أو أرى الوجوه ... فلا أستطيع أن أتعرف عليها ...
 وكذلك أيضاً كانت أذنى ... كنت لا أسمع شيئاً ... كانت
 الأصوات جميعاً تأتي عند أذنى ... ثم تتضاءل ... تتلاشى
 تدوب ... تصير إلى عدم ... كانت مثل المراثيات تماماً ...
 يختلط بعضها ببعض فى عيني ... بحيث إننى كنت أجهد نفسى
 كثيراً لأميز بينها ... ومنع ذلك لا أذكر أننى ميزت شيئاً ... إن
 كل ما كانت تقع عيني عليه ... خيالات فقط ... وكل ما
 كانت تبستمع أذنى إليه صدى فقط
 غرفة صغيرة .. صغيرة جداً .. كل ما فيها جامد .. صامت ..
 مطبق الصمت .. لا تسمع فيها لغواً .. حركة .. نائمة .. كل ما يأتي
 إلى أذنك فيها شيء .. شيء غريب .. لا هو يشبه الصوت .. ولا هو



يشبه الصمت . . إنه أقرب ما يكون إلى الأنفاس . . الأنفاس المحترقة . .
الأنفاس التي تكاد تتلاشى قبل أن تبلغ الشفاه . . تحترق قبل أن تخرج
إلى الهواء . . ولكن أنفاس من هذه ؟ . . كنت لا أعرف . . كانت
أذنى لا تميز . .

وكأذنى تماماً . . كانت أيضاً عيناى . . ولكنهما كانتا أقدر
إلى حد ما على التمييز . . كنت أنظر إلى الغرفة فإذا بكل شيء
فيها أبيض . . ناصع البياض . . الجدار . . النافذة . . الباب الصغير . .
المشجب . . المائدة . . الإبريق الذى فوقها . . كوبة الماء التى عليها . .
السريр الذى أنام فوقه . . الثوب الذى أرتديه . . الغطاء الذى فوق رأسى . .
وجه الفتاة التى تجلس إلى جوارى . . الثوب الذى ترتديه . . الغطاء
المنشى الذى فوق رأسها . . الحذاء الذى فى قدمها . . كل هذا كان
أبيض . . ناصع البياض . . لهذا فقط استطعت أن أميز . . استطعت
أن أعرف . . أعرف أنها غرفة فى مستشفى . .

* * *

ضربات قلب . . تحصى . . تعد . . درجات حرارة تعلو . . تزداد . .
ترتفع . . تنخفض . . تقاس أولاً بأول . . درجة درجة . . ساعة ساعة . .
تحصى . . تثبت على الورق . . خط أسود يرتفع إذا سجلت مرة . .
خط أسود ينخفض إذا سجلت ثانية . . أكياس من الثلج توضع . .
تذوب . . يجىء غيرها . . تذوب أيضاً . . يجىء غيرها . . تذوب كذلك . .

٢٧١

إبر كأياب الأفاعي تغرس في لحمي .. شراب كآته العلقم يصب بين
شفتي .. يغص به حلقى .. تتجمد مرارته فوق لساني .. فوق شفتي
لهذا فقط عرفت .. عرفت .. عرفت أنني مريض .

* * *

رجع لهمس .. صدى لصوت .. زفرات لألم .. أنفاس لحزن ..
همسات لدموع .. همهمة لشفاه .. وشوشة لصمت .. تأتي إلى أذني من
مكان بعيد .. بعيد جداً .. ومع ذلك تذهب .. تذوب .. تتلاشى ..
لا يبقى منها في أذني سوى خيالات .. خيالات لألفاظ .. أشباح
لكلمات .. صور لمعان .. هبوط شديد في القلب .. انهيار زائد في
الأعصاب .. فقدان كبير في الذاكرة .. لهذا فقط عرفت .. عرفت
بماذا أنا مريض ..

* * *

طبيب يخرج .. طبيب يدخل .. طبيب آخر يجيء .. ممرضة تنهض
.. ممرضة أخرى تجلس .. شبح يظهر من بعيد .. يقترب .. يقترب
.. يقترب .. ثم يختفي فجأة .. يتلاشى .. لا يرى له أثر .. ثم يظهر
فجأة .. يرجع .. يعود .. يقف أمامي في ثياب سوداء .. هو فقط
الذي يرتدى السواد .. يقترب مني .. ينظر إلى .. يحرق في وجهي ..
يتفرس في عيني .. يصمت .. يصمت طويلاً .. لا ينبس .. لا يطرف
.. لا تختلج له عين .. لا تتحرك له شفاه .. إنه تمثال .. تمثال من

حجر .. تمثال من صخر .. ولكنه يبكي .. تسفك عيناه الدموع ..
دموع .. دموع كأنها النار .. تتساقط نقاطها على يدي .. على وجهي ..
على صدري .. ترى لماذا هو يبكي ؟ ! .. ترى من هو هذا الشبح ؟ ! ..
من هو هذا الشخص الواقف أمامي .. يبكي .. ينتحب .. تسفح
عيناه كل هذه الدموع .. من هو ؟ .. ما صلته بي .. ترى هل
رأيتَه قبل الآن ؟ .. ومتى رأيتَه ؟ .. وأين وقعت عيني عليه لأول مرة ؟ ..
ولماذا هو يبكي كل هذا البكاء ؟ ؟ .. لماذا هو يرتدى السواد ؟ ! ..
هل هو الوحيد الذي يرتديه ؟ ! .. هل هو يعلم أنني سأموت ؟ .. أو
أن أحداً تربطه بي صلة قد مات ؟ .. وما صلته بي .. بي أنا ..
.. أجل أنا .. أنا من ؟ كنت لا أدري ..

* * *

ولما كان يجهدني التفكير كنت أعود فأنظر إليه ثانية .. ولكنني أراه
قد غاب .. ذهب .. تلاشى .. صار إلى عدم .. إلى خيال .. حتى هذا
الخيال كان غير واضح لعيني .. كان يبدو لي أشبه ما يكون بفتاة أعرفها
.. تربطني بها صلة .. صلة كبيرة .. عزيزة .. جميلة .. حلوة ..
كنت أحبها ذات يوم .. وكانت هي أيضاً تحبني ذات يوم .. ولكن
من هي هذه الفتاة التي كنت أحبها كل هذا الحب ؟ .. ما اسمها ؟
مثل أسرتها ؟ .. من أبوها ؟ .. من أمها ؟ .. كيف ولدت ؟ ..

كيف نشأت ؟ .. كيف عاشت ؟ .. كيف تعرفت عليها ؟ .. كنت
لا أعرف .. أجل ، كنت لا أعرف ..

* * *

هكذا كنت .. وهكذا ظلت .. ظلت طويلاً .. حتى بعد أن
شفيت وأذنوا لي بالخروج .. كل الذى كنت أراه خيالات .. خيالات
فقط .. وكل الذى كنت أستمع إليه صدى .. صدى .. صدى
فقط .. حتى الذى حدث لى أخيراً .. كان هو الآخر صدى .. صدى
لا أذكر منه شيئاً .. ولا أستطيع حتى اليوم أن أميز منه شيئاً .. كل
الذى أذكره .. أميزه .. هو هذه الخيالات .. هذه الخيالات التى
مازالت تروح وتجيء أمامى إلى اليوم ..

قاعة رجة .. رجة جداً .. فسيحة إلى حد كبير .. غاصة
بالناس .. جمع غفير من البشر .. من الوجوه .. إننى أعرف أكثر
هذه الوجوه .. أعرف أكثر هؤلاء الناس .. قضاة .. مستشارون ..
رؤساء محاكم .. أعضاء نيابة .. وزراء .. رجال قانون .. كل هؤلاء
يحيطون بى .. يلتفون من حولى .. يثنون على .. نظراتهم تتعلق
بى .. يذكرون اسمى .. يوجهون عبارات إلى .. همسات ..
همهمات .. نظرات .. شخص كبير .. مهيب .. يتقدم إلى ..
إلى أنا .. يده تمتد إلى .. إلى صدرى .. تضع عليه شيئاً .. تقبلنى
وساماً .. عاصفة من التصفيق .. تنطلق .. تدوى .. تعربد فى

سمعى .. تقصف كالرعد فى أذنى .. تنال كالججارة على وجهى ..
تلق رأسى بلا رحمة .. تمزق صدرى .. شىء فى قلبى يتحرك ..
يضطرب .. يخاف .. يرتعد .. يرتجف .. يتمزق .. دموع فى عيني
.. تتجمع .. تسيل .. تنفطر .. تنهمر .. تنساب على وجهى ..
تغمر شفتى .. تغرق صدرى .. صورة بغیضة .. بغیضة جداً تلوح
لعيني من بعيد .. من بعيد جداً .. إنها تقرب .. إنها تدنو .. تقف
أمامى .. تتراقص فى عيني .. هى فقط التى أراها واضحة .. واضحة
جداً .. راية سوداء .. ترتفع فوق أحد السجون .. ترتفع فى السماء ..
ترتفع أمام عيني .. أخاف .. أغمض عيني .. أغمضهما جيداً ..
ولكنها مازالت ترتفع .. ترفرف أمام عيني .. مازلت أراها .. إنها لا
تريد أن تبعد .. لماذا هى لا تريد أن تبعد ؟ .. لا تريد أن تغيب عن
عيني ؟ .. الشبح الأسود يظهر فجأة .. يظهر ثانية .. يلوح لعيني
من بعيد .. لأننى أراه .. أراه جيداً .. إنه يقترب .. يدنو .. يتجه
إلى .. إنه أيضاً يتجه إلى مكان أتجه أنا إليه .. ربوة صغيرة فى مكان
قفر .. الـراية السوداء تـعلو .. تـعلو .. ترفرف فوق رأسينا .. ها هى ذى
الربوة بيننا .. إنها قبر .. قبر فى مكان قفر .. قبر ترتفع فوقه تماماً
الراية السوداء .. ها هوذا الشبح يمد يديه إلى .. يلمسنى .. يرتقى فوق
صدرى .. يهتف بصوت كالرعد ولكنى لا أسمع شيئاً .. لا أميز
شيئاً .. إنها كلمة واحدة .. واحدة فقط .. هى التى ميزتها .. وما زلت

٢٧٥

أميزها إلى اليوم . . أخى . . وكلمة أخرى . . كلمة واحدة أيضاً . . كلمة
تماثلها تماماً . . أختى . . هذه الكلمة هي التي مازلت أميزها أيضاً . .
ولكن من أين يجيء هذا الصوت . . أهو من القبر ؟ . . أهو من
الأعماق ؟ كنت لا أدري . .

* * *

. . وهذه الأخت . . أخت من ؟ . . وهذا الأخ . . أخو من ؟ . .
وهذه الراية السوداء التي مازالت ترفرف أمام عيني . . ما شأنها ؟ . .
وهذا القبر . . هذا القبر الذي في هذا المكان القفر . . قبر من ؟ . .
أهو قبر أحد أعرفه ؟ . . أحبه ؟ . . ولكن من هو هذا الذي أحبه كل
هذا الحب . . وما زلت أحبه . . كل هذا الحب ؟ . . رباه ! إننى . .
إننى . . أسالك . .

. . من هو هذا الرجل ؟

. . من هو هذا الشيخ ؟

. . من هي هذه الأخت ؟

. . من هو هذا الأخ ؟

. . وهذه الراية السوداء ما شأنها ؟ . .

رباه . . رباه . . رباه . .

إننى أسالك . . أجل إننى أسالك !

منطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب



رقم الإيداع ١٩٩٩/٨٩٦٢

I.S.B.N 977 - 01 - 6186 - 1



المعرفة حق لكل مواطن وليس للمعرفة سقف ولا حدود
ولاموعد تبدأ عنده أو تنتهى إليه.. هكذا تواصل مكتبة الأسرة
عامها السادس وتستمر فى تقديم أزهار المعرفة للجميع. للطفل
- للشباب - للأسرة كلها. تجربة مصرية خالصة يعم فيضها ويشع
نورها عبر الدنيا ويشهد لها العالم بالخصوصية ومازال الحلم
يخطو ويكبر ويتعاضد ومازالت أحلم بكتاب لكل مواطن ومكتبة
لكل أسرة... وأنى لأرى ثمار هذه التجربة يانعة مزدهرة تشهد
بأن مصر كانت ومازالت وستظل وطن الفكر المتحرر والفن المبدع
والحضارة المتجددة.

سوزان مبارك



مكتبة الأسرة

1999
مهرجان القراءة للجميع